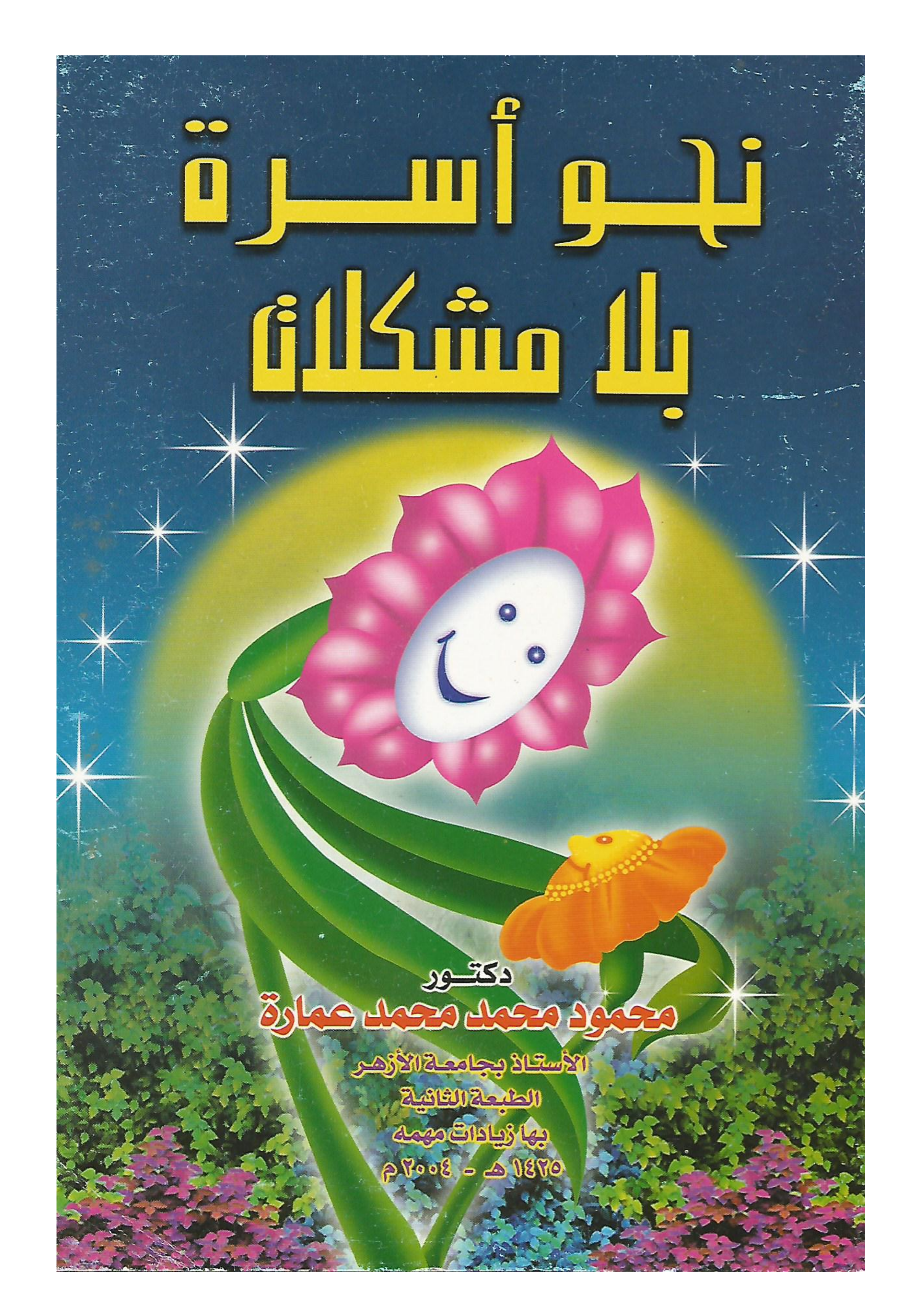


نحو أسرة
بلا مشكلات
دكتور
محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر
الطبعة الثانية
بها زيادات مهمه
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

نحو أسرة بلا مشكلات

دكتور
محمود محمد محمد عمارة
أستاذ بجامعة الأزهر

الطبعة الثانية
بها زيادات مهمه
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١١٧٣٥	٢٠٠٤

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

مطابع التوحيد الحديثة بشبين الكوم ت: ٠٤٨/٣١٥٤٢٠

فهرس الموضوعات

تابع الفهرس

تابع الفهرس

مدخل فى معنى الاسلام .. ومعنى الاسرة

تقول كتب اللغة :

الاسلام مصدر ..مأخوذ من مادة : سلم .

والتى تدل على :

الصحة والعافية .. بمعنى السلامة من العاهات والمؤذيات .

ولما كان الله سبحانه وتعالى منزها عن كل مايلحق البشر من : العيب .
والنقص . والفساد . كان هو وحده السلام .

ويعنى الاسلام :

الاستسلام . والانقياد من قبل العبد .. والذى يعنى إسلامه أمرين :

١ - أنه المستسلم لأوامر الله عز وجل

٢ - ثم هو المخلص فى أدائه لها .. من قولهم :

سلم الشئ لفلان . أى : خلص له .

قال الراغب :

والاسلام : الدخول فى السلم . وهو :

أن يسلم كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه .

ثم يواصل الراغب حديث فيقول :

[والإسلام فى الشرع على ضربين : أحدهما دون الايمان . وهو :

الاعتراف باللسان .

وبه يحقن الدم : حصل معه الاعتقاد . أم لم يحصل . واياه قصد بقوله تعالى :

﴿ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ سورة الحجرات ١٤

والثانى : فوق الايمان وهو :

أن يكون مع الاعتراف : اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل . واتسلام لله تعالى . فى جميع ماقضى . وقدر . كما ذكر عن ابراهيم عليه السلام

﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ البقرة ١٣١

﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ آل عمران ١٩

وقد يعبر بالسلم عن الاسلام : ومنه قول الاحوض :

فذادوا عدو السلم عن عقر[1] دراهم ∴ وارسوا عمود الدين بعد التمايل

وقول امرئ القيس :

فلست مبدلا بالله ربا ∴ ولامستبدلاً بالسلم دينا

ويبقى أن ندرك معانى الاسلام فى القرآن الكريم .. ونقرأ فى ذلك ما قاله ابن الجوزى [2]

الاسلام فى القرآن الكريم على خمسة أوجه :

أحدها : اسم للدين الذى تدين به . ومنه قوله سبحانه :

﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ آل عمران ١٩

الثانى : التوحيد .. ومنه قوله تعالى :

﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ المائدة ٤٤

والثالث : الاخلاص .. إخلاص العبادة ومنه قوله تعالى :

﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾البقرة ١٣١

والرابع : الاستسلام .. ومنه قوله عز من قائل :

﴿ وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها ﴾ آل عمران ٨٣

والخامس : الاقرار باللسان .. ومنه قوله تعالى :

﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ الحجرات ١٤

---

(١) عقر الشئ : أصله ومعظمه .

(٢) نزهة الأعين النواظر / ١٣٦ ومابعدها .

معنى الأسرة

وإذا كان الأسلام يعنى فيما يعنيه : السلامة من العيوب .. ثم الصحة . والعاقبة .. والقوة .. فإن الأسرة التى تنطوى تحت لوائه .. تستمد منه سلامتها .. وقوتها .. أى : استقرارها .. واستمرارها ..

وذلك بعض مايفهم من معنى "الاسرة" كما وردت فى كتب اللغه والتى تشرح معنى الاسرة فتقول : الاسرة : الدرع الحصينة .

وأسر الشئ : شده ..

والإسار : ماشد به

وجاء القوم بأسرهم .. أى : جميعهم .

والأسر : شدة الخلق

ورجل مأسور : شديد عقد المفاصل والفواصل . وفى التنزيل

﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ﴾

وذلك يعنى القوة .. فالمأسور هو : القوى .. الذى لايسترخى

وفلان أصبح طليق عفوك .. من إسار عقبك.

ومفاد ذلك كله : أن الاسرة تستمد من الاسلام استقرارها واستمرارها بما ضمت عليه من معانى : الحفظ .. والوقاية .. والتجمع .. والقوة والحيوية ..

وستظل كذلك ما ارتبطت برافد القوة وهو : الإسلام :

الاسلام : الذى تقوى هى به .. كما يقوى بها أفرادها .. ذلك .. بأن أسرة الرجل هم : عشيرته .. ورهطه الادنون بهم يتقوى .. ويكون له كيان.

وذلك تمهيد .. لحديثنا عن الأسرة فى الاسلام .. والذى يتم إن شاء الله تعالى عبر مرحلتين : مرحلة اجمالية .. نستبين بها وضع الاسرة .. من مطلعها .. إلى مقطعها .. إلى ختامها .

من بدايتها إلى نهايتها .. فلعنا واجدون فيها من الدروس ما تصلح به النفوس .

الفصل الأول

الأسرة المسلمة بين الإنصاف والإجحاف

مدخل

لاتنشأ الاسرة المسلمة من فراغ .. وإنما تنبثق عن قواعد راسخة . وضوابط صارمة ..

وعلى هذه الضوابط .. وتلك القواعد . تدور متحدية تقلبات الأيام . منطلقة إلى تحقيق وظيفتها الاصيلة : الإنسانية .. والاجتماعية ..

وبينما كان الزواج فى حس العابثين متعة عابرة .. تغذى غريزة عارمة فإن له فى الاسلام .. مذاقا آخر : من حيث كان الولد الصالح .. الزكى .. إن "الذكاء" فضيلة العقل بينما "الزكاء" فضيلة القلب ..

ويعنى ذلك الناحية الخلفية التى يكون الانسان بها انسانا ..

وهذه الذرية لن تكون صالحة فعلا إلا فى المنبت الحسن : الزوجة الصالحة .. والتى تصبح محضن الاجيال القادرة على تحقيق أهداف الاسرة .

وفى ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ ومن لم يستطيع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ النساء ٢٥

فالاحصان يعنى : الحرية والطهر ..

والايمان : مصدر هذه الحرية .. وهذا الطهر فالمتعة الحسية وإن كانت أظهر مآربه .. إلا أنها ليست نهاية المطاف . وإنما نهاية المطاف هو : الولد الصالح .. يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ نسائكم حرث لكم فائتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم.. ﴾

أى اطلبوا الولد .. ولكنه الولد الصالح على مايقول عز وجل

﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ مريم ١٩

زكيا : بالزاى ..

لاذكيا .. بالذال

وإذ تنافس المتنافسون اليوم راغبين أن يكون نجاحهم مشرفا بمجموع عال .. فإن الذى يشرف حقا أن يكون الولد "زكيا " .. طاهر الذيل .. نقى السيرة والسريرة .. فإن حصل ذلك .. فما فاته من الدنيا شئ يبكى عليه !

تمهيد

ستون الف كتاب عن الشرق الادنى طرحتها دور النشر الغربية فى أقل من قرن من الزمان . وبالتحديد : من عام ١٨٠٠م إلى عام ١٩٥٠ م وكانت بأقلام مستشرقين يحاولون بالاستشراق إنشاء (أسلوب عربى للسيطرة على الشرق . وإعادة صياغتة ثم ممارسة السلطة عليه) .

ولم يكن الاستشراق مجرد مبادرات فردية (ولكن ارتبط بمؤسسات تبشيريه .. وأغراض استعمارية . ومسئوليات دولية أجنبية . وهو يعمل مع الكنيسة . ومع وزارات الاستعمار .. مؤديا دوره فى اثارة الشبهات .. كرأس حربة للتبشير ومعاهد الارساليات . لخلق ظاهرة انتقاص العرب والمسلمين . وفكرهم ولغتهم . وعقائدهم)

واجبنا

واجب الأمة أن تنهض لكشف هذا الزيف .. والتصدى لهذا الزحف .. على حد قول : الاب : " الكرملى " عن هؤلاء الطاغين .

(لابد أن ينتقدو الانتقاد الصحيح . ولقد وجدنا هفوات لاتغتفر لهؤلاء المستشرقين فى جميع الامم ، وفى جميع التصانيف . وما نشروه من الكتب)[1]

ويحملنا على هذا الرد .. تصورنا لحجم هذا الخطر الداهم :

(فالاستشراق .والاستعمار . والتبشير اشبه بالحلقات الثلاثة المتداخلة التى يتخذها "التعاون" شارة له دلالة على قوة التماسك)[2]

ويفرض علينا الحق أن نكشف النقاب عن سبب الاسباب فى نظرة خصومنا إلينا وهو : سوء تطبيق الاحكام الإسلامية .. فرأى خصومنا الإسلام من خلال هذا العوج .. لكن الإسلام شئ .. والمسلمون شئ آخر :

فسلوك أتباعه ليس حجة عليه .

وإذا كنا لانفسر الآية الكريمة منزوعة من سياقها .. فإننا ننوه هنا بمركز المرآة المرموق .. ومن خلال الاسرة وكيف تتراء المرأة لنا تحت سقف البيت موفورة الكرامة . مرفوعة الرأس .. لها دورها المؤثر فى ترقية الحياة وتنشئة الاجيال على نحو يرد الله تعالى بها كيد الكائدين الظانين بالاسلام ظن السوء .. هذا الاسلام الذى اعلى قدرها وغالى بمواهبها على نحو غير مسبوق ولاملحوق :

من ملامح المنهج الاسلامى

لقد كان للاسلام منهجة الراشد فى صيانه الاسرة وحتى تستقر وتستمر .. وذلك عن طريق تشريعاته وتوجيهاته :

---

(١)مجلة المجمع العلمى بدمشق - المجلد ١٤/٣٣٦/١٩٣٦

(٢) الاسلام والثقافة الغربية ١٠٦

قبل الزواج وأثناء الزواج :

وعندما تهب العاصفة : ويعنى ذلك أن الاسرة فى الاسلام ولدت لتبقى؛ ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله عز وجل .. فقد وضعت الشريعة هذه الضمانات .. طبق خطتها إزاء كل بغيض .. وضعت ما يمنع وقوعة . وإذا وقع .. تظل المراة موفورة الكرامة .. مرفوعة الرأس.

أما قبل الزواج :

فقد كانت توجيهات الاسلام صارمة مركزة على ضرورة دراسة الجدوى . بوضع الخاطب فى نقطة الضوء .. حتى نحسن تصور على بينة .. ليجئ حكمنا عليه صائبا .. وبالتالى تكون على رجاء الاستقرار والاستمرار .. وقد كانت هذه القضية من الاهمية بحيث باسرها ﷺ بنفسه مشيرا إلى دواعى الاختيار .. التى ينبغى أن تتجاوز القشرة الظاهرة .. لنغوص فى الاعماق :

مر رجل على النبى ﷺ فقال :

ماتقولون فى هذا ؟ قالوا :

حرى أن خطب أن ينكح .

وإن شفع أن يشفع

وإن قال أن يستمع ..

ثم سكت .

فمر رجل من الفقراء المسلمين . فقال :

ما تقولون فى هذا ؟ قالوا :

حرى إن خطب أن ينكح .

وإن شفع أن يشفع

وإن قال أن يستمع ..

فقال رسول الله ﷺ :

(هذا خير من ملء الارض مثل هذا)[1]

لقد وقع المسئولون أسرى جمال الفتى أو ما بدا من ثراء .. أو فتائه !

ولو مضى اختيارهم طبق ما يشتهون .. فلسوف تنطفئ هذه الرغوة العائمة يوما .. تلك الرغوة التى لاتصبر حتى على هبة النسيم .. والتى تكشف .. بل تنكشف .. عن هباء .. وخواء .. لاتقوم معه اسرة .. ولايستقر لها بنيان .

وحرصا منه ﷺ على صحة القياس .. يتجه بهم إلى الأعماق وفيها من جواهر الاخلاق .. فإن هذه الأعماق هى التى تستقر .. ولايبقى على السطح إلا الطحالب !!

اختيار الزوجة

يقول ﷺ : (إذا خطب أحدكم المرأة .. فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل)[2]

ويتم ذلك كله تحت إشراف الولى (فلا نكاح إلا بولى) رواه الترمزى

على أن يكون للبنت رأيها فى خاطبها .. هذا الرأى المحروس بحكمة الولى وتجاريبه .. حتى لايخدعها ختار ماكر .

أجل :

إنه من الضرورى معرفة الطرف الآخر . وبعمق حتى لاتفاجأ بما تكره :

ذلك بأنه (بعض الناس يفاجأ بهذا الذى يكره . لانه لم ير الطرف الآخر على حقيقته) ..

---

(١) رواه البخارى (٢) رواه ابو داود . والحاكم . وصححه

وإنما اكتفى بقراءة العنوان .. فكان ما كان .

ومما تجب العناية به عند الاختيار :

١ - أن نلتقى على مبدأ .. وخير المبادئ . التربية .. وفى ظله يمكن التعايش

٢ - والميل القلبى لابد منه .. فراراً من التفور المانع من التكيف ..

قوله ﷺ : وهذا من يشير إليه قوله ﷺ لرجل يريد الزواج (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) رواه مسلم والنسائى

إن المراة قد تكون جميلة .. بل وفاتنه .. ومحط الأنظار .. ولكن .. قد لايروق الرجل منها شئ هو ينفر منه بطبعه .. وقد يكون فى نفس الوقت ميزة فيها عند غيره .

٣ - ضرورة سؤال الآخرين وعلى المسئول أن يذكر العيوب التى يراها مقتصدا غير مبالغ .. وبعيدا عن التشهير .. وعلى قدر الحاجة .

٤ - وللخاطبة من النساء دور لايتوفر للرجال :

ا - تشم معطفها .. تأكدا من رائحتها .

ب - ثم تتأمل .. كعبها .. فقد تكون سخيفة .

جـ - السؤال عن أخواتها .

د - فإذا عزم الامر فلا بد من :

طائفة من الامة .. أو على الأقل : شاهدان ثم الوليمة .. وإعلان الزواج ونتساءل :

لماذا الاعلام .. أو الاشهاد ؟

والجواب :

إن ذلك يعنى الالتزام أمام المجتمع بتحمل المسئوليه .. حفاظا على هذا الميثاق الغليظ الذى يعرض علينا جميعا أن نتعاون على استقراره .. واستمراره .

ولقد تضافرت تشريعات الإسلام هنا مركزة على اختيار ذات الدين ..
فرارا من " الجمال " الصارخ .. الذى سوف يكون بابا تهب منه الريح ..
فلا نستريح .

ومن هذه التوجيهات :

(لاتزوجوا النساء لحسنهن . فعسى حسنهن أن يرديهن

ولاتزوجوهن لاموالهن .. فعسى أموالهن أن تطغيهن .

ولكن .. تزوجوهن على الدين : ولأمة خرقاء .. سوداء .. ذات دين : أفضل) رواه ابن ماجه

ومنها (من تزوج امرأة لعزها .. لم يزده الله إلا ذلا .

ومن تزوجها لما لها لم يزده الله إلا فقرا .

ومن تزوجها لحسبها .. لم يزده الله إلا دناءه ..

ومن تزوج امراة لم يرد بها إلا أن يغض بصره . ويحصن فرجه . أويصل
رحمه بارك الله له فيها . وبارك لها فيه) روى نحوه ابن حبان

ومن الزوجات المباركات .. ما اشار إليه الحديث الشريف :

(التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا امر ولاتخالفه فى نفسها ولاماله بما يكره) رواه اصحاب السنن

إنها حريصة على أن تكون بين يديه فى أفضل حالاتها :

فلا يرى منها إلا مايريح .

ولايشم إلاأطيب ريح .

ولايسمع الا الكلام الطيب .

ثم هى تحاول دائما أن تتكيف معه : تسارع فى رضاه ..

وإذا كان لها رأى خاص فى قضية يخالف رأيه .. سرعان ماتوافقه على مايرى ..

فإذا غاب .. كان فى قلبها .. بعد ما كان بحضوره ملء السمع والبصر :

تتصرف كما لو كان موجودا .. هيبة منه وإجلالا له :

إنها الزوجة المثالية :

شكلا .. وموضوعا ..

إن "الجمال" ليس فى نجاح كل طالب .. ولكن الجمال فى ترتب النتائج على المقدمات .. حيث ينجح المجد فقط ..

والجمال فى الزوجة :

أن تترتب الاخلاق على الدين . لأن الجمال شكل لم تصنعه الزوجة .. وإنما الذى تصنعه هو : تدينها .. وإلا .. فقد تكون الكافره أجمل .. ولكن الامر على ما يقول عز وجل :

﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ﴾

بل أن هذه الأمة بخيريتها .. بفضائلها .. أجمل شئ فى الدنيا كلها :

(إن الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة) رواه النسائى ومسلم

إن الايمان معناه :

أنك تملك بها ثروة أكبر من الشكل ..

وقد ضربوا لذلك مثلا :

فمن ضاع منه درهم لا يملك إلاهو فإن حزنه عليه يكون عميقا .. أما من ضاع منه درهم وهو يملك ألفا غيره .. فإنه لا يحزن ..

كذلك :

لو بقى الدين .. ونفد الجمال والمال فإنه مع الزوج رصيد أكبر منهما .. حتى لو اجتمعا .. وإذن .. فاظفر بذات الدين .. فهى ركن البيت الركين .

مرة أخرى :

فاظفر بذات الدين ..

فهو العاصم من الزل : ذلك بأن الرجل قد تمتنعه من الخطأ مروءته أما المراة .. فلا يكفها إلا الدين !!

ومن معانى ذلك :

أن السلعة هنا غالية .. وهى المرأة .. فلا بد أن نعد لها كفئها .. من الرجال .. إنها ليست متعة لكل ذواقة متقلب المزاج .. وإنما هى « الجوهرة " التى يتسابق إليها المتسابقون .. والسعيد حقا : من "ظفير" بها !!

وإذا تلاقت تشريعات الإسلام وتضافرت .. من إجل إنشاء بيت عصرى على الغناء .. فإن ذلك فى بعض جوانبه .. تقدير للمرأة التى يجب أن تعيش آمنه مطمئنه .. لاتتقاذفها الامواج فى بحر لجى .. ولاتكون تحت رحمة من لايقدرها قدرها . فإذا صح المقياس وطرق الباب فتى مرضى الخلق .. مرضى الدين .. فيجب قبوله ..

وإلا .. فلو رفضنا لكان الاوامر على ما قال ﷺ (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه .. إلا تفعلوه تكن فتنه فى الارض وفساد كبير)

قالوا يارسول الله : وإن كان فيه ؟

يعنون (وإن كان فقيرا) قال :

إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقة فأنكحوه . قالها ثلاث مرات) (١)

المراة عندنا وعندهم

تلك هى كرامة البنت عندنا ..

فماذا عند غيرنا .. فيمن ينقمون علينا .. وما نقموا منا إلا أننا سبقناهم

قالوا : (البنت فى دول الغرب : عندما تبلغ سن الرشد . يقول لها أبوها : اذهبى حيث شئت .. ثم يغلق الباب من ورائها ..

---

(١) رواه الترمزى وحسنه

وتخرج البنت هائمة على وجهها .. لايهم أباها ما إذا كانت تأكل بجدها .. أو بجسدها ؟! وقد تفرض عليها الظروف أن تفقد أعز ما تملك .. وهو العرض .. فى سبيل أرخص ما يملك .. وهو الخبز !!

لقد عرضت نفسها على الرجل .. فهانت وكل معروض مهان .. ولما فقدت الزوج والمعيل .. اقتحمت كل ميدان مناسب .. وغير مناسب .. ثم ركضت هى وراء الرجل تطلبه .. ثم تدفع له المهر . متوسلة إليه أن يتفضل فيقبل !

وقد لا تصل إليه ..

وقد تصل .. بعد أن تكون قد سقطت فى الطريق خمسين سقطة !! (١)

أما بعد الزواج

يقرر الاسلام أنه لابد من تعيين قائد للأسرة ..

أ - يرجع إليه فى الملمات ب - ثم يستأنس برأية عند الاختلاف .

على أن لهذه القيادة خصائصها التى بها تتحقق مقاصد الزواج

أولا : مرشح فطرى .. يجعل من الرجل سيد البيت .

وهو المعنى المشار اليه بقوله تعالى ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض** ﴾

وثانيا : مرشح كسبى ..

وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل فى نفس الآية الكريمة :

﴿ **وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾

إن الرجل هو القادر على الكسب .. ومايفرضه من معاناة .. ومخالطة تأباها طبيعة الأنثى .

---

(١) على الطنطاوى

ثم تبقى الزوجة مع ذلك مستودع الحنان .. وليس ذلك تقليلا من فعالية دورها .. لأن الواقع يؤكد أنه بلا حنان .. لابقاء للإنسان .

فالقيادة للرجل ..

وهى قيادة تكليف .. لا تشريف .. عطاء .. وبلا حدود

رعاية .. لا غنيمة .. مسئولية .. لاتسلط .

اننا نكلف الزوجة شططا حين نحملها مسئولية القيادة .. بينما هى مصدر الحنان .. مصدر الطاقة :

لأن ذلك سوف يستنزف طاقاتها حين نفرض عليها أن تحارب فى جبهته .. فلا تبقى المعاناة لها طاقة تبذلها فى إدارة البيت .. ومن العدل أن يكون ذلك الى القادر عليه وهو الرجل .. على أن يكون ذلك كله من أجل مصلحة أفراد الاسرة جميعا .

وبناء على ذلك .. نقرر :

أن إعفاء الزوجة من مسئولية قيادة الاسرة .. ليس إهمالها .. ولاتهوينا من شأنها .. ولكنه : تقدير لظروفها .. رحمة بها .. ووضع للأمور فى نصابها .

ثم هو من ناحية أخرى : حسم للقضية فلا خلاف ولانزاع .. لا سيما وتوجيهات الاسلام لاتترك الزوج يتفرد فى الساحة وحده .. ليدير الاسرة على مزاجه المتقلب بهذه التوجيهات التى تزامله ضبطا لخطراته .. ونزعاته .. كقائد مسئول عن سلام البيت .

وهى فى مجموعها تقول له :

إنك راع .. وإنك مسئول : اصبر على زوجتك :

لان فطرتها مختلفة عن فطرتك . . فلا تحملها بالعنف على ماتريد .. ولاتتوقع منها كل ما تريد ..

لا تتصورها كاملة .. لأنك لست كذلك .. والعاقل لا يرضى عن صفاته هو شخصيا .. وإن رضى فهو مغرور مأزور !

وسوف يصدمه الواقع الصارم بما لم يكن يتوقع .. وبما لم يكن يعلم !

وعلى الزوج أن يقارن بين ما يعجبه .. وما لا يعجبه ..

ثم عليه ان يتغاضى عما لا يعجبه .. من اجل ما يعجبه !

وذلك بالصبر .. وعلاج الأزمات بالحكمة .. لأن الزوجة خلقت من ضلع أعوج : إن أردت إقامته بالقوة كسرته !

والمقياس الصحيح هو :

خيركم خيركم لأهله .. وأنا خيركم لأهلى .. بل لا بد من تدريب القلب على حبها .. وعدم الاسترسال مع انفعالات الكراهية لان الايمان الجامع : مانع من ذلك .. فلا يفرك مؤمن مؤمنه : إن كره منها خلقا رضى منها آخر.

وأحيانا يضخم الزوج العيوب .. وبنفس القوة يضائل من المزايا .. إلى الحد الذى يصعب فيه الوفاء .. وهنا .. لا ييأس الاسلام من الامل فى تلافى الطلاق .. بمزيد من الحكمة المانعة من هدم المعبد على رءوس من فيه وما فيه !

وعلى الزوج وفى ضوء تجاربه أن يعلم : أن أهداف الزواج متعددة .. وإذا لم يكن حسب .. فما كل البيوت بنيت على الحب .. وما يبكى على الحب .. إلا النساء وإلا .. فأين المروءة والتماس الأعذار للناس ؟!

ولنفترض أن معين الحب قد غاض .. وجفت ينا بيعه .. إلا ان الحياة ممكنة مع ذلك ..

فهناك الولد الصالح .. وجمع الشمل .. وحماية الذرية .. ومن وراء ذلك وعد الله عز وجل بالاصلاح . وهو أمل لا بد أن يتحقق يوما .

مع الاخذ فى الاعتبار ضرورة أن يتفقد الزوج أحواله مع زوجته :

فقد يهدى التأمل إلى أنه هو المخطئ : وإذن .. فليصلح ما أفسد العطار.

وقد يكون مذنبنا مفرطا فى حنب الله سبحانه فكان هذا الشقاء عقابا له .. فلا بد من التوبة .. والرجوع عن تعليق أخطائنا على شماعة الاخرين وقد يكون هناك حاسد .. حسد ونفث فى العقد .. فليكن هو عدوكما المشترك .. والذى يجب أن نحتفظ بطاقتنا المبددة .. لتتجة إلى عدونا المشترك :

الشيطان الرجيم

ان الشقاق والفراق .. تحقيق لأعز أمانيه .. فلنفوت بالتسامح . غرضه الأثيم

التعدد وواقعية الإسلام

هذا هو الأصل فى الاسلام :

أن يكون زوج .. وزوجة .. ولكن قد تحدث أمور تجعل من التعدد أمرا واردا بل لامفر منه ومن واقعية الاسلام ان اباح هذا العدد .

١ - فالمراة تحيض .. وتنفس .. مدة قد تطول .. والرجل مستعد لأداء الحقوق الزوجية أبدا ..

٢ - وقد أثبتت الاحصاءات أن الرجال أقل عددا من النساء .. وهم اكثر بحكم رجولتهم . تعرضا للموت ..

ومن أجل ذلك .. وحتى لايبقى عدد من النساء عوانس .. شرع الله تعالى التعدد ... إلى غير ذلك من الاسباب التى تجعل من التعدد استثناء من القاعدة .. حفاظا من الاسلام على التوازن .. ولتعتدل كفتا الميزان .

ويعنى ذلك أن تشريع تعدد الزوجات ..إنما كان :

استجابة لحاجة الفرد .. زوجا أو زوجة :

زوجا : يجد فى التعدد إشباع حاجته ..

وزوجته .. قد تكون مريضة أو عاقرا .. ولامانع عندها من ان تظل تحت جناح زوج .. يحبها .. ثم تكون له ذرية من الاخرى !

ومن الناحية الاجتماعية :

فقد تكون هناك حروب تنكشف عن عدد من النساء يفوق عدد الرجال .. وإذن .. فمن الحكمة أن تكون المراة حليلة .. بدل أن تكون خليلة !

ويعني ذلك :

إنه بالتعدد تبقى مقاصد الزواج مصونة . بحصول الرجل على حقه في الانجاب مثلا ..

وحصول المراة على حقها في البقاء في ظل رجل يحميها .. وإن لم يحقق كل أمانيها .

ومع هذا .. فما زال هناك من مقلدة الشرق .. من يشغبون على الحق :

ونقول لهم :

إنه في المجتمعات الأوروبية التي تقلدون : ترى الزوج .. وله زوجة واحدة .. ولكن .. له خليلات اضعاف ما اباح الاسلام من زوجات حليلات!!

فأى الفريقين خير مقاما ؟!

إن الاسلام .. بإباحته التعدد يواجه مشكلات المجتمع بالحل العملي .. بينما هو في مجتمعات لا تدين بالاسلام تزداد المشكلة تعقيدا !

شاهد من بني إسرائيل على أهله

وهذا واحد منهم يلزمهم الحجة الدامغة ففي كتابة الاتجاهات الحديثة في الاسلام " يقول المستشرق الانجليزي جب "

(على ان هناك ميدانا يعتصم فيه التشريع الاجتماعي للإسلام اعتصاما منيعا:

إنه ميدان الاحوال الشخصية .. بما في ذلك الزواج والطلاق والإرث إن سبب هذه المناعة لايرجع فقط الى شمول هذا النظام الذي يواجه علميا كل فرد في المجتمع .. وإنما يرجع خاصة إلى أن القرآن قد عين قواعده الاساسية تعيناً واضحا) .

شبهة وردها

يقول الشنقيطى [1]

(يزعم بعض الملاحدة من أعداء دين الاسلام : أن تعدد الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم - المفضى الى تكد الحياة :

لان الزوج كلما أرضى إحدى الضرتين سخطت الاخرى : فهو بين سخطين دائما .. وأن هذا ليس من الحكمة .. وهذا كلام ساقط .. يظهر سقوطه لكل عاقل :

لان الخصام والمشاغبه بين افراد أهل البيت لا انفكاك عنه ألبته : فيقع بين الرجل وأمه - وبينه وبين أبيه - وبينه وبين أولاده - وبينه وبين زوجته الوحيدة .. فهو أمر عادى ليس له كبير شأن .. وهو فى جنب المصالح العظيمة التى يجيبها التعدد : من صيانة النساء - وتيسير التزويج لجميعهم .. والمصلحة العظمى مقدمة على المفسدة الصغرى) .

أما بعد

فلا ننسى فى خضم الحديث عن التعدد .. ماقرره الإسلام للمراة المؤمنه وهو :

أنها (تملك من عدل الله ورحمته - وبحكم مساواتها التكاملية بالرجل .. حق اللجوء إلى القاضى فى حال تعسر حياتها مع زوجها .. طالبة الطلاق .. لتتزوج بآخر) !

ثم .. إن من مقاصد الزواج (أن يجد الرجل هذه الانثى التى تكمله فى السكن النفسى - والتقابل البدنى والخلقى -

وهى تتحد به اتحاد زوج بزوجه الأليف - وامتزاج نصف بنصفه الملائم.

---

(١) محاسن الإسلام /١٣ -

وهناك احتمال غالب - مع حسن الاختيار - والتوفيق بين الطرفين على أن تكون الزوجة الأولى للرجل .

وهى التى يبحث عنها فى عنفوان حاجته بحثه عن « زوجة العمر » وهى الزوجة المستوفية لكل حاجات النفس .

من السكن .. ومن الذرية ومن توثيق الأواصر بذوى قرباه فيها . ومن تحقيق المصالح الاقتصادية والاجتماعية التى يحقق الزواج مثلها .

أى أنها تجمع كل مايفى بالحاجات والضرورات التى تبيح التعدد .

وفى هذه الحالة من التوفيق تنتهى عادة أية ضرورة إلى تعدد الزوجات .. ويقتصر الزوج راضياً على زوجته الواحدة وقد تمثل هذا الكمال الذى اجتمع فى زوجة واحدة فى أول زواج كان للنبى ﷺ بالسيدة خديجة رضى الله عنها .

وهى التى جمعت له - رغم فارق السن - أطيب السكن وأعظم الأزر فى دعوته قبل البعثة وبعدها .

بالرأى والمال والعشرة مع خصوبة العطاء بالذرية من البنين والبنات . (١)

(١) مع القرآن الكريم ، أحمد موسى سالم ، جـ٤

أهميــة الــزواج

عن أبى هريرة رضى الله عنه :

(لعن رسول الله ﷺ مخنثى الرجال : الذين يتشبهون بالنساء . والمترجلات المتشبهات بالرجال .. والمتبتلين من الرجال الذين يقولون : لا نتزوج .. والمتبتلات من النساء اللاتى يقلن ذلك)[1] .

والحديث الشريف تهديد عالى النبرة لكل من تنكر لطبيعته التى برأه الله تعالى عليها .. رجلا كان أو أمرأة .

رجلا يؤثر رخاوة الأنوثة وطراوتها على قوة الرجوله وصرامتها ، ومرأةً تتنكر لطبيعة الأنثى حاشرة نفسها فى زمرة الرجال لتكون ذلك الغراب الذى حاول أن يغير ريشه ليكون طاووسا .. فما بقى غرابا .. ولا صار طاووسا ..

والتهديد هنا باللعن المخرج للإنسان من زمرة المجتمع الذى يسهم بالتخنث فى هدمه .. عن طريق طرح فكرة الزواج جانبا .. وما يترتب على ذلك من انحلاله وخذلانه . وإن الأمر على ماقيل :

ليست العزوبية من أمر الإسلام فى شئ : النبى ﷺ تزوج .

ولو كان بشر الحافى قد تزوج .. كان قد تم أمره كله .

ولو ترك الناس النكاح لم يغروا ولم يحجوا ..

لقد نهى رسول الله ﷺ عن التبتل :

فمن رغب عن فعل النبى ﷺ .. فهو على غير الحق .

وإن يعقوب فى حزنه قد تزوج وولد له .

وعن إبراهيم بن أدهم قال :

(انظر عافاك الله ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه . ولبكاء الصبى بين يدى أبيه متسخطا يطلب منه خبزا أفضل من كذا وكذا . أين يلحق المتعبد العزب)[2]

---

(١) رواه الحافظ فى " تلبيس إبليس "   (٢) تلبيس إبليس . لابن الجوزى

مغزى الزواج:

إن الزواج فى منطلق الشريعة يعنى تكوين أسرة ..

ومغزى ذلك: إتاحة الفرصة لمواهب الانسان أن تتفتح أزهارها فى تربة خصبة لتؤتى من بعد أكلها.

(فهى أولا : تكسر من حدة الشهوة المجنونة. لأن الإنسان بفطرته يزهد فى كل شئ يملكه:

فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى إلى أن كلا منهما يملك الآخر فى كل لحظة يريدها .. لم يعد هناك دافع إلى التشهى العنيف. والسعار الملهوف.

والأسرة كذلك بمشاغلها الخاصة. ومطالبها الدائمة - وعلى الأخص حين يكثر الأولاد ويحتاجون لمزيد من الرعاية - تصرف النفس عن الشهوة الملحة.

وتقف بها عند الحد المعقول. الذى لا يرهق الجسم. ولا يكلفه شططا فمن ناحية الغريزة الجنسية ذاتها .. نجد الأسرة هى المنظم الطبيعى لانطلاق الشهوة. بالصورة التى تمنع دمار الجسد وعذاب اللهفة الدائمة) [1]

قضية شبابية

نحن إذن أمام قضية من قضايا الشباب .. بل هى أهم قضايا هم جميعا. وقد قال الاسلام فيها كلمته .. ورأينا من سنته ﷺ إنذاره القادر على الزواج .. العازف عنه .. فقد قال لعكاف التميمى:

ألك زوجة؟ قال لا

ولا جارية؟ فقال: ولا جارية

---

(١) محمد قطب "الإنسان بين المادية والانسان.

وأنت موسر ؟ وأنا موسر .. بخير.

فقال ﷺ أنت إذن من إخوان الشياطين :

لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم .

إن من سنتنا : الزواج :

شراركم عزابكم . وأراذل موتاكم : عزابكم .

ياعكاف : تزوج .. وإلا فإنك من المدبرين [1]

يعنى : المتولين عن الزحف .. وكفى به إثما مبينا .

على أن للقضية وجها آخر وهو :

أنه بالاعراض عن الزواج تبور فتيات مؤمنات .. قانتات .. صالحات واللاتى تعبر عن أشواقهن المستكنة فتاة منهن .. فاتها القطار :

تقول العانس :

(زرعت روض شفتى بالقبل .. فأزهر وأينع .. ولكن لم يقطفه أحد .. فذوى وجف .

وأعددت سرير الحب فى قلبى .. وضمختـه بالعطر .. ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار.

كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافا .. ثم نثروا فى الحياة :

فمن وجد نصفه صار إنسانا .. ومن وجد غيره .. كان مسخا .. ومن لم يجد بقى نصف إنسان ! .. فأين أنت يانصفى الآخر ؟!!

لقد ضاع النصف الذى فى قلبى .. فمن هو الذى يخفق قلبى فى صدره ؟ من هو الذى لم ينظر بعينى ؟ ويسمع بأذنى ؟

من هو الذى لم أره أبدا .. ولا أرى غيره .. أبدا ؟ !!)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ورجاله ثقات ، ٥ / ١٦٣

الزواج بين الجمال والكمال

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه :

أن رسول الله ﷺ قال :

" تنكح المرأة لأربع : لمالها . ولحسبها . ولجمالها . ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك " .

● **تمهيد :**

لكى ينجح مشروع ما .. لابد من أمرين :

سلامة التفكير ..

وصدق التدبير ..

فإذا بدأ الفكر مخلصاً حراً . موضوعيا . مستوعبا .. اكتمل الجانب النظرى .. بصحة الرؤية .. وسلامة الجهة .

ثم تبدأ الخطوة الثانية والأخيرة بحسن اختيار الأعوان القادرين على تنفيذ الخطة الجديدة . وموضوع الزواج لايخرج عن هذه القاعدة :

فهو أحوج مايكون إلى سلامة التفكير .. ثم إلى الرفيق الذى يتحقق به التعاون على البر والتقوى .. لتستقر الأسرة . ثم تستمر . قائمة على أصولها من تقوى الله تعالى وورضوانه .

وفى الأمر الأول نقرأ قوله تعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١).

فنحن مدعوون إلى التفكير الموضوعى الجاد . فى نعمة الزواج ..

---

(١) سورة الروم « ٢١ » .

وسوف يصل بنا التفكير إلى ما تفضل به الحق تعالى على الانسان .. حين جعل الزوجة من جنس الزوج .. ليكون آنس بها . وأغير عليها . وأقدر على سياستها ..

فى الوقت الذى يمد فيه سبحانه تلك النبتة المباركة بغذاء الود .. لتستوى على سوقها .. ثم ينشر عليها من ظلال رحمته مايكون سياجا مانعاً من هبوب عواصف الخلاف والتوتر .

ولكى تستمر بالزواج الحياة .. يجئ الأمر الثانى وهو حسن التدبير . المتمثل فى التوفيق إلى رفيق يعين على تحقيق أهداف الأسرة التى أشارت إليها الآيات الكريمة .. من السكن والقرار .. والذرية .

وإذا كان الحق تعالى لطف بنا فمن علينا بما هو أهله .. فقد بدأ دورنا الحقيقى بحسن اختيار الشريك المعين على إخراج فكرة المشروع من النظر إلى التطبيق .

وهو ما يشير إليه الحديث الشريف الذى نحن بصدد التعليق عليه .

واقعية الإسلام :

يعترف الإسلام بغرائز الإنسان من حيث أهميتها فى تحقيق وجوده، بل واستمراره وستثماره :

يعترف بها .. فلا يكبتها .. ولايطلق لها العنان .. فرارا من الانفجار أو التسيب .

لقد وضع لها من الضوابط ما يجعل منها طاقة فاعلة . يعمر بها الأرض.

ويحمى بها العرض ، ويبنى عليها قواعد حضارة إيمانية يسعد بها الإنسان حيثما كان .

وهكذا (اقتضت حكمة الحق تعالى : أن تجهزنا بالغرائز التى لولاها لما استطاع هذا الإنسان أن يبقى بشخصه وجنسه :

فلولا غريزة البحث عن الطعام .. لكان مصير الفرد إلى الموت جوعاً .

ولولا غريزة المحافظة على النسل .. لكان نصيب الجنس البشرى الانقراض .

ولولا غريزة الادخار للغد المجهول .. لم يكن سعى ولا كسب .

ولولا غريزة حب الظهور .. لم يكن تنافس فى القوة ، أو الفضيلة .

ولولا غريزة الغضب .. لم يكن دفاع عن الأهل والولد والوطن .

ولولا غريزة حب الاستطلاع .. لم يكن اكتشاف ولا علم .

ولكن هذه الغرائز ، التى سلح الله الإنسان بها لخيره ، وخير مجتمعه تصبح شراً مستطيراً . إذا تركت جامحة ، لا يقيدها عقل ولا دين ولا أخلاق .

ففى غيبة هذه الضوابط :

تصبح غريزة البحث عن الطعام .. شرها .

وغريزة الجنس زنا وعدوانا على أعراض الناس .

بقدر ما تصير غريزة الادخار .. طمعا .. ونهبا . وسرقة .

وغريزة حب الظهور .. غروراً واستكباراً . واستبداداً .

وغريزة الغضب .. تصير جنونا وسفكا للدماء .

بقدر ما تئول غريزة حب الاستطلاع .. إلى تجسس . وبحث عن المثالب .

ومن هنا كان لا بد من التوفيق بين غرائزنا . وحاجاتنا الفردية والاجتماعية) (١)

---

(١) كتاب مجمع البحوث الثالث ١٧٥ بتصرف .

من إشارات الحديث الشريف :

وفى الحديث الشريف توجيهات راشدة ، تبرز ملامح المنهج الإسلامى فى تكوين الأسرة . على نحو يزرى بمذاهب الارض جميعا . والتى تدعى زوراً وبهتانا أن المرأة المسلمة - زعموا - مع أن مكانة المرأة المسلمة بلغت من السمو حدا ليس وراءه وراء .

والواقع الماثل شاهد بهذه الحقيقة .. وشاهد ايضا بعمق الهوة التى تردت فيها نساء الغرب . برغم المحاولات الإعلامية الرامية إلى التشويش علينا .

نساؤنا ونساؤهم :

من الغريب هناك : أن يستأذن رجل جاره المقابل لديه على لون النافذة الذى يرتاح إليه هذا الجار. حتى لا يؤذيه كلما رأى النافذه فى مواجهته بلون لا يرضيه ! .. وفى نفس الوقت .. لا مانع لدى هذا الرجل أن يستأذن جاره فى محفل عام أن يعيره زوجته لتراقصه .. وعلى الملأ !؟

(وهكذا ، يعظمون التوافه .. ويحتقرون العظائم :

يمسكون بيد المرأة عند النزول من السيارة .. وتقدمهم عند الزيارة . ويفسحون لها الطريق لتمر .. ويقومون من المقعد .. لتجلس .. فظن المقلدون أن للمرأة هناك كرامة ليست للمرأة عندنا .. حين بدت أمامهم حرة .. بينما هى مقيدة : معززة .. وهى مهانه ..

وقد حدث فى دولة أوروبية أن أحد المبعوثين ذهب ليستأجر حجرة .. فقابلتة لدى الباب فتاه تخرج باكية شاكية .. فلما سأل عنها عرف أنها ابنة صاحب المنزل .. وهى تريد استئجار حجرة فى بيت أبيها .. فرفض لأن غيرها يدفع فيها ثلاثين .. بينما هى تريد ألا تزيد عن العشرين) ؟!!

معنى تنكح المرأة :

وفى الحديث الشريف إشارة إلى وضع المرأة المسلمة التى كرمها الإسلام أيما تكريم . وذلك واضح فى قوله ﷺ : (تنكح ....)

فهى " تنكح " بالبناء للمجهول .. فهى مطلوبة .. مرغوبة .. لقد استترت .. فعزت .. وتمنعت فطلبت .. طلبها الرجل .. ثم دفع لها المهر .. ثم إنها مستقلة ماليا .. ولو ملكت الملايين .. فهى مكفولة الرزق من قبل زوجها .. فإذا كانت معسرة بلا زوج فهى فى كفالة أبيها أو أخيها أو عمها.

المرأة عندنا :

زوجة .. لا صديقة ولا رفيقة ،، تحتفظ باسمها بعد الزواج ولا تذوب فى شخصية زوجها ..

وقد حمل ذلك التكريم سيدة أمريكية على أن تقول :

إذا كانت المرأة عندكم هكذا .. فخذونى أعيش عندكم ستة أشهر .. ثم أقتلونى !

دلالة التعبير "بالمرأة"

وحين يضع الاسلام المرأة فى مكانها اللائق .. يحرك الخاطب ليتوخى أثمن ما فيها .. وهى دينها .. وما يثمره من فضائل .. ولما عبر عنها " بالمرأة " كأنما يفتح بصيرة الخاطب على ما يوحى به اللفظ من :

الكمال .. والانسان .. والمروءة .. والعفة .. والصدق ..والسهولة .. واليسر

وكلها معانى تدور عليها مادة الكلمة فى استعمالات اللغة العربية .

أسس الاختيار :

والحديث الشريف يعترف ابتداء بغرائز الانسان ويقدر ضغوطها .. ثم يأخذ بيد الخاطب بعد ذلك إلى ما به سعادته :

فهناك غرائز رئيسة تحركه نحو شريكة حياته هى :

١ - غريزة التملك .   ٢ - غريزة حب الظهور .

٣ - غريزة الجمال .

فلا بأس أن تكون الزوجة غنية .. جميلة .. ذات حسب ..

ولكن الحديث الشريف يلفت النظر الى أمور :

أولا : ضرورة حراسة هذا الرغائب الدنيوية بقيم الدين .. حتى لا ينفلت عيارها .

وعندما تحدثت ابنة " شعيب " عليه السلام عن موسى قالت : **﴿ إن خير من استأجرت القوى الامين ﴾** .

إنها القوة المحروسة بالامانة .. وفى غياب الامانه يصبح القوى : مجنونا فى بيت من زجاج .. أو فحلا فى معرض للتحف .. يعبث بها . لأنه لا يعرف قيمتها .

ثانيا : يريد الاسلام للفتى أن يبدأ مشروع الزواج برأس ماله هو .. لا بمال زوجته .. ليظل سيد البيت ..

وإذا اعترف الاسلام بحقه فى الظهور . إثباتاً للذات فى معركة الوجود .. فليكن هذا الظهور بمجهوده الشخصى .. بدل أن يعتمد على والد زوجته .. ضماناً لبقاء زمام المبادراة فى يده ..

وإذن .. فليبدأ رحلة العمر .. بالتعاون مع شريكة حياته .. معتمدا على الله .. ثم على قواه وملكاته .. ليصبح من بعد : غنيا .. مشهورا .. يعتز به انسباؤه واصهاره !!

ثالثا : إن المال والجاه ظل زائل وعارية مستردة .. فلا تعتمد عليه فى الاختيار .. حتى لاتعود من رحلة السراب .. بمزيد من العذاب . ويضيع الامل .. ويحبط العمل .. ويحين الاجل . وهكذا : عندما يذهب الايمان .. فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا .

أما الدين : فهو القيمة الباقية .. التى لاتزول ..

وقد يزايل الزوجة غناها وجاه ابيها .. ويبقى الدين حارسا يقظا يمكن المرأة من الانطلاق مع زوجها لاستئناف المحاولة من جديد .. بانسانيتها المشتقة من دينها . وبهذه الانسانية يزدان الباطن .. ويصبح الجمال الباطنى المشترك رابطة قوية عصية على الزوال .. ويذهب الوالد .. بل وتذهب العائلة كلها .. ليبقى جمال الأدب .. والذى يصبح ثروة تزرى بكل ما يملك الناس ويتنافسون فيه .

يقول البهى الخولى :

(إن أجمل ما فى الانسان انسانيته التى تتضمن جوهر عقائده ومثله وقيمة النفسية . فكل منهما على هذا يتضمن ألوانا من جمال النفس تسمو بالخاطر . وتسعد العيش . وتنفذ إلى الضمير . فيزول الى جانبها أثر كل جمال حسى . وإن على كل منهما أن يتعرف على ما فى أفق صاحبه من لوائح هذا الجمال . فإنه حقيق أن يطالعه من كل آن م تتفتح به سريرته نورا وتقديراً ومسرة ..

.. ولعل أفضل نموذ ج هنا :

هو ما كان بين رسول الله ﷺ وزوجته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : فقد كان زواجهما زواج عقل كبير إلى عقل كبير .

وخصائص نفسية رفيعة إلى خصائص رفيعة . وكان إحساس كل منهما بجمال جوهر صاحبه بالغا ذروة الاعجاب والسرور .

فلم يكن لجمال الحس . ولا لفارق السن أثر فى توثيق العلاقة بينهما . فقد كان ما يطلبه كل منهما فى صاحبه من جمال النفس هو الرابطة الوثقى . التى تزيد على الايام تقديراً . حتى إذا جاءت الرسالة فتمت بها نعمة الحياة الزوجية أتم ما تكون النعمة) [1]

---

(١) البهى الخولى - الاسلام وقضايا المرأة . ١٥ / ١٥١

ألا وإن لحظة واحدة فى حياة زوجين صالحين لهى خير من الدنيا وما فيها .. وقد كانت حياتها معه ﷺ خيرا كلها .. وجمالا كلها :

ألم تر إليها لما أجلسته فى حجرها ﷺ .. لتتأكد من هذا الذى يأتيه .. فلما فر من بين يديها لما كشفت رأسها .. علمت أنه ملك لا شيطان .

عرفت بالفطرة .. فكانت حجة أقامها الحق تعالى على النساء المسلمات اليوم .. واللائى يعرفن من الحلال والحرام أكثر وأكثر .

ويعرفن من الحرام كشف العورة .. ثم يكشفنها .. غفلة أو تهاونا !!

ولعل هذا سر من أسرار التعبير فى قوله تعالى : ﴿ **وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ فهو سبحانه الجاعل ..

ومن بركات ذلك التوفيق أن تتوثق الصلة بينهما على نحو يثمر مودة ورحمة لا تتوفر للإنسان مع ذوى رحمة الاقربين .

يقول الرازى :

(إن الانسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الأرحام .وليس ذلك بمجرد الشهوة . فإنها قد تنتفى ، وتبقى الرحمة . فهى من الله . ولو كان بينهما مجرد الشهوة - والغضب كثير الوقوع وهو معطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها - لكان كل ساعة بينهما قران وطلاق . فالرحمة التى يدفع بها الانسان المكاره عن حريم حرمه . هى من عند الله ولايعلم ذلك إلا بفكر . أى لايعلم إلا بتفكير . يشير بذلك إلى قوله تعالى :

﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

(وعلى كل منا أن يتبين مكان ذلك القانون فى حياته الزوجية . وأن ينظر ماذا أثمر بينه وبين زوجته من علائق التراحم والود .

فهى علائق تمت إلى جمال الروح ، لما يطالعه من آفاقه النفسية من جمال المثل . وقيم الحق والخير) .

والواقع الماثل طافح بأمثله تعلقت فيها الرغبات بالقشرة البادية .. فماذا حدث ؟ كان الخاطب يتجمل .. ليخفى من خلاله ما لا يرضى فلما تم الزواج .. سقط القناع الزائف .. وصار الامر على ما يقول الشاعر :

كل يوم تبدى صروف الليالى خلقا من أبى سعيد عجيبا

ثم ينضب مخزون العواطف المصطنعة ليكون رد الفعل عنيفا .. وتبلغ المأساة ذروتها عندما يكون هناك زغب الحواصل .. يدفعون ثمن التسرع المعيب .

يقول الغزالى :

(لفت نظرى وأنا أطالع درساً فى عالم البحار ، منظر السمك الملون . كان إهاب السمكة مليئاً بالنقوش الرائعة . والزخارف التى تسبى العيون ، باتساق الألوان ، وغرابة الرسوم .. ثم عرفت أن هذا النوع من الأسماك سام كله ! فقلت : ياعجبا : المنظر حلو ، والمخبر مؤذ ، ما أكثر هذا بين البشر .

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾

أنصح طالب الزواج ألا تخدعه الظواهر البراقه . وليكن همه الباطن الشريف .

تقول : ومن يعرف الغيوب ؟ وأجيب :

البيوت أمارة مصدوقة . ويغلب أن تكون البنت مثل أبيها أو أمها . وعلينا أن نستشير وأن نستخير .

ولذلك أرشدت منظمة الصحة العالمية طالبى الزواج أن يختاروا زوجات ترعرعن فى بيئة صالحة . وتناسلن من نطفة انحدرت عن أصل كريم) .

إن العلاقة الزوجية كالتربية :

فالتربية الخبيثة مهما سقيتها .. ولو سلطت عليها القمر .. فلن تنبت إلا الخبيث .. وكذلك المرأة الحسناءفى المنبت السوء : والامر على ما قال الشاعر :

وهل ينبت الخطى إلاوشيجه وتنبت إلا فى منابتها النخل ؟

وقول آخر :

وهل أنا إلا من غزية : إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

فكرة الجمال فى الاسلام :

فكرة الجمال والإعجاب به فكرة أصيلة فى التصور الإسلامى .. لأن حب الجمال هو : حب كل شئ فى أسمى صوره .. والوصول إلى مرتبة الاحسان مطلب إسلامى .. منسجم مع الفطرة الإنسانية .

(والنفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما : حب الحياة . والخوف من الموت .

وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل . والجليل :

فالجميل : كل ما حبب الحياة إلى النفس . وأظهرها لها فى المظهر الذى يبسط لها الرجاء فيها . ويبعث على الاغتباط بها .

والجليل : كل ما حرك فيها الوحشة . وحجب عنها رونق الحياة :

فالربيع . والصباح . والنور . والصحة . والشباب . والحركة . والمناظر الرائعة . والخضرة . والأبنية المزخرفة .. كلها جميلة . لأنها تنعش الحواس . وتذكرها بالحياة .

والشتاء . والليل . والظلمة . والمرض . والهرم . والسكون . القفار المخيفة. والاطلال الدارسة . والصروح القوية المتينة التى تنبئ بتعاقب السكان عليها . والمعابد والهياكل . والقوى الطبيعية الهائلة .

كلها جليلة : لأنها تقبض الحواس . وتميل بالنفس إلى التضاؤل والضعة أمام رهبة الفناء وعظمة الطبيعة وضخامتها .

الجميل : مظهر القدرة .. والجليل : مظهر القوة ..

والنفس تقابل القدرة بالاعجاب .. والقوة بالخشوع)[1] .

ولقد كان الجمال .. ومايزال خيطاً بارزاً فى نسيج الفطرة الإنسانية .. وعلى مافى الحقيقة من كمال .. إلا إن الناس قد يستدبرونها إيثاراً للجمال الآخذ بأقطار أنفسهم .

يقول الشيخ على الطنطاوى :

(المثل العليا كلها تجمعها أقطاب ثلاثة : الخير . والحقيقة . والجمال : فالخير تصوره الأخلاق .

والحقيقة يبحث عنها العلم . والجمال يظهره الأدب .

فإذا رأيت الناس يميلون إلى الأدب أكثر من ميلهم إلى العلم . فاعلم أن سبب ذلك : كون الشعور بالجمال أظهر فى الإنسان من تقدير الحقيقة .

وانظر إلى الألف من الناس : كم منهم يهتم بالحقيقة . ويبحث عنها ؟

وكم يعنى بالجمال . ويسعى للاستمتاع به ؟

إن كل من يعنى بالجمال ويتذوقه . بل إن كل من يذكر الماضى . ويحلم بالمستقبل ويحس اللذة . والألم . واليأس والأمل يكون أديباً . ويكون الأدب بهذا المعنى مرادفاً للإنسانية . فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً)[2] .

---

(١) على الطنطاوى : فكر ومباحث ٢١ .

(٢) على الطنطاوى : فكر ومباحث ٢١ .

الجمال فى القرآن

ومن تجارب القرآن مع فطرة الإنسان أن زين له الأرض والسماء .. إشباعاً لحب الجمال فى كيانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾[1]

﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون ﴾[2] .

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾[3] .

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾[4] .

بل إن الزينة والعبادة صنوان لايفترقان :

يقول الله تعالى :

﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[5]

وإذا كانت الجنة فى ذاتها آية .. فإن اللون بذاته آية أيضاً .

(١) سورة الكهف « ٧ » .
(٢) سورة الحجر « ١٦ - ١٩ » .
(٣) سورة الصافات « ٦ » .
(٤) سورة النحل « ٥-٦ » .
(٥) سورة الأعراف « ٣١-٣٢ » .

يقول سبحانه :

﴿ ومن دونهما جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ [1] .

ومعنى مدهامتان : خضراوان شديدتا الخضرة . والخضرة زينة وجمال .

وهكذا تسعد العين برؤية الماء يجرى .. والضوء يسرى .. وتسعد الأذن بالصوت الجميل .. والأداء المنغوم .. وتتجمع فى العين صور المرائى .. كما يكمن سر الربيع فى الزهرة الناضرة .. فيصحو القلب .. وينتعش الوجدان .. وتتحرك النفس لتفعل الخير بدافع من الإحساس بالجمال .

فالصوت الجميل كما قيل :

(الصوت الجميل يترك فى نفس سامعه أريحية .. بحيث لو طلب إليه عندها أن يجود لما تردد .. ولولا قاه من لايود نزاله .. لأبلى البلاء الحسن)

ولك أن تتصور ذلك الوجدان .. وجدان صبى يخاطب أمه بهذه الكلمات لتحكم بلون من البر والصلة لايفيض بهما إلا قلب يحب الجمال .. وهو يراه بقلبه .. ولايراه فقط بعينه .

(ماهذا السؤال ياأماه ؟ لقد مللته . وضجرت به : إنى أحبك كما أحب نجم الصباح الخفاق . وصمت الصحراء الهادئ . وظل السرحة فى يوم قيظ . ولن يجد رأسى راحة إلا فى أن يميل على ذلك الصدر الذى يموج بالرفق . فيستريح بعد كد . ويهدأ بعد اضطراب .

إنى أحب الجمال وتفتننى الملاحة فى كل شئ :

أحب الجمال فيك ياأماه .. وأحبه فى النخلة الفارعة، وقد عبث بسعفها النسيم .. فماست تيها ودلالا . وأحبه فى الأقحوانه الباسمة .. سقاها الندى .. فاهتزت كما يهتز الشارب الثمل .

---

(١) سورة الرحمن «٦٢-٦٥» .

وأحبه فى الشميس الغاربة .. وهى تأبى إلا أن تغوص فى لجة من الذهب .. كما بزغت فى لجة من ذهب) .

إنه جمال الباطن .. يرى الوجود جميلاً .. فيقبل عليه.. ولو كان شئ واحد جميلاً .. لكان ماسواه فى حسه .. لاشئ !!

وهو واحد من الذين يرون الجمال فيخشون أن يذوب .. ومن عرف الجمال .. رحم القلوب !!

الجمال فى السنة:

إذا حض ﷺ على الظفر بذات الدين .. فلم يكن ذلك عزوفاً بالشباب عن الجمال أو المال .

فلقد كان فى حسابه عندما عرضت عليه خديجة رضى الله عنها مالها وجمالها .

(أرسلت خديجة نفيسة دسيساً - خاطبه - إلى النبى ﷺ فقالت :

يامحمد . مامنعك أن تتزوج ؟

قال : مابيدى ماأتزوج به .

قالت : فإن كفيت ذلك ؟ ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة .. ألا تجيب؟!

قال : وكيف لى بذلك ؟

قالت : على

قال : أفعل) !! [1]

(١) إتحاف الورى ج ١/٢٣٦ .

جمال الصوت

قالت عائشة رضي الله عنها :

(استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة . فقال : ما حسبك ؟ قلت : إن في المسجد لأحسن من سمعت صوتاً بالقرآن . فأخذ رداءه وخرج يسمعه . فإذا سالم مولى أبي حذيفة . فقال الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك) .

فالرسول ﷺ يحمد الله أن حظيت أمته بمثل سالم في جمال صوته وحسن أدائه للقرآن .

فالجمال هنا في خدمة القرآن .. والدعوة .. والذي يتغنى بالقرآن .. حريصاً علي حسن أدائه .. لاعلى ذيوع صيته ثروة قومية ينبغي أن نغالي بها .

إن كلام الله تعالى كما قيل : أوراق خضراء .. وأغصان .. وأزهار .. تتحول بحسن الأداء ثمرات من المبادئ تستقر في النفوس .. فتشيع فيها روحاً يسعد السمع والعين .. وكل الجوارح !

ولقد كان عنصر الجمال والإعجاب به بارزاً في حياته ﷺ :

كان يحرص في أسفاره على المرآة والمشط والطيب .

(وقد سمع ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت . واستزاد إنشاده في مناسبة . لم يظهر فيها إلا أنه على أساس ذوقي .

وقد أمر بإنشاد الشعر . وأكرم الشاعر في مناسبات كان الشعر فيها يؤدي خدمة الدفاع عن الإسلام .

والرسول ﷺ .. وإن لم يقل شعراً قط .. لم يخل نثره من بلاغة رائعة . بل كان نثره أبلغ النثر العربي وأجمله .

ثم إنه كان جميلاً في لباسه . جميلاً في أطواره . جميلاً في أخلاقه . وقال « إن الله جميل يحب الجمال » وأمر بالنظافة . وكان نظيفاً جداً) [1]

---

(١) محمد الرابع الندوي - الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر .

من الجمال .. إلى الكمال :

يقول الحق سبحانه : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ [1]

يمن الحق تعالى على عباده بما أنزله عليهم من لباس يستر الصورة التى يقصد الشيطان إبداءها .

وكان جمال السمت عنصراً آخر .. تمثل فى الريش .. وهو اللباس الذى : (تتجملون به . الريش الجمال) [2] .

وإذ يعترف القرآن الكريم بحق الإنسان فى الزينة والتجمل .. فإنه يرتفع به إلى أفق أعلى وهو التقوى ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ .

فليكن جمال السمت سبيلا إلى جمال الباطن .. وهو ماأراده ﷺ حينما حرض المسلم على الظفر بذات الدين ، التى تشكل جوهرة ينبغى أن يتنافس فيها المتنافسون .

وإذن .. فهو ينقل المسلم من الجمال .. إلى الكمال .. فلا بأس من المال .. ولابأس من الجمال .. وطلب الذكر .. ولكن .. فى الدين جمالاً وكمالاً .. فهو فى الميزان أثقل .

بل إن شخصية الإنسان إنما تكون بتقواه .. لابماله ولابجماله .. ولابحسبه .

ومن هنا حض الرسول الكريم على الظفر بذات الدين التى تملك به أثمن مايحرص عليه البشر .

وإذا سعدت العين برؤية الجمال البادى .. فإن رؤية الجار الأمين .. والخل الوفى .. أربى فى ميزان التقدير .. إن الجمال لايساوى الكمال .

---

(١) سورة الأعراف «٢٦» .

(٢) البيضاوى .

وجمال الطبيعة لايغنى عن جمال الشريعة .. وحلية الأدب .. دونها حلية النسب .

يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز : (١)

(هل الخير يساوى الجمال ؟

الجواب . لا . الخير - أى الفضيلة تأمرك بعملها . إنها عاملة محركة . والضمير يصدم .. لو لم تعملها .. أما الجمال : فيصدم الإحساس فقط . وإذا لم ترقك اللوحة الجميلة . فلا شأن للضمير بها .

كما وإن الجمال لايحفزك إلي عمله . فالسماء الجميلة لاتدعوك إلى الصعود إليها والفكرة فى رأس الفنان لاتأمره بتحقيقها . بل تدعوه برفق من التسليم ابتداء بأن فى الخير جمالاً ذاتياً) .

وإذا كانت المذاهب المادية تربى الفتى علي الاعجاب بالفتاة العارية الفاتنة .. مهما كان مغارسها .

وإذا ربت الفتاة على البحث عن الفتى الذى يستجيب لنداء الجنس مهما كان خلقه .

(إن الإسلام يجعل وسيلة الفتاة إلى الحصول على إعجاب الشاب هى المحافظة الشديدة على أخلاقها . عدم التفريط فيها بأية صورة من الصور .

كما يجعل وسيلتها حسن إدارة البيت .. وحسن التهيؤ للأمومة .. التى هى أعظم وظائفها وأخطرها .

بعد أن يكون قد ربى الشباب بالفعل . على الاعجاب بالقيم الخلقية . والإنسانية فى المرأة . ونفره من فتنة اللحم العارى المبذول)(٢).

---

(١) دستور الأخلاق ٢٢ .

(٢) مناهج التربية الإسلامية ٢٢٥ .

ويعنى ذلك : أن يدرك طالب الزواج أن للزوج أهدافاً أخرى أهم من الجمال هى :

أ- الولد الصالح البار. الذى يمتد به العمر.

ب- تكوين أسرة يقوى بها المجتمع.

وليس للجمال وحده دخل فى تحقيق هذين الهدفين .. وإنما يتحقق ذلك .. بتوفير عناصر الصلاح التي تشاد عليها البيوت .. وتنهض بها الحضارات.

وبعد :

فقد عبر عمر رضي الله عنه .. عن الكمال والجمال فى الشريعة الإسلامية بهذا التوجيه لشاب طال ثوبه. قال :

أقصره .. فإنه :

أتقى .. وأنقى .. وأبقى .. والتقوى .. كمال .. والنقاء جمال .. وعلى قاعدة الكمال والجمال .. تتحقق المنفعة .. فيبقى الثوب .. ويعمر طويلاً.

وهكذا الأسرة التى تبنى على أساس من تقوي الله ورضوانه .. فلسوف تبقى لأنها أتقى ولأنها أنقى !

أهمية الاختيار

أراد « نوح بن مريم » قاضى « مرو » أن يزوج ابنته . فاستشار جاراً له مجوسياً . فقال له المجوسى :

سبحان الله ! إن الناس يستفتونك . وأنت تستفتينى ؟! فقال له القاضى : لابد أن تشير على . قال المجوسى :

إن رئيسنا كسرى .. كان يختار المال .

ورئيس الروم « قيصر » كان يختار الحسب والنسب .

ورئيسكم محمد كان يختار الدين . فانظر أنت بأيهم تقتدى !.

وهكذا يلجأ القاضى . المجرب . الذي يعيش هموم الناس . ومشكلاتهم اليومية . يلجأ إلي جار يخالفه فى العقيدة . وفى الشريعة .. وماذلك إلا لأهمية العلاقة الزوجية عنده .. والتى قرر ألا يستقل فيها برأى . تقديراً منه لابنته وخوفاً عليها من نكسة مقبلة .. تكون مرة المذاق .

إن القاضى يعلم أن الزواج مسألة حياة أو موت .. وهو عشرة العمر .. وقدر الإنسان .

ولولا هذا لما سمح لنفسه أن يسأل مجوسياً يعبد النار من دون الله تعالى .. وبينهما في التصور والتفكير بعد المشرقين .

ولقد كان المستشار على مجوسيته مؤتمناً فى نصيحته .. فدله علي أسباب الاختيار .

ولقد تفرد نبينا ﷺ بتوجيه الأنظار إلى تخطى القشرة الظاهرة .. والظفر بذات الدين .

ويعنى ذلك : ضرورة أن تتوجه الرغبة إلى ذات الدين .. بما يحويه من أخلاق وفضائل سوف يتوارثها الأبناء والأحفاد .. لتكون أغلى من كل ثروة يتنافس فيها المتنافسون .

إن الأولاد لن يرثوا عن أمهم ثوبها المزركش .. ولا منصب أبيها العالى .. ولكنهم سيرثون عنها سيرتها .. أى أنها حتى بعد موتها .. ستستأنف فى أشخاص بنيها حياتها من جديد .. وكذلك زوجها الذى أحسن الاختيار . حين أسقط من حسابه كل المظاهر التى لاتدوم بها العشرة .. وعلماء النفس يقولون :

(إن مقومات الشخصية الإنسانية هى الذكاء ، وانتظام العمليات الانفعالية .. والبعد الاجتماعى للإنسان بالانطواء أو الانبساط)

وليس منها بطبيعة الحال : المال والجمال والمنصب !

وإذا كان ولابد من المنصب أو المال . فليطلبهما بمجهوده الشخصى وبمساعدة مواهبه الذاتية ، بدل أن يحصل عليه مجاناً .. وعلى حساب علاقة الزوجية التي ترهقها بهذه الرغبات الطفيلية .. فتمتص منها رحيق الحياة .. فلا تدوم .

إلا وإن الشباب الذين يكنزون مواهبهم الشخصية .. ولاينفقونها فى سبيل العزة أو المنصب . انتظاراً للحصول عليها جاهزة .. تجر أذيالها مع الزوجة الوافدة .. هذا اللون من الشباب .. فوق أنه يعطل مواهبه . ويطمس معالمها يتنازلون فى نفس الوقت عن كثير من الكرامة .. لقاء هذا الجاه الوافد . والعزة المجلوبة .

وسوف يضاف مايتنازلون عنه من كرامتهم إلى رصيد زوجة قد تسئ استغلال هذا التنازل .. فتأمر وتنهى .. ثم يستنوق الجمل .. ويفتح الأولاد أعينهم على الوضع المقلوب داخل البيت .. فينعكس حتماً على سلوكهم فيما بعد .

ولا ينكر الإسلام الجمال .. ولكنه ينكر أن يكون هو المقياس الأوحد .. عند الاختيار.

والتجربة الشخصية تؤكد أن الجمال شئ حساس جداً .. ومن الممكن أن يزول فى لحظة خاطفة.

وليس من الممكن الاتفاق عليه بين اثنين .. لأنه أمر اعتبارى محض:

تتشاجر عنده الآراء .. وتصطرع الأهواء: بين عاشق للعين .. قد يزعجه الصوت .. ومفتون بالبياض .. قد تصدمه الأفكار السوداء .. بين معجب بالقوام الفارع يختال كالطاووس .. ثم يفتح بصره يوماً على «دمية» لاتصلح لتملأ دنيا طفل صغير!

وتنحسر آمال الشاب الطامح .. وتتراجع أفكاره الطليقة .. فى سفح شجرة هيفاء .. ولكنها تنطق بالغباء.

وقد حرص الحديث الشريف على اختيار ذات الدين .. فى رحلة طويلة تحتاج إلى الرفيق .. الصبور .. الشكور.

فاظفر بذات الدين تربت يداك!!

قاعدة الإنطلاق
إلى الأسرة المستقرة

ماتزال هذه الصورة تلح على خاطرى .. من بين ماتحفل به الذاكرة من صور الحياة الباكرة فى القرية :

تقدم الفتى الصالح إلى أسرة صالحة يخطب إحدى بناتها .. وقد يكون مفهومها أن ترد الأسرة الخاطب .. لأنه ناقص الدين .. أو فاقد المروءة .. ضنا بمستقبل البنت أن يضيع فى صحبة من لايحسن الصنيع .. أما أن ترده لأنه فقير أو ملون .. أو من عائلة مغمورة .. فليس بالمال وحده تتحقق السعادة .. ولم يكن شكل الجلد من صنع الخاطب حتى يحاسب عليه كما وأن شهرة الأعمام والأخوال لن تدخل معها عش الزوجية لتسعدها أو تؤنسها .. لكن الذى يسعدها .. صلاح صاحبها .

وقد تقدم إليها فعلاً بصلاحه .. فما لهؤلاء القوم لايقبلون ؟

وإذا لم يقبلوا .. فكيف لايعتذرون .. فى أدب وتجمل ؟

لقد رفضوا حق الفتى فى أن يتقدم إليهم ابتداء .. وكان عليه أن يتحسس أولاً موقعه الاجتماعى .. قبل أن يفكر فى الانتماء إلى الكرام البررة ؟!!

ويعود الفتى مكسور الخاطر .. كاسف البال .. قليل الرجاء .. من جراء فهم مغلوط لمعنى الكفاءة بين الزوجين .

لقد استبعد الإسلام المال .. والجمال .. والنسب .. أن يكون منطلق العلاقة الزوجية الأوحد .. وحض على الدين كأساس متين لهذه الرابطة .

ومن الناحية العملية صار ذلك التوجيه شرعة ومنهاجاً :

قال ﷺ لبنى بياضة : (أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه) وكان حجاماً .

وزوج « زينب بنت جحش » القرشية من مولاه زيد بن حارثة .

وزوج « فاطمة بنت قيس » الفهرية القرشية من أسامة بن زيد .

وتزوج بلال الحبشى بأخت عبد الرحمن بن عوف .

وقد مضي الفكر الإسلامى عبر التاريخ يمكن لقيمة التدين لتكون أساس الاختيار .. ضماناً لسلامة الأسرة .. ونجابة الذرية .

يقول ابن القيم :

(فالذى يقتضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين فى الكفاءة أصلاً وكمالاً : فلا تزوج مسلمة بكافر . ولا عفيفة بفاجر . ولا يعتبر القرآن والسنة فى الكفاءة أمراً وراء ذلك .

فإنه حرم علي المسلمة نكاح الزانى الخبيث . ولم يعتبر نسباً ولا صناعة ولا غنى ولا حرية .

فجوز للعبد القين نكاح الحرة النسيبة الغنية . إذا كان عفيفاً مسلماً .

وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات . ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات . وللفقراء نكاح الموسرات)

وقد سعدت بيوت أسلافنا يوم أن أستجابت لأمر الله .. فلما التقى الطيب بالطيبة .. مضت الأسرة تشق طريقها وسط الأعاصير .. فكان الوفاق .. وكانت المودة التى صارت مضرب المثل .

مسئولية الأسرة
عن بوار البنت

أحياناً تكون للتقاليد فى القرية .. واللائحة فى المكتب .. من القداسة مالايتوفر للشريعة ذاتها ؟!

وفى قضية الزواج يبرز هذا المعنى .. فقد يكون الوالد مقتنعاً بصلاحية الخاطب .. لكنه يرفضه لأنه لايساوى فى المركز الاجتماعى أو الوظيفى ذلك الذى تقدم لابنة أخيه أو ابنة جاره أو زميله .

وقد يترتب علي هذه التبعية للتقاليد أن تبور الأنثى .. ثم تشكل فى البيت ظاهرة تؤرق ضمير الأسرة كلها .

وحتى عندما تصل المشكلة إلى طريق مسدود .. ثم يلوح فى الأفق فتى صالح يمكن لو عرضنا عليه الزواج منها أن يرضى .. لكن التقاليد تمسك بخناقنا ونفضل باسمها أن تبقى حبيسة البيت على أن تكون باسم الحق زوجاً وأماً لأولاد !

وفى محاولة القضاء علي هذه المشكلة نتساءل :

هل فى السنة الشريفة مايؤيد هذا الاتجاه الرجعى ؟

ثم .. هل واقع الأنثى ذاته يتحمل هذا الاهمال .. أم أن طبيعتها تفرض علينا أن نهيئ لها العش الجديد .. وفى سن مبكرة متجاوزين عقبة التقاليد الجائرة ؟ ونجيب أولاً :

إن عمر رض الله عنه .. تعرض لتجربة قاسية بشأن زواج ابنته حفصة . . ولكنه تحمل الوضع القاسى .. لينجو من المصير الأقسى ! لقد عرض ابنته حفصة على عثمان رضي الله عنه . فاعتذر ولم تطفئ الصدمة رغبته فى تحقيق مصلحة ابنته . فعرضها على أبى بكر رضى الله عنه . فلما سكت ولم يجب شكاه إلى رسول الله ﷺ فقال له (عسى الله أن يقيض لابنتك من هو خير منه) .

وفعلاً تزوجها ﷺ .

إن إحساس الوالد بمرارة واقع ابنته .. ثم استشعاره ماسوف يأتى به الغد من هموم تنغص عليه حياته وحياتها .. كل أولئك .. حمله علي البحث عن الخلاص من هموم ثقال .. يدرك مغزاها أحرار الرجال.

وإذا ساغ فى العرف يوماً أن يعرض الرجل ابنته - على الرجل الصالح طبعاً - فإن الأمر لايكاد يصدق .. إذا عرضت المرأة نفسها على الرجل .. وناهيك بالمخاطر التى تجاوزتها حتى تصرح فعلاً برغبتها فى الزواج .. وقد عرضت المرأة نفسها بالفعل .. فى الصحيحين : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت يارسول الله إنى قد وهبت نفسى لك .. فقامت طويلاً فقال رجل : زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال ﷺ : فهل عندك من شئ تصدقها إياه ؟ فقال : ماعندى إلا إزارى هذا . فقال ﷺ : إنك إن أعطيتها إزارك . جلست ولا إزار لك . فالتمس شيئاً . قال : لاأجد شيئاً . قال : فالتمس ولو خاتماً من حديد .. فالتمس فلم يجد شيئاً . فقال ﷺ : هل معك شئ من القرآن ؟ قال : نعم .. سورة كذا وسورة كذا .. فقال ﷺ : زوجتكها بما معك من القرآن .

أما فيما يتعلق بطبيعة الأنثى فقد أثبت العلماء مايلى وهو مايلاحظه من أوتى حظاً من التجربة .

فالأنثى تبلغ قبل الفتى .. ثم تشيخ أيضاً قبله فيتوقف إنجابها .. بينما هو صالح للإنجاب مدى الحياة .

وإذن .. فالتعجيل بزواجها يستجيب لرغبتها المبكرة فى الزواج .. فإذا أخرناها .. كانت نسبة تضررها أكبر من فتى أمامه فسحة من العمر يحقق فيها ذاته .

ثم هو فى حركته الحرة فى المجتمع يحس الأنس .. بينما إحساس الأنثى بالوحدة يعذبها .

وإشباع غريزة الأمومة بالزواج .. أخطر من إشباع غريزة حب الاستطلاع بالحصول على الشهادة .

ومن ثم فالزواج أولاً .. لأنه يشبع الأمومة .. ويشبع الجنس معاً .. ولن تغنى الشهادات مهما علت عن بنين وبنات .. هم زينة البيت . وامتداد العمر .. ألا وإن عواطف الوالد وحنان الأم .. مهما كانت .. لن تغنى عن تلك المشاعر بين رجل وامرأة يلتقيان علي لون من المودة لايعوضه شلال من عواطف الأقربين .. ذلك بأنها مودة من صنع الخالق سبحانه .. ولابقاء للأسرة إلا بها ولا نجاة من هجير الحياة إلا فى ظلها .

عاقبة المعرضين
عن الزواج من القادرين

(سأل النبي ﷺ رجلاً : أهو متزوج ؟ فقال الرجل : لا . فسأله ثانية: هل يقدر على الزواج ؟ فقال الرجل : نعم . فقال له ﷺ : أنت إذن من إخوان الشياطين) .

(تتحدث الأنباء المتواترة أن هناك ملايين العزاب في دولة أجنبية .. وعن أيمانهم وعن شمائلهم ملايين الأطفال اللقطاء .. شاهدين على تلك الدولة بالانهيار .. حين أعرض أبناؤها عن الزواج .. فحرموا من أنبل العواطف وأشرف الغايات .

ألا وإن لهؤلاء اللقطاء مع أمتهم حساباً عسيراً حين يفتحون أعينهم فلا يجدون يداً تربت على أكتافهم .. ولا حديثاً حانياً يروى ظمأهم .. وحينئذ فسوف ينتصب حقدهم الدفين على الأمة دماراً)

وإذا كان إعراض القادرين عن الزواج وخيم العواقب .. فمن مثل هذا المصير المهين يحذر الحديث الشريف .. حين يحكم على هذا الفتى القادر على الزواج بأنه من إخوان الشياطين . (وكفى به إثماً مبيناً) .

ذلك بأن المرشحين للزواج فريقان :

فقراء عاجزون عن الوفاء بتكاليف الزواج .. وفريق قادر على الوفاء بها .. وإذا تجاوزنا الفاقدين اقتناعاً بعذرهم .. فما هو عذر الفتى القادر صحياً ومالياً ؟

أهمية الزواج

ومن أحسن ماقرأت مقال لكاتبة أمريكية معاصرة تحكى فيه قصة الحياة فى بلادها أمريكا قالت :

فى المجتمع الصناعى المعاصر تطحن الآلة تقاليد الماضى .. وتوفر للناس وسائل الحياة السهلة المرفهة .. والمجتمع الأمريكى نموذج متقدم لهذا المستوى من وسائل المتعة ، يستطيع الإنسان الذى يملك نقوداً أن يجد فيه كل شئ خارج البيت .

فى المطاعم يجد الطعام الذى يريد .. وفى دور السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون يجد الترفيه لعينيه وأذنيه .

وفى المحال الخاصة يجد وسائل النظافة والأناقة .. وفى المستشفى يجد الرعاية إذا مرض .. وفى مؤسسات الموتى يستطيع أن يضمن بعقد قانونى مواصفات دفنه فى حالة موت .. وبواسطة التليفون يستطيع أن يطلب أى شئ من محال توصيل الطلبات إلى المنازل .. وفى الفندق يستطيع أن يسرى عن نفسه .. وفى عربته الخاصة يمارس مايشاء من علاقات مع صديقات يحترفن الدعارة .. ومع ذلك تزداد نسبة الزواج فى أمريكا ؟! لماذا ؟

الخوف من الوحدة ! فالزواج هو النظام الاجتماعى الوحيد الذى يضمن للرجل والمرأة طول حياتهما صحبة موثوقاً بها .. وشعوراً بالأبوة والأمومة .. وهو شعور يبقى حتى إذا نجح العلم فى إنتاج الأولاد صناعياً من الوالدين .

فالإنسان لايستطيع أن يجد خارج البيت أى شئ يعوضه عن الارتباط بالأولاد .. وبرفيقة الحياة .

ومعنى هذا أن المجتمع الأمريكى بكل مايحويه من متع ومفاتن .. وماتطفح به نواديه من أفنان اللذاذة والصبا .. لم يستطع للآن أن يصل إلى أغوار نفوس الشباب فيشبع حاجاتها .. ويملك عليها أقطارها وهاهو ذا يزهدها فى حياة أسرية مستقرة .. ويميت عندها حاجتها إلى القرار .. إلى الزوجة البارة الوفية يسكن إليها فى عش هادئ وجميل !

وحتى إذا تطوع العلم لينتج له أولاده وفلذات أكباده .. فلن تهدأ نفسه .. وسيظل حائراً قلقاً كالطائر المحلق حتى يستقر على فنن .. ويمارس حياته بنفسه ويكون مع زوجة مهاداً ناعماً يخرج من بين صلبه هو .. وترائبها هى .. وفى ظلهما يخرج الجيل الجديد المتفتح للحياة الجديدة !

وعلى الرغم من أن الشباب المسعور ينطلق فى هدأة الليل ليقضى وطره فى أحضان أنثى داعرة فاجرة .. إلا أن ذلك لايغنى عن الحق شيئاً .. لايغنى عن زوجة يطارحها الهوى ويبادلها الحب الإيجابى البناء .. حتى فى غيبة الجنس وفورته .. فهى فى قلبه .. وهو فى قلبها .. وإن الحياة اللاهية بما رحبت أضيق من سم الخياط إزاء هذا البيت .. هذا العش الذى يملأ الحب فيه كل شبر.

﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها** ﴾ ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ ولن تجد لسنة الله تبديلا .. ولن تجد لسنة الله تحويلا.

فالزواج سكن .. ومودة ورحمة .. هكذا يقول الإسلام.

ومتى أطلق الإنسان ساقيه للريح مدفوعاً بالشهوة وحدها .. فلن يشبع .. يعنى لن يستقر !

ومثله كمثل العاشق الذى عناه الشاعر بقوله :

فأصبحت كالهيماء : لا الماء مبرد   صداها ولاقاض عليها هيامها

إنه واحد من عشاق الليل : وأبناء المدنية المتحررة من كل قيد .. وهو يصف مشاعره كعاشق ولهان فيمثل نفسه بالناقة الهيماء .. وإذا كان الماء لايبرد ظمأ الهيماء ولا يقضى عليها هيامه .. فكذلك هو : لاوصالها يشفيه .. ولا التلهف يميته ! إنه عود من حطب جهنم : لايموت فيها ولا يحيا !!

ومن هنا حرص الإسلام علي أن تنشأ فى ظله الأسرة المستقرة المتكاملة على أساس من العقل .. توفيراً لهذه الطاقات المبددة على الأرض .. وصرفاً لها بحكمة فى جو ملائم .

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾

إن الزواج كما تشير إليه الآية الكريمة آية .. علامة تومئ إلى مدى قدرة الله عز وجل التى خلقت من نفس الإنسان زوجاً له .

وإذا كان الله سبحانه قد ﴿ **من على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾ فهو سبحانه يمن أيضاً على هذا الإنسان أن خلق له من جنسه .. من نفسه زوجاً يسكن إليها وتسكن إليه .. وفى هذا ضمان لدوام الحياة الزوجية لأن الجنس للجنس أميل كما يقولون .

إن هذا الشاب القادر واحد من اثنين :

إن كان شريراً فسوف ينطلق فى رحلة العبث بلا ضابط .. لاسيما ومعه المال المعين على تحقيق المآرب .

وإذا احتفظ بنبله وعفته .. تعرض لآفات الكبت الجنسى ومايترتب عليه من عقد .. تتعقد بها حياته !

مع الأخذ فى الاعتبار أن الفتنة المستيقظة لن تتركه نبيلاً عفيفاً .. وسوف يسقط فى حمأتها يوماً . وعلى الشاب أن يسأل نفسه .

إذا كان يأكل ليعيش فلماذا لايتزوج ليبقى نوعه ؟

ومن الإنصاف أن نحمل الآباء المغالين فى المهور مسئولية النهاية المفجعة .

فالوالد الذى يغالى فى المهر أيضاً : من إخوان الشياطين .. عندما يتقدم إليه شاب صالح .. قادر على تحمل المسئولية .. ومعه من المال مايؤسس عشاً بسيطاً .. سوف ينقلب قصراً عالى الشرفات بالسعى الدءوب .. والعواطف المتبادلة بين فتى صالح .. وفتاة صالحة .

وإذا كان الحديث الشريف دعوة إلى زواج القادرين من الشباب .. فإنه تحذير للآباء المعرضين عن تزويج بناتهم بما يطلبون من مهور تقصم الظهور !

وخير للوالد ألف مرة أن يزف [1] كريمته لصاحب الخلق والدين .. إن هذا الفتى سوف يرد الجميل إليه : مودة ورحمة تسعد بها ابنته .

ثم إلي الوالد : صلاح بال .. لايقدر بمال !

ومعنى ذلك كله : اشتراك الشباب والآباء فى المسئولية .. إنهم ليتحملون معاً وزر مايترتب علي الإعراض من مضاعفات تتحقق بها أمانى الشيطان .. إلي جانب العزلة التى يفرضونها على أنفسهم حين خرجوا بالتعنت والغفلة عن الخط المستقيم .

وصدق الرسول ﷺ حين يقول فى هذا المعنى :

« من كان موسراً لأن ينكح . ثم لم ينكح . فليس منى »

---

(١) بالضم : الزفاف .. وبالكسرة : من باب ضرب : أسرع (الزفيف) .

العلاقة الدائمة

تدوم الحياة الزوجية .. ويأوي إليها الحائرون الفارون منها . لأن الزوجة ليست « حورية » من عالم غريب .

ليست روحاً شفافاً . هبط من المحل الأرفع . فلا يعرفها . ثم يضيق بها .

ولكنها منه وإليه إنه يعرفها بل هى قطعة منه تسير على دربه . وتعيش حياته البشرية . وفى قلبها وعقلها كما فى قلبه وعقله . عواطف وأفكار من نوع واحد .

مثل هذه العلاقة إذن .. ولدت لتعيش وتنمو والإسلام يرسم لها آفاقاً أوسع من آفاق الحب المجرد .. بالمودة والرحمة .

وفرق كبير بين المودة والرحمة من جهة وبين الحب المجرد من جهة أخرى .. إن الحب انفعال طارئ يبرق فى فؤاد الإنسان ساعة .. ثم يخبو بريقه .. وهو فى خيال الناس عاطفة تقف من ورائها غريزة الجنس .. فإذا ولغت فى حمأة الجنس .. هدأت .. ثم بادت وتلك عقبى التشهى !

وهنا نفهم ماقاله عمر رضي الله عنه لواحد من الناس يشكو إليه كراهيته للحياة مع زوجته التى ينفر منها ولايطيقها فيقول له عمر :

أكل البيوت بنيت علي الحب ؟! وأين المروءة والتذمم ؟ أين الأخلاق؟ أين صحوة الضمير تزين سيرة المرأة ولو فاتها جمال الشارة وبهاء المنظر .. ولكن البيوت تبنى علي « المودة والرحمة » .

المودة رباط مقدس يجعل من البيت سكناً ومستقراً .. ولاتزال الأيام تضيف إليها المزيد : فهؤلاء الأولاد أفلاذ الأكباد تربطون عليها .. ويعمقون مجراها .. وعلى وجه الطفل البرئ تلتقي نظرة الأم والأب فإذا هما مشاعر واحدة مشدودة إلى خلاصتها .. إلى صورتهما معاً على هذا اللوح الحساس .. هذا البرعم الصغير ؟ طفلهما ؟

ولكن الإسلام يدخل فى حسابه أن حياة الأسرة عرضة لهزات ومشكلات قد تكون عنيفة .. فيجعل « الرحمة » طوق النجاة فى هذه الساعات الشداد .. تعفو وتصفح .. فتعيد إلى البيت المهزوز توازنه .. ويستقر المجداف مرة أخرى فى قبضة الربان ليمضى السفين فوق أسباج الماء .

نعم .. قد يكون فى الزوجة عيب ما .. فهى دميمة الخلقة مثلاً .. فلو واجه الزوج هذا العيب بالحب وحده لما استطاع أن يستكين ويرضى .. وسيبرد الحب وتنطفئ جذوته لأنه يقف بالحب عند الشكل .. ولاشكل هنا فينتهى كل شئ !

ولكن الرحمة معه تنظر إلى آفاق أرحب .. فقد يكون الشكل غير مقبول ولكن كيف ننسى أنه وفر على الزوج كثيراً من مضايقات الناس واشاعاتهم ؟!

ثم .. إنها تنجب أطفالاً .. فهى تمد حياتى عبر الزمان .. وهى معى تسير إلى المستقبل بسلاح قل أن يوجد فى يد غيرها من النساء .

سلاح الفضيلة التى تجعل منى بين الناس رجلاً فاضلاً .. وتجعل من أطفالى نهراً يفيض من عين جارية صافية رائقة .. يكفينى أن أكون مع أولادى نشيداً حلواً على الألسنة .. ومافاتنى من الدنيا بعد هذا شئ آسف عليه !

ومما يلفت النظر : أن الآية الكريمة تذيل بقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

إنها تضع التفكير أساساً لهذه العلاقة .. وإذا كان الزواج رباطاً ولد ليبقى فيجب أن تقف من ورائه مسوغات عقلية تزكيه . وتشد من أزره ليبقى .

ويحضرنى هنا حوار دار بين ابن حزم الأندلسى مع صديق له .. لقد التقيا معاً بوجه حسن فقال ابن حزم : هذه صورة حسنة !

فقال له صاحبه : لم تر إلا الوجه . فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك » فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سبانى حسنه	يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره	ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئد	فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر أننى ظاهرى وأننى	على ما أرى حتى يقوم دليل ؟

الزواج [1] بالكتابية

هل يجوز الزواج بالكتابية ـ يهودية أو نصرانية ؟ وإذا جاز ..فهل مايزال مستمر المفعول حتى الآن ؟

هل جد من الأحداث مايفرض إعادة النظر في هذه القضية بما يضعها في إطارها الصحيح ؟ ذلك مانحاول الإجابة عنه هنا :

(الأصل القرآني) : والأصل في ذلك كله قوله تعالى :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتو الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذى أخذان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [2] .

تشير الآية الكريمة إلي إمكان قيام معايشة سلمية بين المسلمين وأهل الكتاب عن طريق حل طعام كل من الطرفين للآخر .

بالإضافة إلى إباحة زواج الكتابية شريطة أن تتم هذه العلاقة في إطارها الإنساني بإعطاء المهر .. مع توفر النوايا الطيبة الرامية إلى تكوين أسرة مستقرة .. بعيدة عن النزوات الطارئة .. مع إنذار يلفت الأنظار بقوة إلى أن التفريط في هذه الشروط محبط للعمل في الدنيا .. وفي الآخر .

لفت نظر :

لكن اللافت للنظر في الآية الكريمة إنها تعرض المحصنات المؤمنات بين يدي الراغبين في الزواج قبل الحديث عن حل الكتابيات وكان الظن تأخير المؤمنات أو طي ذكرهن لأن الحديث أساساً عن حل طعام أهل الكتاب .. وحل زواج الكتابية .

---

(١) ورد هذا الموضوع مجملاً في كتابنا « تربية الأولاد » وينشر هنا بشئ من التفصيل .

(٢) سورة المائدة « ٥ » .

والسؤال هو :

لماذا ذكر المؤمنات ، ثم قدمهن فى الذكر مع هذا الاعتبار ؟

ربما يكون المراد - والله تعالى أعلم بمراده - لفت نظر المسلم إلى أن الزواج بالمؤمنة المحصنة هو القاعدة .. والزواج بالكتابية استثناء من هذه القاعدة . ولايتخلى الإسلام عن شرطه فى إقامة البيوت علي تقوى من الله ورضوان .

وإذ يبيح الكتابية فهو يشترط وصف الإحصان .. بالإضافة إلى أنها على أى حال : متدينة . والتدين على نحو ما - وإن كان كفراً بالقرآن وبرسالة الرسول - قد يعصم من الزيغ . وإذا كان الإسلام قد اشترط العفة فى الزوجة المأمولة حرة كانت أو أمة . فإن الأمر بالنسبة إلى الكتابية أدخل فى الاحتياط . فلابد من توفر إحصانها .

لأنها إذا لم تكن عفيفة . وهى مع ذلك غير مسلمة . صارت بانحرافها علي خطر عظيم .

جاء فى المنار :

ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة . كما قال مجاهد فى الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور هاهنا . وهو الأشبه : لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية . وهى مع ذلك غير عفيفة . فيفسد حالها بالكلية . ويتحصل زوجها علي ماقيل فى المثل : « أحشفا وسوء كيلة » وهو مثل يضرب لمن جمع بين خصلتين مكروهتين . والظاهر من الآية : إن المراد بالمحصنات : العفيفات عن الزنا كما فى الآية الأخرى : ﴿ محصنات غير مسافحات ولامتخذات أخدان ﴾

آراء العلماء :

ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحل التزوج بالذمية من اليهود والنصارى . وتمسكوا بهذه الآية . وكان ابن عمر رضي الله عنهما لايرى

ذلك . ويحتج بقوله : ﴿ **ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن** ﴾ [1] ويقول : لاأعلم شركاً أعظم من قولها : إن ربها عيسى . ومن قال بهذا القول أجابوا عن التمسك بقوله تعالى ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ [2] .

بوجوه :

الأول : إن المراد : الذين آمنوا منهم . فإنه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا ؟

فبين تعالى بهذه الآية جواز ذلك .

والثاني : روى عن عطاء أنه قال : إنما رخص الله تعالى فى التزوج بالكتابية فى ذلك الوقت . لأنه كان فى المسلمات قلة . وأما الآن ففيهن الكثرة العظيمة فزالت الحاجة . فلا جرم زالت الرخصة .

والثالث : الآيات الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار كقوله : ﴿ **لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** ﴾ [3] وقوله ﴿ **لاتتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ [4] ولأنه عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة ويصير ذلك سبباً لميل الزوج إلى دينها . وكل ذلك إلقاء للنفس فى الضرر من غير حاجة .

الرابع : قوله تعالى ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ [5] وهذا من أعظم المنفرات من التزوج بالكافرة .

فلو كان المراد بقوله تعالى ﴿ **والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ إباحة التزوج بالكتابية لكان ذكر هذه الآية عقيبها كالتناقض وهو غير جائز .

---

(١) سورة البقرة « ٢٢١ » .
(٢) سورة المائدة « ٥ » .
(٣) سورة الممتحنة « ١ » .
(٤) سورة آل عمران « ١١٨ » .
(٥) سورة المائدة « ٥ » .

رأى صاحب المنار

إباحة زواج الكتابية دون المشركة.

وإذا تخوف المانعون زواج الكتابية من احتمال دخول الزوج فى دينها .. فإن صاحب المنار يحسن الظن بالرجل القادر هو على استمالة زوجته إلى دينه .. دون الزوجة ولذلك لم يبح الإسلام أن تتزوج المسلمة كتابياً حذر هذه العاقبة .. يقول :

(يوشك أن يظهر للمرأة من معاشرة الرجل حقيقة دينه . وحسن شريعته والوقوف على سيرة من جاء بها . ومأأيده الله تعالى به من الآيات البينات ، فيكمل إيمانها ويصح أصلاً إسلامها ، وتؤتى أجرها مرتين . إن كانت من المحسنات فى الحالين . ومثل هذه الحكمة لاتظهر فى تزوج الكتابى بالمؤمنة ، فإنه لما له من سلطان عليها . ولمايغلب عليها من الجهل والضعف فى بيان ما تعلم . لايسهل عليها أن تقنعه بحقيقة ماهى عليه . بل يخشى أن يزيغها عن عقيدتها ، يفسد منها دون أن تصلح منه) .

تعقيب على بعض ماجاء من المنار :

أما مايقوله صاحب المنار فى نفس الموضع : أما الكتابية فليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة : فإنها تؤمن بالله وتعبده ، وتؤمن بالأنبياء ، وبالحياة الأخرى ومافيها من الجزاء ، وتدين بجوب عمل الخير وتحريم الشر . والفرق الجوهرى العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة محمد النبى ﷺ ومزاياها من التوحيد والتعبد والتهذيب .

أما هذا القول ففي النفس منه شئ :

أولاً : فلهذا التناقض البادى بين قوله (ليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة) وقوله : (والفرق الجوهرى العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة النبى ﷺ ومزاياها من التوحيد) وإذا فرق الخلاف بين اثنين فأقام أحدهما حياته على تصديق الرسول والآخر على عدم الإيمان به .. فلم تعد المباينة قليلة .. ولكن مسافة الخلاف هنا كبيرة جداً .

ثانياً : يجب التسليم ببعد الشقة بين الاثنين لكننا اشترطنا الاحصان مع فقد الإيمان تمكيناً للأسرة من الترابط إلى حد ما .

ولهذا التسليم أثره فى وضع هذه العلاقة فى إطارها الصحيح حتى لاتزل قدم بعد ثبوتها .. وحتى لاتفعل الأيام فعلها فى تناسى هذا الخلاف . وماقد يترتب على ذلك من تهاون يضر بالناشئة .. وقديماً حاول بعض نساء أهل الكتاب استغلال هذه الآية الكريمة لصالح دينهن على مايقول القرطبى فى تفسيره للآية الكريمة : لما قال تعالى : ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ قال نساء أهل الكتاب : لولا أن الله تعالى رضي ديننا لم يبح لكم نكاحنا .. فنزلت : ومن يكفر بالإيمان (أى بما أنزل على محمد) ويجب أن نذكر دائماً أن هناك خلافاً فى الدين .. ونحن نتحدث عن حل زواج الكتابية .. ومايفرضه ذلك من حذر ونحن نتجه إلي مثل هذا الزواج الذى يجئ استثناء من قاعدة الإسلام فى إقامة الأسر .. قاعدة الإيمان بالله عز وجل ولقد كان الإمام أحمد متشدداً فى نكاح البغى فأبطله لخلوه من عناصر الصلاح اللازمة لسعادة البيت .

يقول ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة :

(ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالي إلى أنه لايصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب .. ومادامت كذلك لايصح تزويجها من رجل عفيف)

وإذا كان لخلق المرأة تقديره عند الإمام بحيث كان فساده مانعاً من صحة الزواج .. فكم يكون ثمن الإسلام غالياً .. الأمر الذى يقتضينا أن ننظر إلى هذه العلاقة بروح ديننا الذي يحل ويحرم على نحو لايمس جوهره الأصيل .. لاسيما والأنباء تترى عن خطة جديدة دبرها أعداء الدين .. يحاولون بها تشجيع زواج المسلم من الكتابية ؟!!

أى أن الذى حرموه بالأمس .. وعدوه من الإسلام تعصباً .. يروجون له اليوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم عن طريق هذا اللون من الزواج الذى يغزون به بيت المسلم .. وبالتالى يكون لهم التأثير فى الجيل الجديد عن طريق أم تدين بالولاء لهم .. وليت المسلمين يفهمون!

شهادة الواقع :

إذا افترق علماؤنا فرقتين بين مجيز .. ومانع .. فإن الجميع متفق على ضرورة إقامة الأسرة على قواعد ثابتة من الإيمان والخلق .

حتى الذين أجازوا متمسكين بالآية الكريمة لاشك أنهم يبيحون الزواج بالكتابية شريطة أن تتوفر شروط استمرارها كما أشارت إليها الآيات الكريمة : فلابد أن تكون الكتابية عفيفة .. حسنة السمعة .. وان يكون راغب الزواج بها مستعداً لإقامة أسرة مستقرة مدفوعاً بنواياً طيبة .. لابنزوة طارئة .. أو ظروف ملحة تفرض عليه الزواج بغض النظر عن أخطاره .. إن هذا اللون من الزواج كنبات الماء : يفقد الاثمار .. لأنه فقد الاستقرار .

وبعيداً عن الخلافات الفقهية .. فإننا نستقرئ الواقع الصارم .. والذى يثبت بما لايدع مجالاً للشك ضرورة التثبت والتروى عند إرادة زواج الكتابية فى عصر يتخذ بعض الشباب فيه بعض أحكام الإسلام ذريعة تسوغ أفعالهم الطائشة . ونختار من هذا الواقع نماذج وصوراً تلقي مزيداً من الضوء .. بقدر ماتشكل نذيراً يفرض علينا حسن الاختيار .

فتنة الجمال :

حدث ماتوقعه بعض علمائنا من قدرة المرأة أحياناً على شرخ عقيدة الزوج المسلم بسلاح جمالها .

بعث أناس إلى سليمان يشكون أميرهم عبد العزيز بن نصير لأنه يفرض عليهم أن ينحنوا له . كما يصنع أتباع ملوك الفرنجة . وأنه يسير سيرة لم يعرفها قط أمراء العرب .. وكان عبد العزيز هذا قد تزوج امرأة رذريق كبير الأندلس . وكانت امرأة رذريق فاتنة الجمال ، فغلبت زوجها الجديد على عقله فلم يرد لها أمراً .. طلبت منه أن يأمر أتباعه

بالسجود له ، فقال لها : « إن ذلك ليس فى ديننا » .

ولكنها أمرت ففتح بابا منخفضاً فى مجلسه ، فلايفضى أحد إليه إلا من خلال هذا الباب ، ولايستطيع أحد أن يدخل منه إلا إذا سجد ، وزحف على قدميه وركبتيه .. فلما رأت ذلك قالت : « الآن لحقت بالملوك ، ولم يبق إلا أن أعمل لك تاجاً مما عندى من الذهب واللؤلؤ » فلما شاهد رؤساء جنده هذا التاج على رأسه ، ورأوا أنهم لايستطيعون أن يدخلوا إليه إلا ساجدين زاحفين على الأرض فثاروا عليه وقتلوه !

المتخذات أخدان !

اختفت زوجة أمريكية من زوجها المسلم . ولما بحثوا عنها وجدوها مع شاب أمريكى .. وخرجت بكفالة خمسمائة دولار .. دفعها العاشق الأمريكى !! وياضيعة الأخلاق .. والذرية !!

وأخرى .. تحبونها ؟!

عندما رجع صديقى المهندس من ألمانيا بعد حصوله على الدكتوراه جاءت معه زوجته الألمانية وطفلاهما . وانشغل الأب والأم فى عملهما ومالبثا أن تبين لهما صعوبة التوفيق بين عمل الزوجة والإشراف السليم علي تربية الأطفال وكان الحل الأمثل فى نظرها هو إحضار أم الزوجة من ألمانيا حيث إنها تعيش هناك وحيدة .

وحضرت الجدة وأصبحت هى المسئولة عن الأطفال ، واستراح الأب والأم وزاد التقارب والالتصاق بين الابنة وجدتها ، ومرت سنوات ودخل الابناء مرحلة الشباب ، وكبر منصب الأب وزادت مسئولياته وبالتالى أصبح لايكاد يرى أولاده إلا فى يوم العطلة الأسبوعى . وذات يوم اطلع صدفة إلى الشهادة المدرسية للابنة وفوجئ بأنها راسبة فى مادة الدين الإسلامى .

وعندما نهرها وعنفها على هذا التقصير سمع منها مالم يخطر له على بال فقد قالت له بمنتهى الهدوء : « احفظه ليه يا بابا وهو أنا كنت

---

(١) رواه ابن ماجه .

مسلمة علشان احفظه » وكاد الأب ينهار من هول ماسمع .. وللمرة الأولى امتدت يده على ابنته بعد أن أحس أنها ستضيع منه . ولكنه فى نفس الوقت أدرك أنه شريك فى كل ماحدث فقد ترك ابنته بالكامل لجدتها الألمانية وكانت هذه هى النتيجة .

ورأى أن يتصرف بحكمة وقبل فوات الأوان فقرر سرعة الموافقة علي زوا ج ابنته من المهندس ابن أخيه الذى كان قد سبق له أن طلبها منه ، وتأجل الحديث فى الموضوع لصغر سنها حينذاك . وباركت الأم هذا الزواج الذى حددوا موعده عقب انتهاء العام الدراسى مباشرة .

وسافر الأب بعد ذلك بقليل فى مهمة للخارج استغرقت عشرة أيام عاد بعدها فلم يجد زوجته وأولاده . وبعد بحث دقيق تبين له سفر الزوجة وأمها وولديها إلى ألمانيا بعد أن حصلت لهما على جوازى سفر من القنصلية الألمانية بالقاهرة حيث إنهما من مواليد ألمانيا ومن أم ألمانية ، وبعد وصولهما وطبقاً للقانون الألمانى وبناء على رغبة الأم وأولادها تم تغيير أسمائهما إلى أسماء ألمانية كما تم استبدال لقب العائلة المصرى بلقب عائلة الأم . وحاول الأب فى ألمانيا بكل الطرق القانونية أن يسترد أولاده ولكن بدون جدوى لأن القانون هناك فى مثل هذه الحالات يكون فى صف الأم الألمانية وعلى الزوج الأجنبى أن يرحل .

وعاد الأب إلى القاهرة محطماً بعد أن دفع ثمناً فادحاً للزواج المختلط الجنسية والتربية الأجنبية الكاملة للأبناء) [1]

الرافعى يحسم الخلاف :

ويتحدث المرحوم مصطفى صادق الرافعى عن الزواج بالأجنبية بما يحق الحق ويبطل الباطل قال : دهى صديقى فى زوجة أجنبية فماذا قال ؟

قال : ياإخوانى لاتتزوجوا الاجنبية . لاتغتروا بمعانى المرأة تحسبونها معانى الزوجة . هناك فرق : بين الزوجة بخصائصها ، والمرأة

(١) الأهرام فى ١٠/٧/١٩٨٥م .

بمعانيها : فإن فى كل زوجة امرأة .. ولكن ليس فى كل امرأة زوجة .

المرأة فى أنوثتها وفنونها الفردية كالسحاب الملون فى الشفق حين يبدو . له وقت محدود ثم يمسح مسحاً .

ولكن الزوجة فى نشأتها الاجتماعية كالشمس ، قد يحجبها ذلك السحاب .. بيد أن البقاء لها وحدها .. والاعتبار لها وحدها .. ولها الوقت كله دون السحاب .

إن الأجنبية تتزوج بها هى « مسدس » جرائم فيه ست قذائف :

١- بوار امرأة مسلمة وضياعها وهى جريمة وطنية .

٢- إقحام الاخلاق الأجنبية عن طباعنا فى هذا المجتمع الشرقي . وصدعه بها وتهوينه .. وهى جريمة أخلاقية .

٣- دس العروق الزائغة فى نسلنا وهى جريمة إجتماعية .

٤- التمكين للأجنبى فى بيتنا يملكه ويحكمه .. وهذه جريمة سياسية .

٥- إيثاره غير المسلمة .. وتحكيم الهوى والقاؤه السم فى نبع ذريته المقبلة ثم صيرورته خزيا لاجداده الفاتحين . الذين كانوا يأخذونهن سباياً ولهن المنزلة التالية بعد الزوجة . فأخذته الزوجة الأجنبية رقيقاً لها فى المنزلة التالية .. وهذه جريمة دينية .

٦- يؤثر أسفله على أعلاه .. ولايبالى بالخمس الجرائم السابقة .. وهذه جريمة إنسانية ، لم أكن أعلم أننى أحضرت معى آلة تصنع آلامى وأحزانى ، إن الشيطان فى أوروبا عالم مخترع .

زين لى أن الاجنبية ثلاث نساء فى وقت واحد :

أ- زوجة عقلية . ب- وزوجة قلبية .

جـ- وزوجة نفسية .

ونفث فى روعى أن غيرها من بنات جنسنا واحدة .. وليست من هؤلاء لأنها زوجة الجسم وحده !

ولكنها : منجم .. تبره فى ترابه . وماسة فى فحمه . وجوهره فى معدنه . قد تكون جاهلة : ولها عقل الحياة فى دارها .

غليظة الحس : من صعوبة العفة الممتنعة .. ولها أرق ما فى الزوجة لزوجها وحده .

خشنة الطبع : من خشونة الحب المعتز بنفسه .

وجفاؤها من جفاء الدين المتسامى على المادة .

صابرة : لاتعرف العجز

وفاء لايعرف الخيانة .. إيثار لايفسده الطمع .

خشنة : لأنها تأنف أن تكون ملمساً ناعماً لهذا أو ذاك .

لا كامرأة الحب الأوروبى : لاترد يد لامس .. امرأة أنشأتها الحرب العظمى بأخلاق مخربة مدمرة .. تتفجر بين الوقت والوقت .

عندنا تعدد الزوجات .. يتهموننا به من عمى وجهل وسخافة .

إن الزوجة تتعدد عند الرجل ولكن ليس كما يقع فى أوروبا من أن الزوج يتعدد عند المرأة .. يتهموننا بتعدد المرأة .. ولها حقوقها . ثم لايتهمون أنفسهم بتعددها خليلة .. لاحقوق ولاواجبات ، تتقاذفها الحياة من رجل إلى رجل : كالسكير يتقاذفه الشارع من جدار إلى جدار.

الفصل الثانى

آبـاء يحطمون التقاليـد

بناتنا بين الطيش وطيب العيش

عشت بقلبي مع الوالد الذي طوف بأقطار الأرض يبحث عن ابنته الغائبة .. بل الهاوية .

فلما عثر عليها لم تترك له لحظة يسعد فيها بلقائها : لقد حرمته من متعة الوجدان حين أنكرت أبوته .. وفى مواجهته .. زاعمة أنها من بلد أجنبى وأعجمى .. لاعربى !؟

ولندع الوالد فى غمرته أو سكرته .. ولنبحث عن جذور المأساة التى كانت من صنع الوالد نفسه .. فذاق وبال أمره .

لقد سمح لابنته أن تسافر إلى بلد بعيد .. طلباً للعلم .. ولما كانت مسافة الخلف بعيدة .. بين وطنها .. وهذا البلد الأجنبى .. وقعت فيما يقع فيه رجل حول بصره من ضوء الشمس ليدخل فجأة فى حجرة مظلم .. أو خرج من حجرته المظلمة فإذا هو فى مواجهة قرص الشمس يلتهب التهاباً ؟

فماذا حدث ؟

إن المفاجأة تصيب الإنسان بالشلل .. فيختل توازنه . ثم يعتل حكمه على الأشياء حيث أفقدته المفاجأة ملكة التمييز .. وهكذا كانت هذه الفتاة التى لم يقدر والدها ظروفها .. ورمى بها .. وبمحض اختياره فى بحر لجى .. يغشاه موج .. من فوقه موج .. من فوقه سحاب .. ظلمات بعضها فوق بعض :

لقد ذهبت إلى الغرب فخدعوها حين أقنعوها بمظاهر الحياة هناك .. فرأت صدق التاجر .. وحرية المرأة .. فبهرتها الأضواء .. وقررت أن تمضى فى رحلة الاغتراب .. ولاتعود .

مع أن الأمر على مايقول استاذنا الطنطاوى :

(إن المرأة فى أوروبة ليست سعيدة . ولامكرمة . إنها ممتهنة . إنها قد تكرم مؤقتاً . وقد تربح المال . مادام لديها الجمال .. فإذا فرغوا من استغلال جمالها . رموها كما ترمى ليمونة امتص ماؤها) وبالنسبة للصدق .

(فلقد كان المسلمون - ولايزال كثير منهم - يقولون الحق . ويعاملون بالعدل ابتغاء رضا الله . سواءعليهم أربحوا بذلك فى الدنيا . أم خسروا .

وأولئك - الأجانب - يصدقون ليضمنوا بقاء زبائنهم . واستمرار أرباحهم فإن تم لهم ذلك بالغش .. غشوا .

وليس غشهم بسيطاً .. كغش من يخلط الحليب بالماء .. أو يخلط الفاكهة الرديئة بالفاكهة الجيدة .

ولكنه غش علمى متقن . يقدمون لك السمن : له لون السمن وريحه وما فيه شئ من زيد اللبن . والعطور : عطر الورد . وعطر الفل : وهى مستخرجة من القطران) !!

وأشد صور الغش مايكون متصلاً بالعقيدة والسلوك .. وقد وقعت هذه الفتاة وأمثالها فى الحضرة .. التى حضرها أبوها .. حين مكن منها قوماً جرأوها على المعصية .. فارتكبتها .. ومازال مكر الليل والنهار يشكل عملية غسيل المخ .. عن طريق سياسة التمويه والتزين حين (سموا الربا عمولة . والخمر مشروبات روحية . والفسق المؤدى إلى الفاحشة فنا . والإلحاد حرية تفكير . ثم سموا الطيبات بالأسماء التى تشوه جمالها . وتزهد فيها . أو تصرف عنها :كمن يسمى التمسك بأخوة الدين طائفية . والحفاظ عليه تعصباً . والصلاح تزمتاً ورفض الجديد الضار رجعية) .

من نتائج هذا الانحراف :

ستعود الفتاة مسخاً مشوهاً - بل عادت بالفعل كذلك - ومن مظاهر ذلك :

أ- محاولة تقليد الفتاة الأجنبية تقليداً أعمى

ب- صعوبة التكيف مع الوطن الأول

جـ- العزوف عن الزواج .. إيثاراً للانطلاق .. طبق القاعدة الخبيثة .

لماذا تشترى البقرة .. مادام الحليب متوفراً ؟!

د - ثم يكون البوار الذى تعوذ به ﷺ فى قوله :

(اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين - وغلبة العدو - ومن بوار الأيم ومن فتنة المسيح الدجال) [1]

هـ - ثم تكون الثمرات المرة :

(فالبوار يعنى : إبقاء الغريزة ملتهبة - حيث لم تجد مجالاً للتصريف - فيكون الاضراب والصراع ، الوسواس القهرى ، والتشاؤم ، والتطلع إلى الحرام ثم الحرمان من غريزة الأمومة ، ومشاعر العطف والحنان .

وهى فضائل تعلى إنسانية الإنسان ، وتشعره ببهجة الحياة ، والإحساس بالوجود - وحين سفلت الحضارة الغربية بالمرأة إلى حضيض البوار الذي إختارته المرأة لنفسها .. افتقدت أثمن مافى الأنوثة وهو : الرحمة والمودة والرقة .

غير أنها لما لم تهتد إلي الحق .. جعلت لها بديلا عن الإنسان الزوج - والابن .. جعلت لها القطط والكلاب أبناء تؤنسها - فحضنتها بل وأضجعتها معها فى الفراش !

ثم أقامت لها التماثيل فى أفخم الساحات .

وليس ببعيد عن الذاكرة تلكم الخصومة بين رئيس دولة أجنبية سابق - وبين زوجته التى أعدت بيت الزوجية لاستقبال ماستلد كلبتها من جراء) [2]

الحل الإسلامى :

اختل سلم الأولويات فى الأيدى الراعشة .. فشغلت الأسرة بالشهادة والتفوق فى الحصول عليها .. قبل أن تفكر فى مستقبل البنت .. مع زوج صالح يصلح به البال .. وتكون العيال .

---

(١) رواه الدارقطنى والطبرانى .

(٢) مصطفى أبو هلال - الخيرية .

وليت الرغبة فى التعليم اتجهت إلى مجالس العلماء المربين .. أصحاب الضمائر المحروسة بالإيمان .. ولكنها قفزت إلى حيث وسوسة الشيطان .. فكان ماكان !

ونتساءل الآن :

أيهما أقوم قيلا .. وأهدى سبيلا .. هذا الذى سعى إلى حتفه بنفسه .. وخلف فى قلبه مايشبه النار الآكلة .

هذا .. أم سعيد بن المسيب رضي الله عنه .. والذى يعلم هذا الوالد المغرور وأمثاله .. كيف يحب الوالد ولده .. فيهديه إلى التى هى أقوم ؟

قصة زواج ناجح :

حكى ابن أبى وداعة قال :

كنت أجالس « سعيد بن المسيب » ففقدنى أياماً . فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى « زوجتى » فاشتغلت بها . فقال : ألا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم . فقال : هل استحدثت أهلاً (أى هل تزوجت ؟) . فقلت : يرحمك الله !! ومن يزوجنى .. وماأملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟! . فقال : أنا .. ! . قلت : وتفعل ؟! . قال : نعم .

ثم تحمد وصلى على النبى ﷺ وزوجنى على درهمين .

قال : فقمت . وماأدرى ماأصنع من الفرح ! فسرت . وجعلت أتفكر : ممن آخذ ؟ وممن أستدين ؟ فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلى . وكنت وحدى صائماً . فقدمت عشائى أفطر . وكان خبزاً وزيتاً . فإذا بالباب يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد . قال : ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد ، إلا سعيد بن المسيب . فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد .

ففتحت الباب ، فإذا سعيد بن المسيب !! فظننت أنه قد بدا له (يعنى بدل رأيه) فقلت : ياأبا محمد : ألا أرسلت إلى .. فآتيتك ؟ قال : لأنت أحق أن تؤتى . فقلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عزباً . فتزوجت . فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك وهذه امرأتك !

فإذا هى قائمة من خلفه .. وفى طوله . ثم أخذ بيدها فدفعها . ثم رد الباب وذهب . فسقطت المرأة من الحياء . فاستوثقت من الباب .. ثم سبقتها إلى القصعة . التى فيها الزيت والخل . فوضعتها فى ظل السراج لكى لاتراه . ثم صعدت إلى السطح . فناديت الجيران . فجاءوني فقالوا : ماشأنك ؟ قلت : ويحكم ! زوجنى سعيد بن المسيب بنته اليوم . وقد جاء بها على غفلة ، وهاهى ذى فى الدار . فنزلوا إليها.

وبلغ أمى الخبر . فجاءت . وقالت : وجهى من وجهك حرام . إن مسستها . قبل أن أصلحها فى ثلاثة أيام .. قال : فأقمت ثلاثاً . ثم دخلت بها .. فإذا هى : من أجمل الناس . وإذا هى أحفظ الناس لكتاب الله . وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج) .

ماذا فى المشهد من دروس ؟ هذه صفحة مجيدة من تاريخنا العظيم .. تحكى قصة من قصص التعاون على البر والتقوى .. وفى أرقى صوره .. بين أجيال أمتنا .. ثم كيف كانت صحبة العارفين خيراً وبركة .

فمن جالس الذاكرين انتبه من غفلته .. ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته ألا وإن مصاحبة الاخيار تورث الخير . كما وأن مصاحبة الأشرار تورث الشر .. تماماً كالريح السارية .

إذا مرت على الزهور .. حملت طيباً .

وإذا مرت على النتن .. حملت نتناً .

ولقد اختار « ابن أبى وداعة » ابن المسيب صاحباً ومربياً فى جلسات مباركة محفوفة بالملائكة .. مشمولة بالرحمة .. فكان لابد أن تؤتى أكلها .. إذا تنكر الزمان .. وانفض الخلان .

وقد تفقد ابن المسيب جليسه .. فعلم من أمره ماوقف به إلى جانبه . فى محنة قلما يجد المصاب فيها المعين .

ولم يقتصر أمر ابن المسيب على التوجع .. أو التسلية .. لكنه صمم أن يحسم معه القضية .. وهكذا وبلاحساسية .. عرض عليه ابنته .. رغم فقره المدقع المقعد !

ولقد كان للعرف السائد حينئذ سلطانه المانع من إتمام هذا الزواج .. زواج شاب فقير .. ببنت ابن المسيب .. الذائع الصيت .. بدليل إن الفتى يستنكر أن يكون زوجاً لابنته .. وهو لايكاد يملك قوت يومه .. بالإضافة إلى ماخلفته النكبة من آثار .. تجعل من الزواج هنا مخاطرة غير مأمونة العواقب .

ولكن ابن المسيب .. درس القضية ثم اتخذ القرار .. منطلقاً من قاعدة قرآنية ترفض سياسة الأمر الواقع .. ضاربة صفحاً بما اصطلحت عليه أعراف البشر .. وهى القاعدة التى قعدتها قصة « شعيب » عندما قال لموسى فيما حكاه القرآن الكريم ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ﴾

لقد عرف ابن المسيب صديقه أو تلميذه « ابن أبى وداعة » فتوسم فيه الخير فليفعل المعروف فى أهل الخير .. فسيعقب خيراً إن شاء الله .

وإذا كان فى الأرض أشرار يستقبلون المطر كالحية .. فيكون فى قلوبهم سماً .. فإن فيها من أمثاله ابن أبى وداعة أخياراً .. يستقبلون نفس المطر .. كالصدفة التى تخرجه جوهراً !!

وإن يكن فقيراً .. فسوف يغنيه الله من فضله .. ثم إنه فى الواقع ليس فقيراً .. مادام يملك أسباب الصلاح .. والوالد هنا يختار لكريمته صنوها في العفاف .

وجه عليه من الحياء سكينة ومحبة تجرى مع الأنفاس

وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة الناس

من عبر الموقف

ابن المسيب المصلح الاجتماعى :

لم يقف دور « ابن المسيب » رضي الله عنه عند حد الدروس يلقيها فى المسجد ، وإنما كان له دوره كمصلح اجتماعى يسهم بعلمه فى حل مشكلة الزواج . ويجمل بنا أن نتوقف متأملين مستنبطين من العبر مايحملنا مسئولية الاقتداء بهذا العالم .. العامل .. الذي لم تكن قصاراه أن يحمل العلم .. لكنه استعمله .. على عكس أولئك الذين حملوه .. ثم لم يستعملوه !

١- إن الحاكم هنا يتقرب إلى العالم طالباً يد ابنته لولى عهده .. لكن ابن المسيب لايكتفى بالاعتذار متلطفاً .. بل يرد الطلب معنفاً معلناً : والله إن هذه خطبة ماأريد بها وجه الله .. أى أن الخليفة يريد مجاملة الشيخ ليسكت صوته .. فلا يعارض الحاكم .. فأحبط ابن المسيب الخطة [1] .

٢- وفضل الوالد أن يخص بها واحداً من تلاميذه الفقراء .. ولم تكن ابنته « بائرة » عانساً . ولكنها كما تفيد الرواية من أجمل النساء .. وأحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم به .. وبما يقرره من حقوق الزوج.

٣- وقد ظهر أدب التلميذ عندما لم يصرح باسم زوجته . وقال : (توفيت أهلى) وهو أدب إسلامى يكنى باسم الزوجة ولايصرح به . مستلهماً روح الإسلام التى تلمح أحياناً ولاتصرح .. حفاظاً علي كرامة البيوت .

إن التصريح باسم الزوجة مسبوقاً « بالهانم » أو « المدام » ربما يرسم لها فى الخيال صورة تحرك خواطر السوء .. ومن ثم كانت الكناية ستراً يحول دون ذلك .

(١) كان الخليفة قد عرض على ابن المسيب أن يزوج ولى عهده من ابنته فرفض ابن المسيب .

٤-ولم يجد الوالد غضاضة فى أن يعلن للأجيال من بعده أن مهر ابنته كان درهمين .. وهو أمر لا يحدث اليوم ولو بقيت البنت عانساً .. إلى أن تموت .

٥- الثورة على التقاليد مستمرة ..

ولم يكتف ابن المسيب بهذه الخطوة الجريئة .. والتى أحرج بها الآباء الواقعين تحت ضغوط البيئة .. فيرفضون الفتى الصالح .. مؤثرين بوار بناتهم فى سبيل إرضاء غرورهم بالمهر الغالى .. لم يكتف بهذا .. بل خطا الخطوة الثانية منطلقاً هذه المرة من قاعدة نفسية تؤكد مرارة الوحشية والفراغ .. بعد موت الزوجة المؤنسة .. ومن ثم قرر أن يصحب « ابنته » « العروس » وبنفسه .. وهاهو ذا يطرق الباب .. باب ابن أبى وداعة ليلاً .

ويحكى الفتى كيف كانت ضربة « ابن المسيب » للتقاليد البالية موجعة .. فقد تصور أن يكون الطارق .. أى رجل « اسمه سعيد » فى الدنيا كلها إلا أن يكون سعيد بن المسيب » وإذا كان هو .. فقد جاء لينقض عهده .. ويخلف وعده فلابد من جهاز .. وجلسات .. ومعاهدات .. قبل اللحظة الحاسمة .. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبينما « ابن أبى وداعة » يعيش لحظاته الجميلة .. يمنى نفسه بمستقبل يملأ فراغه الموحش .. إذا بالمفاجأة تعقد لسانه .. حين قرر الوالد الوفى لابنته .. والمحب لها .. أن يضرب بالتقاليد عرض الحائط .. ويصنع جميلاً فى أهله .. سوف يرتد إليه راحة .. وإلى ابنته تقديراً .. وإلى الأبد .

٦- علماء بطبائع النفوس :

كان ابن المسيب إلى جانب إحاطته بأحكام الله تعالي فى القضايا الشرعية .. كان عالماً بحكمة الله تعالى فى عباده .

وقد أدرك منها أن الإحساس بالحرمان يكون شديداً لدى زوج خاض تجربة الزواج من قبل .. ثم حرم منها .

ومن ثم كان عليه أن يتجاوز نقد الناقدين الذين سوف يلاحقونه باللوم حين يتطوع بإهداء ابنته .. وبنفسه إلى بيت زوجها .. مؤثراً أن يكون وفياً لمبدئه .. فقرر الإسراع بدخولها فى نفس الليلة تقديراً لطبيعة الإنسان .

٧- كرامة الزوج :

وعندما قال ابن أبى وداعة لابن المسيب : ياأبا محمد .. ألا أرسلت إلي .. فأتيتك ؟

قال له : لأنت أحق أن يؤتى إليك .

أى أن ابن المسيب لايستصحب فى قدومه إليه مشاعر الامتنان بهذه الخطوات التى من شأنها أن تنال من كرامة الزوج .. وإحساسه بسيادته .. فمن مصلحة ابنته أن يكون هو السيد المطاع فى البيت .. لتجد فيه دائماً رجلها .. وسيدها .. وحاميها .

ألا وإن الزوجة الصالحة لتجد راحتها الكبرى فى حصن من زوجها .. القوى الأمين .. ولن تكون سعيدة إذا استنوق الجمل .. فترك لها منصة قيادة هى غير مؤهلة لها أصلاً !

٨- سقطت المرأة من الحياء :

فلم تر من قبل رجلاً .. ولم يرها رجل !!

ومن ثم .. لم تتحمل ضغوط الموقف .. فوقعت على الأرض .. وماأسعدها .. وماأسعد زوجها أيضاً بهذا الحياء الذى هو زينة المرأة .. ولو فقدت الذهب والحرير .

وماأشد غفلة الأسر اليوم : إنها تسمح للخطيب .. أن ينفرد بخطيبته .. ويستمر اللقاء حتى يوم الزفاف .. فإذا جاءت ليلة الزفاف لم يكن للقاء معنى ولامذاق .. كهذا الذى يحسه رجل .. وتحسه امرأة لم يسبق لهما لقاء .. ومن هنا يكون الإحساس بكراً .. وقوياً .. ومن أجل ذلك تكون المتعة الحلال أعمق !

٩- وعجيب أن يسرع « ابن أبى وداعة » ليخفى عن العروس لقمة الخبز ونقطة الزيت الباقية .. حياء منها .

عجيب أمره .. لأن ابن المسيب لم يتخيره من بين شباب القرية إلا لبساطته .. بينما رفض غيره من الشباب المترفين والذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب .

١٠- وإذ يفعل ابن المسيب أجمل مايليق به . فإن أم الفتي تفعل أيضاً أجمل مايليق بها :

فلم تشأ أن تأخذ الفتاة على غرة :

أ- لابد من اعدادها نفسياً للتجاوب مع الحياة الجديدة .. فى ظل الصاحب الجديد .

ب- ولأن الزواج لابد فيه من الإعلان . وإذا كان زواج « المحلل » يتواصى الناس بكتمانه .. فالزواج الشرعى .. ينبغى التواصي بإعلانه!

جـ- ثم إنها ليلة العمر فى حياة كل فتاة :

ثوب جديد .. وزينة .. وصاحبات يصلحن من شأنها ويغنين لها ..

وإذن فلابد من مهلة .. لتلبية هذا الحلم الذى يعايش كل فتاة طويلاً ولذلك نسمع أمه تهدده إن هو اقترب منها قبل أن تصلحها فى ثلاثة أيام .. ويلتزم الشاب .. والذى سبق له الزوج .. يلتزم بتوجيه أمه .. فقد كان الانتماء إلى الأسرة قوياً .. لأنه كان جزءاً من تكاليف الإيمان .. وكان الالتزام قبل ذلك عميقاً .

وهكذا قررت أمه أن تعد للعروس مهرجاناً بسيطاً .. يغذى فى العروس رغبة دفينة ألا تساق إلى دارها الجديدة .. هكذا فى صمت !

إن فرصة العروس حينئذ .. وفى ليلة العمر .. لايطيقها قلبها الصغير !

وإذن فلابد أن تزين .. وتمضى فى موكب من الجيران والأحباب .. يقاسمها تلك اللحظات البهيجة ، التى ترى فيها نفسها فى عيون الآخرين .

ولقد حفظ العهد .. ومكث معها ثلاثة أيام .. لايمسها .. تقديراً لعهده مع أمه .. وقبل ذلك تكريماً للزوجة الجديدة .

١١- ويصبر الشاب .. وزوجته فى نفس البيت .. وقد تكون فى نفس الحجرة .. وكان لابد من الجزاء الأوفى .

لقد كانت الزوجة : من أجمل النساء .. بل ومن أكمل النساء : أحفظهم لكتاب الله .. وأعلمهم بسنته ﷺ ، وأعرفهم بحقوق الزوج . وحسن التبعل .

بل إن بعض الروايات تقول : إنه لما أصبح أراد أن يذهب إلى درس والدها فقالت له : اجلس وأنا أعلمك !!

عناصر السعادة :

وهكذا استجمعت الأسرة الجديدة عناصر السعادة :

فأم الزوج .. سعيدة كل السعادة بعروس ابنها .. مقدرة كل التقدير تلك المبادرة العميقة الدالة على معدن أصيل ، وطبع نبيل .

والزوج .. لايزال يعيش أفراحاً متجددة .. بهذا الفردوس الذى يعيش فى ظلاله وثماره .

والعروس : تعرف من حقائق دينها .. ماصيرته أخلاقاً عملية .. وعلى رأس هذه الأخلاق .. طاعة الزوج .

ومن وراء ذلك كله والد يعيش الإسلام ديناً قيماً .. يرفض المظاهر .. ويتعشق المبادئ .. ويختار لابنته رجلاً يحقق الله به مقاصد الزواج : المودة .. والرحمة .. تقاسمه الحياة زوجة على مستواه : علماً .. وعملاً :﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

وتتعانق أسرتان على كتاب الله وسنة رسوله .. وفى ظلهما يمضي الزوجان .. على حداء الوفاء .. وعلى ضوء الإيمان .. وربما يحدث يوماً خلاف .. ولكنه خلاف كما قيل : لايمحو المحبة .. وتنازع لايولد البغضاء .. إنه صدام كاصطدام الغصون فى الروض فى مهب نسيم عليل.

وهكذا الأسر في ظل المجتمع الإسلامي

ونتساءل مرة أخرى أيهما أسعد حالاً ومالاً ؟ أسرة اليوم .. أم أسرة الأمس ؟ لقد كانت الأسرة .. زمان .. جزءاً من الحياة البسيطة .. فسعدت وأسعدت .. يقول دكتور مصطفى السباعي :

(أنا لاأزال في دهشة من أمر الأعرابيات في حملهن وولادتهن .. إنها لفي شهرها التاسع وهي أشد ماتكون ثقلاً وعناء بجنينها .. وهي مع هذا أشد ماتكون إمعاناً في عملها أو ترحالها في الصحاري والقفار .. حتى إذا جاءها المخاض .. تنحت عن الطريق قليلاً فولدت وقطعت حبل السرة لوليدها بالحجر .. ثم لفته وألقته على ظهرها وتابعت السير .. كأن شيئاً لم يحدث .. ولايعلم أحد ممن في الركاب من أمرها شيئاً .. ونساؤنا المدنيات تحشد لولادتهن القابلة والطبيب .. والمساعدة من ممرضة أو قريبة .. وتسعف أثناء المخاض بكل ماوصل إليه الطب الحديث من وسائل التيسير وتخفيف الآلام .. وتعقيم الأدوات والآلات والأربطة والعلاجات .. فإذا ولدت ظلت في فراشها في البيت أو في دار التوليد أياماً لاتغادر سريرها إلا لماما .. وتظل بعد ذلك أياماً أخر لاتأتي من أعمال البيت إلا بأيسرها إلا لماما .. وتظل بعد ذلك أياماً أخر لاتأتي من أعمال البيت إلا بأيسرها وأخفها . والكل يشفقون عليها أن تنزعج أو ينزعج الوليد مدة نفاسها .. خشية أن ينالها مالاتحمد عقباه .. فما السر في هذا الفرق العجيب بين المدنيات والبدويات ؟! أهو ترف الحضارة الذي يضعف في الجسم المقاومة ؟ أم خشونة البداوة التي تقوى فيه المناعة والقدرة على تحمل المشاق ؟ فإن كان هذا هو سر الفرق بين الامتين .. فما هو سر الفرق بين الوليدين ؟

أيولد ابن البدوية محصنا ضد الضعف والمرض .. فلايتعرض لما يتعرض له أطفال المدن بعد ولادتهم .. مما يحتاجون معه إلى عناية الطبيب وسهر الأم أو الحاضنة ؟

وإذا كان هذا صحيحاً .. أفليست البداوة أسلم عاقبة من الحضارة .. وأكثر سلامة .. وأوسع أمناً ؟ وهل يتساوى ماتسلبه منها الحضارة مع ماتمنحنا إياه ؟

أياً ماكان الأمر فلن نفضل البداوة على الحضارة ؟ إن الإنسانية لن تتطلع إلى الوراء البعيد .. البعيد)

وإذا كان الدكتور السباعي لايريد العودة إلى الوراء .. فإن الشيخ على الطنطاوي يود أن لو ظلت الحياة كما كانت .. وظللنا بها جامدين متخلفين .

إذن لنجونا مما رمتنا به الحضارة من أدواء وأرزاء . يقول :

(فالاختراعات ليست خيراً كلها .. وليست نفعاً للبشرية مطلقاً .. والعلم الذي اخترع السيارة والمصباح الكهربائي .. هو الذي اخترع الديناميت والغاز الخانق .. وهذه البلايا الزرق .. فشره بخيره والنتيجة صفر .

ودع هذا .. ولنأخذ الاختراعات النافعة : لنأخذ المواصلات مثلاً .. لاشك أن العلم سهلها وهونها .. فقرب البعيد .. وأراح المسافر .. ووفر عليه صحته ووقته .. ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟

أحيلك في الجواب على « شبنكر » لترى أن البشرية قد خسرت من جرائها أكثر من الذي ربحته : كان المسافر من بغداد إلى القاهرة .. أو الحاج إلى بيت الله .. ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة في الطريق .. ويحمل آلاماً .. وتعرض له مخاوف .. ولكنه يحس بمئات من العواطف وتنطبع في نفسه ألوف من الصور .. ويتغلغل في أعماق الحياة .. ثم يعود إلى بلده .. فيلبث طول حياته يروي حديثها .. فتكون له مادة لاتفنى . ويأخذ منها دروساً لاتنتهي .. أما الآن فليس يحتاج المسافر « إن كان غنياً » إلا إلى الصعود على درجة الطيارة والنزول منها حيث شاء بعد ساعات قد قطعها جالساً يدخن دخينة .. أو ينظر في صحيفة ..

فهو قد ربح الوقت .. ولكنه خسر الشعور .. فما نفعتنا المواصلات إلا فى شئ واحد هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدوا .. ونحن مغمضون عيوننا .. لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق !

ولنأخذ الطب .. وليس من شك أن الطب قد ارتقى وتقدم . وتغلب على كثير من الأمراض .. ولكن ذلك لايعد مزية لأنه هو الذى جاء بهذه الأمراض .. جاءت بها الحضارة .. فإذا سرق اللص مائة إنسان .. ثم رد على تسعين منهم بعض أموالهم أيعد محسناً كريماً .. أم لايزال مطالباً بالمال المسروق من العشرة ؟

انظر فى أى مجتمع بشرى لم تتغلغل فيه الحضارة .. ولم يمتد إلي أعماقه العلم .. وانظر فى صحة أهله وصحة المجتمعات الراقية ؟ هل الأمراض أكثر انتشاراً فى فيافى نجد .. أو فى قصور باريز ؟ أو ليس فى باريز أمراض لاأثر لها فى البادية ؟ فليس إذن من فضل للعلم فى أنه داوى بعض الأمراض بل هو مسئول عن نشرها كلها ؟

وتعال ياسيدى ننظر نظرة شاملة .. هل البشر اليوم « فى عصر العلم » أسعد أم فى العصور الماضية ؟ أنا لاأشك فى أن سعادتهم في العصور الماضية .. عصور الجهالة « كما يقولون » كانت أكبر وأعمق .. ذلك لأن السعادة ليست فى المال ولافى القصور ولاالترف ولاالثقافة .. ولكن السعادة نتيجة التفاضل بين مايطلبه الإنسان .. ويصل إليه .. فإذا كنت أطلب عشرة دنانير وليس عندى إلا تسعة فأنا أحتاج إلى واحد .. فسعادتى ينقصها واحد أما « روكفلر » فسعادته ينقصها مليون ..لأن عنده تسعة وتسعين مليوناً وهو يطلب مائة . فأنا بدنانيري التسعة أسعد من « روكفلر » وكذلك الإنسان . لم يكن مطالبه كثيرة فى الماضي فكان سعيداً لأنه يستطيع أن يصل إليها .. أو إلى أكثرها .. أما مطالبه اليوم فهى كثيرة جداً لايستطيع أن يصل إلا إلى بعضها .. فهو غير سعيد) !

المرأة والتنمية الاقتصادية

عن « سهل بن سعد الساعدي » أن امرأة جاءت إلي رسول الله ﷺ « ببردة » قالت : يارسول الله إني نسجت لك هذه بيدى لأكسوكها ، فأخذها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها ، فخرج علينا فيها .. وإنها لإزاره . فجاء فلان بن فلان « رجل سماه يومئذ ش فقال : يارسول الله : ماأحسن هذ البردة ، أكسنيها .. قال : نعم .

فلما دخل طواها ، وارسل بها إليه ، فقال له القوم : والله ما أحسنت ، كسيها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها .. ثم سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلا ، فقال إنى والله ما سألته إياها لألبسها .. ولكن سألته إياها لتكون كفني ، فقال سهل : فكانت كفنه يوم مات .

يقولون : هناك عمل .. يحتاج إلى المرأة .. وعمل آخر .. تحتاج المرأة إليه ربما كانت للمرأة مواهبها الخاصة بها فى مجال الطب النسائى ، وفى مجالات كثيرة من مجالات الخدمة الاجتماعية .. حيث ترشحها مواهبها لملء فراغ لايقدر على سده الرجال ، وتلك هى الأعمال التى تحتاج إلي المرأة .. والتى لاتتم إلا بها ، إلى جانب ماقد يحدث فى حياتها من مفاجآت تفرض عليها العمل .. مثل غياب العائل وكثرة العيال .

ونحن أمام نموذج من النساء استطاعت وهى تحت سقف البيت أن تحسن عملاً .. فأنجزته .. لقد وجدت وقتاً فائضاً .. وطاقة موفورة .. وثم خبرة فى فرع من فروع العمل .. فصرفت ذلك كله .. لافى الثرثرة ولغو الكلام .. وإنما فى عمل نافع لها ولأمتها ، إنه عمل يحتاج إلي الصبر .. والنفس الطويل .. والدقة والحذر .. وللمرأة فى كل ذلك بال طويل .. وإذا كانت بعملها تعبر عن جمال الحركة .. والنتاج .. فإنها بإهدائها إلى الرسول ﷺ دلت على جمال خلقها حين خصته بها ﷺ .

ولقد قدمتها إلى الرسول فسدت حاجة ضرورية لديه .. دل على ذلك سرعة ارتدائها .. ثم الظهور بها بين الصحاب .. يضاف إلى ذلك إنها وقفت بعملها هذا فى طابور العاملات ولم يكلفها العمل الابتذال أو الاحتكاك بالرجال .. وهاهى ذى تقدم فائض تتاجها إلى الرائد الذى لايكذب أهله - ﷺ - وقد قبل ﷺ الهدية :

أ- تقديرا للمرأة وإشادة بعملها . ب- ثم إقراراً للعمل نفسه .

جـ- ثم ليكون الموقف برمته تحريضاً للنساء ليتنافسن فى مثل هذا العمل المبارك .

مفارقة عجيبة

والمفارقة العجيبة هنا أن تعمل المرأة .. ثم يحاول « الرجل » أن يأخذ ماعملت .. دون أن يبذل فيه جهداً .. لقد استوى الرجل والمرأة هنا فى أصل حب رسول الله ﷺ لكن حب المرأة كان إيجابياً .. حين أثمر هذه الشملة .. بينما كان حب الرجل هياماً ملك عليه أقطار نفسه .. لكنه لم يرتب عليه عملاً !!

وكان عليه بدل أن يأخذ الشمعة « جاهزة .. وبلاثمن .. كان عليه أن يرسل ابنته .. أو زوجته .. لتأخذ عن هذه المرأة مبادئ « فن النسيج » ليزداد طابور العاملات امتدادا .. لكنه لم يفعل .. ويبقى الدرس الكبير هنا وهو : قدرة المرأة على أن تكون فى المجتمع شيئاً مذكوراً .. وماأجدر النساء اليوم أن يفهمن ذلك الدرس جيداً وهو : قدرة المرأة على الإسهام فى حل مشكلات أمتها الاقتصادية .. حتى وإن كانت ربة بيت .إن الأشياء الصغيرة .. تسفر فى النهاية عن مشروعات كبيرة .. إن البحر .. من القطرة والجبل من حبة الرمل .. فكذلك الحال فى الاجتماعيات ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

هاربات من الجهاد

كانت التاجرة العفيفة الشريفة .. تقعد أمام دارها محتشمة تغطى حاجة من حاجات القرية ، لكنها آثرت أن تترك مقعدها أمام الدار .. لتنزوى فى زاوية من زواياها .. مهمتها : الاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم ، مجددة توبتها نادمة على أيام .. باعدت بينها وبين هذا الذى اهتدت إليه خيراً .

وخسر السوق المائج بالإيمان الكاذبة .. خسر تاجرة عفيفة شريفة قانعة .. بقدر ماكسب المخادعون من غيابها ، لقد كانت المرأة التى نسجت « الشملة » لرسول الله ﷺ كانت تراه شخصياً وتسمع صوته غضاً طرياً .. ولم يمنعها ذلك من أن تكون عاملة .. آكلة من عمل يدها .. محققة بذلك عزتها .

وتاريخنا الإسلامى حافل بشواهد تؤكد قدرة المرأة على أن تكون إيجابية لها دورها ولها تأثيرها فى مجرى الحياة ، فلم يكن مكانها الأثير فى « المطبخ » تعد الطعام .. لكنها أحست بمسئوليتها تؤرقها فتاجرت .. بشرف .. وطلبت العلم .. بشغف .

وكان للصوفى بشر الحافى ثلاث أخوات يعشن معه فى بيت واحد .. ومع أن الزهد كان هو القاسم المشترك الأعظم بين أفراد البيت ، لكنهم جميعاً كانوا يأكلون مما عملت أيديهم .. جاءت أخته يوماً الإمام أحمد .. فقالت : ياأبا عبد الله : إنى أغزل ليلاً على ضوء السراج ، وربما طفئ السراج ، فأغزل على ضوء القمر ، فهل علي حين أبيع الغزل : أن أبين للمشترى .. أن هذا غزل في ضوء السراج .. وهذا غزل فى ضوء القمر؟!

فأجابها ابن حنبل - رحمه الله - إن كان عندك بينهما فرق .. فعليك أن تبينى ذلك !

فسألته ثانياً : هل أنين المريض شكوى ؟!

قال : إنى أرجو ألا يكون شكوى « أى هو مما يستريح به المريض .. وليس تبرما بالقدر » .

إننا أمام امرأة عاملة .. عابدة .. زاهدة .. لكنّ الزهد لم يحبسها فى الدار .. لكنّ الزهد يعلن عن نفسه عملياً فى شخص امرأة تؤكد لك أن « حق العنبر » لاقيمة له إذا لم يشم الناس رائحته .

إننا فى حاجة إلى مثل هذه القدوة الحسنة .. فى شخص امرأة زاهدة ورعة .. تمارس التجارة .. لتكون حجة على الفجار من التجار !.

إن المرأة هنا سليلة بيت الزهد والورع .. تتاجر وعلى جبينها تاج الشرف والأمانة والإخلاص .. ومن أمانتها أن تسأل عما غزلته فى ضوء القمر .. وهو فرق - إن كان - لايضر الصنعة شيئاً .

ولكنه الحس المرهف .. والإيمان الصاحى .. والورع الصادق .. يبدو فى صورة امرأة مؤمنة .. يؤذن فى الناس بأن الإيمان كما يصنع الرجال .. فإنه يصنع النساء .

حقاً : لقد أثبتت المرأة وجودها عبر التاريخ .. وفرضت احترامها على الحياة : يقول الشيخ محمد الغزالى :

والحق أن المرأة العربية فى الجاهلية الأولى .. برزت شمائلها الحسان فى ميادين كثيرة ، أيام الحرب وأيام السلم .. على السواء ، ولم توضع أمامها العوائق التى وضعت أمام المسلمات فى عصور الانحطاط العام للأمة الإسلامية .

وفي صدر الإسلام استطاعت امرأة من الخوارج أن تقود جيشاً يهزم الحجاج ، ثم يحصره فى قصره .. ويتركه وهو مذعور .. حتى عيره أحد الشعراء على هذا الموقف المخزى بقوله :

اسد علي وفى الحروب نعامة ∴ فتخاء .. تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزلة فى الوغى ؟! ∴ بل كان قلبك فى جناحى طائر !

أما في العهود الإسلامية الأخيرة : فإن المرأة ماكانت تدرى وراء جدران بيتها شيئاً ، وعندما غلبتنا حضارة الغرب المنتصر .. كان هم المرأة أن تقلد فى الثوب الرشيق والمنظر الأنيق .

أما فى غزو الفضاء .. واكتشاف الذرة ودراسة النفوس والآفاق ، فإن الأمر لايستحق الاكتراث .. لأنه ليس من شأنها ولامن رسالتها ، إن الإسلام - فى سياق الفضائل - لايقيم وزنا لصفات الذكورة والأنوثة ، فالكل سواء فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، الكل سواء فى مجال العلم والعمل ، والجد والاجتهاد .

أغلى مايملك الإنسان

قال حاتم الطائى لزوجته يوماً :

إذا ماصنعت الزاد فالتمس له أكيلا .·. فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقا .. أو جار بيت فإننى .·. أخاف مذمات الأحاديث من بعدى

وإنى لعبد الضيف .. مادام نازلا .·. ومافى إلا تلك من شيم العبد !

وترد الزوجة الوفية قائلة :

لعمرى - لقد ماأعضنى الدهر عضة .·. فاليت ألا أمنع الدهر جائعاً

وما إن ترون اليوم إلا طبيعة .·. فكيف بتركى ياابن أمى الطبائعاً ؟!

لقد صار الكرم طبيعة تتمشى فى دمائها .. فكيف تتخلى عن طبيعتها .. وهى حياتها .. وفى هذا البيت الذى كان الكرم طبيعة فيه غير محدثة .. نشأت « سفانة » بنت حاتم الطائى .. فجاءت على ماعودها والدها : كانت « سفانة » من أجود نساد العرب علي الإطلاق وكان أبوها يعطيها المجموعة من الإبل .. وعلى الفور تهبها للناس !!

وذات يوم قال لها أبوها :

يابنية : إن الكريمين إذا اجتمعا فى المال .. أتلفاه .. فإما أن أعطى .. وتمسكى .. وإما أن أمسك .. وتعطى لايبقى على هذا شئ .

فقالت له : منك تعلمت مكارم الأخلاق ، وهكذا تأخذ المرأة موقعها تمارس هوايتها فى مساعدة المحاويج .

فى ساعة العسرة .

لكنها - وفي ساعة العسرة - لاتتخلى عن كرامتها واجمالها فى الطلب .. بل وجمالها فى عرض قضيتها : عندما فتح سعد بن أبى

وقـاص - رضى الله عنه - بلاد الفـرس أتتـه « حـرقـة » بنت النعمـان .. ملك الحيرة .. ومعها عدد من جواريها تطلب منه العون ، قال : أيتكن حرقة ؟ قلن : هذه .. وأشرن إليها ، قال لها : أنت حرقة ؟ قالت : نعم .. فما تكرارك الاستفهام؟

ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، وإنها لاتدوم على حال ، إنا كنا ملوك هذا المصر من قبلك : يجئ إلينا خراجه ، ويطيعنا أهله زمان دولتنا .

فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر .. فصدع عصانا .. وشتت شملنا .. وكذلك الدهر ياسعد !

إنه ليس قوم بسرور وجدة إلا والدهر معقبهم حسرة ، ثم انشدت:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ∴ إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدينا لايدوم نعيمها ∴ تقلب تارات بنا وتصرف .

فأكـرمهـا سـعـد - رضـي الله عنه - وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه ، قالت له :

لاأنصرف عنك حتى أحييك بتحية ملوكنا :

لاجعل الله لك إلى لئيم حاجة . ولازال لكريم عندك حاجة .

ولانزع من عبد صالح نعمة .. إلا جعلك سبباً لردها عليه .

فلما خرجت من عنده تلقاها نساء البلد ، فقلن لها : ماصنع بك الأمير ؟

قـالت : حـاط لى ذمـتى .. وأكـرم وجـهى .. إنما يكرم الكريم .. الكريم.

أما بعد : فقد كانت « حرقة » محترقة الأعصاب .. تعيش أقسى لحظات حياتها .. لكنها لحظات مباركة تلهب .. لتلهم ، وقد ألهمتها تلك الدرر .. والتى أهدتها سعدا - رضى الله عنه - ولئن عادت هى بحفنة من المال ، فقد عاد هو بأغلى مايملك الرجال .

قصة زواج ناجح

يقول الله عز وجل :

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين ﴾ (١)

تمهيد :

يريد الله عز وجل لنا أشياء .. ويريد منا أشياء .. فإذا أراد سبحانه منا .. أوأراد لنا .. فإنه تعالي بحوله وطوله .. ييسر لنا أسباب ذلك .

وقد أراد عز وجل لموسى عليه السلام أن يكون رسولاً .. فهيأ أسباب ذلك .. على مايقول سبحانه :

﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ..** ﴾

وقد بدت مظاهر التيسير فيما يلى :

أ- أمر الله تعالى أم موسى أن ترضعه .. مع أنها ترضعه طبعاً ..(وذلك ليألف لبنها .. فيترتب علي ذلك رفضه ثدى غيرها بعد وقوعه فى يد فرعون .. فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة غيرها .. فيفوت ذلك المقصود)

ب- بعد أن ولدته وخافت أن يذبحه الذباحون .. أمرت بإلقائه فى اليم .. فى البحر الواسع .. والذى يمتد حتى يتلاشى فى الأفق البعيد .

إنه اليم .. وليس البحر .. ولا النيل .. ويعنى ذلك : السعة وماتشى به من رهبة.. قال الرازى فى اللوامع معللاً ذلك :

(وهذا إشارة إلى الثقة بالله . والثقة : سواد عين التوكل .. ونقطة دائرة التفويض .. وسويداء قلب التسليم .. لتظفر النفس فى النهاية بروح الرضا والصبر .. ليتخلص العبد من تكاليف الحمايات .. والتعريج على مدارج الوسائل)

(١) سورة القصص « ١٤ » .

جـ- الوعـد ببقـاء القلب فى دائرة الأمـان : فـلا حـزن على مـاض .. ولا خوف من المستقبل .. ثم تكون الرسالة هى المقصود الأكبر .. والتى رشحه ربه بها بما منحه من نعم :

ثم بلوغ الأشد .. والاستواء .. والحكم .. والعلم .

كل أولئك من شأنه أن يربط على قلب الأم التى تنازعها غريزة الأمومة .

ولأن تركيبها عاطفى .. فربما انعكست عاطفتها على قرارها .. فتفسد خطة التمكين .. وتنهار النفس فى مواجهة المفاجآت .

ومن حكمته عز وجل أن يزوده بهذا الكمال الجسدي والروحى .. وفى هذه السن بالذات حين يكون (ابتـداء الانتكاس الذى قـال الله تعالى فيه « ومن نعمره - أى إلي اكتمال سن الشباب - ننكسه فى الخلق)

والمعنى : توقفه : فلا يزاد بعد ذلك فى قواه الظاهرة . ولا الباطنة شئ .. ثم يأخذ فى النقصان .. إلا أنبياء .

ومعنى ذلك : أنه اعتدل فى السن . وتم استحكامه بانتهاء الشباب (فتكامل عقله . وصحت بصيرته . وآن أوان خطابه) .

أى صار إلى الحد الذى لايزاد الإنسان بعده غريزة من الغرائز لم تكن فيه أيام الشباب : إلا الأنبياء كما قلنا : فإنهم فى حد الوقوف يؤتون من بحار العلوم - وبغير اكتساب - مايقصر عنه الوصف . ويؤتون من قوة الأبدان أيضاً بمقدار ذلك) .

وكذلك كان موسى عليه السلام .. والذى جزاه الله تعالى بالإحسان إحساناً سنة منه تعالى فى كل محسن يأتى من بعده .. مؤكدة ضرورة أن يختار للغايات البعيدة من كان أهلا لها .. بما تسلح به من قيم عليا .. تمكنه من الصعود إلى المعالى .

وهنا سؤال يطرح نفسه :

فقد قال عز وجل في قصة يوسف عليه السلام :

﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ يوسف « ٢٢ »

فذكر الأشد .. ولم يذكر سبحانه الأستواء .. المذكور فى قصة موسى عليه السلام .

وقد أدرك المفسرون مايثيره ذلك من غريزة حب الاستطلاع لدى المسلم .. حتى يطمئن قلبه .. وترتاح نفسه .

ومن الأجوبة المسكتة ماقالوه :

من أنه لامجال للمقارنة .. لأن الوحى مختلف :

فالوحى .. بالنسبة ليوسف عليه السلام .. وحى إلهام أما الوحى بالنسبة لموسى عليه السلام فهو وحى رسالة .. وإذاً فخطورة منصب الرسالة محتاج إلى النضج .. والاستواء . الأمر الذى لايتطلبه وحى الإلهام .

ومعنى ذلك :

أن يوسف عليه السلام .. لم ينتظر به الاستواء بعد بلوغ الأشد .. لأن الله تعالي أخبر عنه : أنه أوحى إليه لما طرح فى الجب حيث قال عز وجل :

﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ﴾

ثم أراه عز ذكره الرؤيا التى قصها على أبيه .

أما موسى عليه السلام .. فلم يفعل به شئ من ذلك إلي أن بلغ الأشد واستوى لأنه لم يكن يعلم ماأريد به إلا بعد أن استأجره الشيخ .. ومضت سنوات إجارته .. فسار بأهله .. حتى آنس من جانب الطور نارا .

وهكذا تتنامى قدرات الإنسان .. وتزدهر ملكاته .. مشمولاً برعاية الله التى تطيب بها النفوس .. ثم تستوى على سوقها .. تعجب الزراع ليغيظ الله بها الكفار .

وكهذا الجزاء الأسنى يجزى الله تعالى من سار على نفس الدرب .. ومن سار على الدرب وصل .

اتق شر من أحسنت إليه

يقول عز وجل :

﴿ فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين ﴾ القصص «١٨-١٩»

تمهيد :

حين يعرض القرآن موقفاً ما .. فإنه يصور أنفس أبطاله عارية من كل زيف .. أو تزويق .. يصورها بكل منعطفاتها .. وتعرجاتها .. بإيجابياتها وسلبياتها .

ساعة العزة .. ولحظة الهوان .. ساعة الحزن .. والخوف .

وهى فى عليين .. وهى فى أسفل سافلين .. وإذا أنت .. وإن كنت لم تر الموقف بعينيك .. فأنت تسمعه بأذنك .. ثم تنفعل بما ترى انفعالاً .. تتلقى به الموقف كأنه يحدث الآن .. وبين يديك !

وهاهى ذى الآيات الكريمة تتكفل بذلك .. واصفة من عوارض النفس البشرية فى شخص موسى عليه السلام .. مايكون لنا عبرة ودرساً .

إنه - وبعد أن فعل فعلته - تكاد نفسه أن تتبدد خوفاً .. فإذا هو يترقب .. يتوقع المكروه .. فى كل لحظة .. ومن كل مكان .. يدير رقبته كثيراً .. خوفاً من طارقة تطرقه .

إنه الخوف المشروع .. والحذر الواجب فى حدود المسموح به .. وهو الخوف الجبلى .. والذى لاينجو منه أحد .. وليس هو بالهلع الذاهب برشد الإنسان .

ولكن الرواية لم تتم فصولاً .. وقصة موسى مع الأحداث لم يسدل عليها الستار بعد .

ومازالت هناك بقية من البلاء .. تنضج بها الشخصية .. ويتم بها الإعداد للمهمة الكبرى .

لقد فوجئ بنفس الاسرائيلى . الذى استنصره بالأمس .. فوجئ به يستنجد به من مصرى آخر .

وكان رد موسى طبيعياً وصادقاً فى نفس الوقت :

﴿ إنك لغوى مبين ﴾

إنه من الغواية في قاعها .. وآية ذلك :

أن هذا الإسرائيلى بالذات كان يكفيه ماحدث بالأمس .. مما كان هو سبباً فيه .

ولكن يبدو أنه كان « مشاغباً » بفطرته .. فتجاهل ماحدث بالأمس .. على عظمه .. ثم هاهو ذا اليوم يريد أن يكرر المأساة من جديد .

فنهره موسى بما يردع فى نفسه نوازع الشر .

ومع هذا كله .. فلم تفارق موسى سليقة النجدة فى قلبه فهم أن يبطش بالعدو الجديد كما بطش بأخ له من قبل ولكنه فوجئ به يقول له .

(أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين)

والمتبادر إلى الذهن أن القائل هنا هو المصرى .. وهذا ماذهب إليه جمهور المفسرين .

ولكن بعضهم قال : بل هو الإسرائيلى الذى أنقذه موسي بالأمس .. واجهه بهذا البهتان .. فجازي موسى على معروفه بهذا المنطق الغشوم.

وليت شعرى .. إنه لفهم يؤيده الواقع اليوم .. والواقع الذى يصرخ فينا بهذا النذير .. إتق شر من أحسنت إليه .

وإذن .. فعليك أن تضرب كفا بكف .. تعجباً من هذه النفوس الرديئة .. البذيئة .

والتى تجعل من شكر الجميل أن تشتم ولى هذا الجميل .. وما أمر مانلقى من هذه النفوس .

حين يضعك الحق تعالى فى الموقف الأفضل .. فإذا بحسادك يحقدون عليك أن كنت أعلى منهم .. بينما هم فى الموقع الأدنى .. بما كانوا يصنعون .

إن الجحود .. الذى ينكر عليك نعمتك التى تتقلب فيها .. وعلى الإنكار مزيد من سوأ الأدب .

وكذلك فعل الإسرائيلى بموسى عليه السلام .. الذى خلصه من ورطته .. بل أنقذ حياته .. وإن حاول الغافلون الاعتذار عنه بأنه ظن أن موسى يريد قتله هو !!

والذى يستلفت النظر هنا تبجح هذه النفوس المريضة .. حين يحكمون على نواياك .. بينما هي فى صدرك .. ولم يطلعوا عليها .

وذلك ماحكاه القرآن عنها "

﴿ **إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ..** ﴾

وليس هذا فقط بل إنهم يبالغون فيقولون :

﴿ **وماتريد أن تكون من المصلحين** ﴾

أى : لست مرشحاً للصلاح .. وإنما طبعك الفساد !!

يسكتون بهذه المبالغة صراخ أنفسهم التى تكذبهم اقتناعاً بكذبهم وافترائهم .

ومعنى ذلك : أنهم يتجاهلون مايظهر من صلاح حالك .. مركزين فقط على مالايمكن الإطلاع عليه .. تمويهاً .

إنها نفوس عفنة : لايناسبها أن تعيش فى جو من الطهر والنقاء .. وإنما هى كهذه الخنفساء :

توضع فى طاقة من الورد .. فتختنق .. أو تحترق .. فإذا عدت بها إلى القمامة تنتعش وتنتفش !

ولله فى خلقه شئون .

سلاح الصبر

يقول الله عز وجل :

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسي إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين .. فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل ﴾ القصص« ٢٠ - ٢٢ » .

تمهيد :

فى الآية السابقة أقسم موسي بإنعامه عليه بالمغفرة أن يتوب أو كأنه قال استعطافا :

(رب اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة . فلن أكون إذ عصمتنى ظهيراً للمجرمين) اجعل نعمتك مذكرة لنا بك .. معينة لنا على طاعتك .. يعنى لن يكون بعد اليوم من جلساء فرعون .. ولن يكثر بعد اليوم سواده .. وهو معنى قوله تعالى : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا)

ولن تكون حكمته وعلمه إلا لحساب الحق .

وحين افتخر رجل بقلم اخيه الجرئ .. لفت الناصح الأمين نظره بأن قيمة أخيه متوقفة على الإجابة عن هذا السؤال :

لمن يكتب .. فإذا كان يكتب للطغاة فيابعدا للكاتب .. كما بعد المكتوب !! ومهما كان سن قلمك من ذهب .. فإن ذلك لايحشرك فى زمرة الكتاب .

ولقد رفض موسى أن يكون محظوظاً فى بلاط صاحب الجلالة :

وإذ يتوقع المصلح هنا .. مايلاقيه من خسارة غدا فإن الآية الكريمة التى معنا تؤكد أن الله تعالى سوف ينصرك .. بأن يسخر لك رجلاً .

رجلاً واحداً فقط يكون عزاءك .. حين يرد عنك كيد الكائدين ويخرس الله به ألسنة تنالك بالسوء !!

ألسنة .. علمتها الكلام .. فكانت الموت الزؤام .. وأقرباء .. من دمك ولحمك .

ولكنهم يفضلون أكل لحمك .. ولو كان ميتاً .. على أن ينالوا بسوء واحداً من الغرباء !!

سلاح الصبر

ولايسعى لنجدتك واحد من جنود ربك إلا إذا كنت صابراً .. صبراً تكسر به غرور الحاقدين .. وأجمل بالصبر زادا عبر الطريق الطويل .. وأجمل بجزائه الجزيل .

كما :

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

وكيف :

(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون)

ومن معانى الصبر :

أ- أن تطيع الله فيمن عصاه سبحانه فيك .. وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً .

ب- الانتصار على الشيطان .. بل الاستهتار بكيده .. قيل لعابد .. ماتفعل مع الشيطان ؟ فقال : وماالشيطان ؟

أطيع .. فما نفع وعصى .. فما ضر !!

وقد يثقل الصبر .. وتشتد مرارته .. كلما شحذ العدو حده .. وجند جنده .

إنه الاصطبار إذن نرتفع به إلى مستوى الموقف .. حتى يكون استمساكنا بالحق .. أقوى من تشبث المبطلين بباطلهم !

وعندئذ فالفرج آت لاريب فيه :

فلرب نازلة يضيق بها الفتى

ذرعاً .. وعند الله منها المخرج

ضاقت .. فلما استحكمت حلقاتها

فرجت .. وكنت أظنها لاتفرج

اجل إن الواقع شاهد بصحة هذا القول :

وأنه وفى ساعة العسرة .. وعند اشتداد ظلمة الليل يؤذن الصبح بالطلوع .

وإذا انسدت الفرج .. فتوقع الفرج

فكل الحادثات إذا تناهت

فموصول بها الفرج القريب

ويكفيك عزاء : أن كل إنسان يبذل ماعنده : كل إناء بالذى فيه ينضح .

وهكذا قالها الحكيم جواباً لمن انكر منه مقابلته السيئة بالحسنة!!

ويكفى المفترين أن فى قلوبهم إحساساً بالندم يحرقهم من الداخل جزاء ماقدموا .. وماأجرموا .

ويظل موسي عليه السلام فى وعينا .. بما يمليه علينا من دروس تصلح بها النفوس .

ومن هذه الدروس :

تحديد مصدر الخطأ .. ثم الاعتراف به .

ثم محاولة الخروج من شبكة الصياد .. حتى لانلدغ من جحر مرتين !

ثم ليكون ذلك كله استسلاماً لقضاء الله تعالى .. والذى يمن على عبده المتضعف بالنصر والتأييد .. كما أشارت الآية الكريمة فى أول سورة القصص :

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾ « ٥-٦ »

وبينما كان فرعون يتملق عواطف شعبه بالهدايا :

فقد جاء موسي قومه بالهداية سبيلاً إلى التمكين فى الأرض .. وإذلال الجلادين .. المفترين .. وقيل بعداً للقوم الظالمين .. والحمد لله رب العالمين .

من أقدار المصلحين

يقول الله عز وجل :

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسي إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ الآيات « ٢٠-٢٢ »

(خرج موسى من مصر إلى مدين : بغير زاد .. ولا ظهر .. وبينهما مسيرة ثمانية أيام .. ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر .. ومكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً . إلا بقل الأرض وورق الشجر .. ولما وصل مدين كانت خضرة البقل تتراءى من بطنه لشدة هزاله .. وإنه لمحتاج إلى شق تمرة)

وهكذا كان أصحاب الرسالات .. لابد لهم أن يركبوا الأهوال .. فى طريقهم إلى الله تعالى :

وصدق القائل :

إذا الفتى لم يركب الأهوالا

فأعطه المرآة والمكحالا

واسع له .. وعده عيالا

لقد صمم موسى عليه السلام أن يركب الأهوال فراراً بحياته من خطر محقق .

ذلك بأنهم الملأ .. أهل الحل والعقد .. القادرون على تنفيذ مخططاتهم بلا منازع .

وهم يأتمرون .. فى جو مشحون بالانتقام . كل واحد منهم : آمر .. مأمور .. فى وقت واحد : يتواصون جميعاً بقتله .

فلم يكن بد من أن يحمل عصاه ويرحل .. داعياً ربه عز وجل أن ينجيه من هؤلاء الظالمين .. وأن يهديه السبيل القاصد .. الواصل به إلى حيث الأمان والقرار .. فى مدين .

ولكن لماذا مدين بالذات .. وهذا واحد من تصرفاته الحكيمة .

(فقد قصد مدين بالذات .. لأنه وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة .. لأنهم من ولد « مدين » بن إبراهيم عليه السلام .. وهو من بنى إسرائيل)

ولم يكن من المصادفة أن يكون من دعائه :

(عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل)

فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام :

إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، وهكذا يفعل الخلف الصدق للسلف الصالح .

درس للدعاة

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما :

أنه كان قد بلغ من الضر أن اخضر بطنه من أكل البقل . وضعف حتى لصق بطنه بظهره .

ويا بأبى وأمى مالقى الأنبياء والصالحون . من الضيق والأهوال فى سجن الدنيا .

صونا لهم منها .. وإكراما من ربهم عنها .. رفعاً لدرجاتهم عنده .. واستهانة بها .. وإن ظنه الجاهل المغرور على غير ذلك .

وفى القصة ترغيب فى الخير .

وحث علي المعاونة على البر .. ويعث على بذل المعروف مع الجهد .

وهنا سؤال يطرح نفسه :

هنا فى سورة القصص قدم « جلا » وفى سورة « يس » أخره .. فما هو السر .

والجواب مبسطاً : فى سورة القصص .. قدم « رجل »

لأن الموقف يتطلب عـزم الرجـال الذين يقـضـون مع الرسل فى خندق واحد . مهما كان ثمن التضحية باهظاً .. ذلك بأنهم يركبون الأخطار .. وحيث يشتد الهول حتى يقال : لاخلاص .

وحتى يجئ الفرج حتى يقال : لاهلاك

وكأنما يقول لهم :

إنه رجل .. وأنتم رجال .. ومع ذلك .. فقد جاء من بعيد .. ودون أن ينتدبه أحد ليشهد بما لم تقروا به .. مع أنه لم يشهد ماتشهدون ولم يسمع من الرسل ماتسمعون .

وفى هذا من العتاب المر مافيه ومن معانى ذلك :

(أن الله عز وجل يصطفى من يشاء من عباده . وأنه سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته . وأنه إذا تعلقت إرادته بشئ .. هيأ له أسبابه بقدرته .. فأبرزه على أتقن تدبير)

ودرس للمربين

لقد أحس موسى عليه السلام بعد مانصح بالخروج .. أحس بالفارق الهائل بين إمكاناته وإمكانات الملأ .. وأدرك أنه لا نسبة هناك بينهما إطلاقاً .

فلم يشأ أن يواجه الموقف بنفسه .. وإلا فالنتيجة معروفة سلفا وهى : الهزيمة المنكرة .

ثم قرر أن يعتمد على ربه سبحانه .. والذى بدت تباشير هدايته عز وجل .. بأن هداه فعلاً إلي سواء السبيل حين قرر أن يتجه إلي مدين .. حصن الأمن .. ونقطة الانطلاق إلى أعلى .

وعندما يبذل المرء أقصى مايملك من جهد .. يجيئه الفرج تتويجاً لجهاده .. ولطفاً من الله تعالى بعباده .

وكم لله من لطف خفى

يدق خفاه عن فهم الذكى

وكم أمر تساء به صباحاً

فتأتيك المسرة بالعشى !

من تدبير الله .. لمن والاه

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ « ٢٣ »

تمهيد :

من ذكاء موسى عليه السلام أنه أدرك أنه (مما يناسب الغريب .. إذا جاء ديار قوم أن يقصد الماء .. لأنه مجتمع الناس .. وهنالك يعرفه من يصاحبه ويضيفه) [١]

جزى الله الشدائد كل خير

وفى وقت الظهيرة .. شاهد امرأتين تذودان غنمهما حول بئر استأثر به العصبية أولوا القوة : أمة من الناس .. جماعة متناصرة .. متعصبة .. مزهوة بقوتها .

مجتمع أنانى .. يتحكم فيه القوى .. بينما الضعيف هناك يندب حظه .

الرد الإلهى

وكان موسى عليه السلام رزقا ساقه الله تعالى إليهما .

ورغم هزاله .. وقسوة حاله وماكان يناوشه من خوف أن يلحق به رجال فرعون .. إلا أن مروءته وشهامته كانت أقوي من كل شئ .

كانت القوة المدخرة التى انبعثت من مرقدها فى هذا الوقت العصيب .

ولقد سألهما : ماخطبكما ؟

فكان الجواب .. بيان خطتهما اليومية فى السقى . وهى :

الانتظار إلى أن ينتهى الرجال .. ليسقيا بعد ذلك .

---

(١) التحرير والتنوير

وهذه الصعوبة المفروضة .. بسبب أن أباهما شيخ طاعنَ فى السن .. وماترتب على ذلك من قيامهما بعمله المنوط به أساساً .

يقول صاحب الكشاف :

روى أنه دفعهم عن الماء . حتى سقى لهما .. وإنما فعل ذلك : رغبة فى المعروف .. وإغاثة للملهوف .

والمعنى : أنه وصل إلى ذلك الماء . وقد ازدحمت عليه أمة من الناس . مختلفة متكاثفة العدد .

ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم .

فما أخطأت همته فى دين الله تلك الفرصة .. مع ماكان به من النصب .. وسقوط حق القدم والجوع .

ولكنه رحمهما فأغاثهما . وكفاهما أمر السقي فى مثل هذه الزحمة بقوة قلبه .

وقوة ساعده .. ومآآتاه الله من الفضل فى متانة الفطرة .. ومتانة الجبلة .

وقد عبر « بامرأتين » : أخذا من « المروءة » .

دل على ذلك فعلهما فى هذا الزحام الذى كان شدة تظهر المعدن الحقيقى للإنسان .

وكان من دقة تعبيره ماحكاه القرآن الكريم : ﴿ **ماخطبكما** ﴾

والسؤال عن الخطب إنما يوجه إلى المظلوم المضطهد .

الحكمة فى منطق المرأتين :

وإذ يبيح الإسلام الحديث مع الأجنبية .. فقد كان ذلك ضرورة تقدر بقدرها .. ولم يكن هناك خضوع بالقول .. ولا تحريض ولا إثارة .

وإنما هو المنطق المركز على الهدف .. بلا تزويق .[1]

(فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقى بأنفسهما وتنبيه على أن أباهما لايقدر على السقى لشيخوخته وكبره . واستعطاف الموسى فى إعانتهما)[2]

وكأنما تقولان له : إننا من النساء .. ولا أخ لنا .. وقد كان هذا العمل منوطاً بوالدنا .. لكنه صار اليوم :

شيخاً .. طاعنا فى السن .. فأخرجتنا الضرورة .. لننوب عنه .. وحين عملنا فإننا نحافظ قبل ذلك .. وفوق ذلك .. على شرفنا .. قبل غنيمنا .

إن البنت مسئولة أولاً عن نفسها .. وتتحمل لوحدث انحراف كل هذه المسئولية .. أوجدها .. لأنها قادرة على الاعتصام بعزتها .. وحريتها حتى لايطمع من فى قلبه مرض .

ونعوذ بالله من المرض .. ومن ا لغرض !

لقد كانتا تحبسان الغنم :

لأنه كان هناك من هو أقوى منهما قد يتمكنان من السقي .. بالإضافة إلى طبيعتهما الكارهة للمزاحمة على الماء .

ولئلا تختلط أغنامهما بغنم الآخرين .. وفوق هذا لئلا يكون اختلاط منهما بالرجال .

وقد رأى موسى عليه السلام ذلك .. فحرك فيه أريحيته وغيرته .. وعتابه لهذا المجتمع الأناني . عن طريق هذا الدرس العملى .. والذى كان صرخة فى وجوه قوم لايشعرون .

---

(١) قال أبو حيان (٢) «١١٣/٧»

عندما تفرض البنت احترامها على من حولها

يقول الله عز وجل :

﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما ...... الآية** ﴾ القصص « ٢٣ »

لقد كانت المرأتان تواجهان موقفا صعباً وكان من الممكن أن تكون هذه الصعوبة عذراً لهما .. لو أنهما تضعضعتا أمام الفتي القادر وحده على إنجاز مهمتهما .

ولكنهما لم تفعلا .. وبقيتا متسلحتين بعزة الإيمان .. إن إحداهما لم تبدأ الشاب بطلب المعونة والذى كان منهما فقط هو :

الاعتذار الضمنى .. بالإشارة المغنية عن العبارة .. فكانت هذه المبادرة وكانت هذه الأريحية من فتى يجلس تحت شجرة .. وعليه وعثاء السفر .. وبمقياس « الوجاهة » لم يكن يتوقع منه عون .

بل إنه هو المحتاج إلى العون .. بحكم مظهره الباعث على الإشفاق.

ولم يكن أحد يدرى أن وراء الأكمة أسداً على ماقيل :

ترى الرجل النحيل فتزدريه

وفى أعطافه أسد هصور !

مما يؤكد أننا نخطئ أحياناً عندما نجعل من المظاهر حكماً على الناس .. أولهم .. وحينما نجعل من القالب البلا على مافى القلب .

هذا القلب الذى قد يحفل بالقيم الأصيلة النبيلة .. والتى لاتظهر إلا فى المنعطفات الخطيرة .. وحين يشتد البلاء !

وقد فصل الرازى الموقف هنا بقوله :

والذود : الدفع والطرد . فقوله « تذودان » أى تحبسان . واختلفوا فى علة الحبس على وجوه .

أحدها : قال الزجاج : لأن على الماء من كان أقوى منهما . فلا يتمكنان من السقي .

وثانيها : كانتا تكرهان المزاحمة على الماء .

وثالثها : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم .

ورابعها : لئلا تختلطا بالرجال .

وإذن .. فنحن أمام نموذج فريد للمرأة المسلمة العاملة :

١- فتاتان فى سن محفوفة بالخطر تذودان غنمهما حتى لاتختلط بغنم الآخرين .. وقبل ذلك تذودان عن كرامتهما . حتى لاتخدش فى غمرة الزحام . ومايفرضه من ابتذال ومدافعة .

٢- والمرأة هنا تمارس العمل المنوط أساساً بوالدها الذى أقعده المشيب . وقيد حركته الكبر .. فأمسكت بعده بالزمام .

وإنها لتعمل لتحصيل رزقها ، والحفاظ عليه .

على شرط أن تصون كرامتها قبل ذلك وفوقه .. فلاتمتهنها مهما كانت الظروف قاسية . فالقاعدة : أن العمل منوط بالرجل .

ولابأس عند الضرورة أن تخرج المرأة من بيتها بحثاً عن رزقها . شريطة أن تبقى على فطرتها الشريفة العفيفة .

إن العمل فى ذاته قيمة إسلامية ، ولأنه كذلك فلابد أن يكون سبيله شريفاً والإسلام أحرص من المرأة ذاتها .. على كرامتها أن تداس فى مزدحم الأسواق .

وعلى طريقة الإسلام دائماً : فإن المبادئ أولاً .. والمبادئ أخيراً .. وتسقط الثروة والمنصب من اعتباره متى تعرضت المبادئ للخطر .

وحين يرفض الإسلام عمل المرأة فى ظرف ما .. فحرصاً منه على عفتها وعلي كرامتها . أى أنه يؤكد القاعدة ذاتها .

ذلك بأن البعد بالمرأة عن مواطن الريبة إنما يصدر أساساً من تكريمه لها . واعتزازه بها - حتى لاتزل قدم بعد ثبوتها .

ويظل الموقف معرضاً حافلاً بمختلف الدروس ، أولها مباشرة المرأة العمل .. العمل المنسجم مع أنوثتها .. ولا بأس فى الضرب فى الأرض .. والانتشار فيها .. ابتغاء فضل الله .

ثم إنه لاحرج على المرأة أن تظهر في مجامع الناس .. إذا كانت مستورة .. متحشمة بالحياء .. والتجمل ..

وإذ تجعل من الحياء ستراً لها .. فإنها تفرض على الرجال احترامها .. ومن ثم فلن يتحرشوا بها .

وأن الشيطان المريد .. يخنس من مثل هذا الجو .. فلايوسوس بشر .. مادام الحياء ناشراً ظله .. رافعاً رايته .

وقد يحدث اليوم من المشكلات مايأخذ بخناقنا .. ثم نحاول البكاء .. أو التباكى على ماحل بنا .

مع أننا نحن الذين حفرنا قبورنا بأيدينا .. حين أرخينا الحبال .. فى يد الغرائز .. التى لاترى .. ولاتسمع .

مع أن الذى حدث لم يكن وليد اليوم .. وإنما هو التساهل .. أو التجاهل .. والذى يؤكد أننا لم نؤكل اليوم .. وإنما أكلنا يوم أكل الثور الأبيض !

أما بعد :

فقد شع حياء المرأتين .. فأشاع جوا من الطهر لاوجود فيه للنفس الأمارة .. فتم الزواج على تقوى من الله ورضوان .

وأين منه تلك العلاقة الآثمة .. والتى بدأت بالكلمة المريضة .. والخضوع فى القول ؟!

روى الروائى الفرنسى لاكلو فى رواية « علاقات خطيرة » على لسان كونت عابث يركز سحره على سيدة فاضلة لإغوائها :

« نعم يلذ لى أن أرى هذه المرأة المتدينة تتورط دون أن تشعر فى طريق لارجعة منه تقودها فيه منحدراته وتضطرها لأن تتبعنى وحين تتبين حجم الخطر الذى يتهددها تتوقف برهة وتنظر حولها فلا تجد سبيلا للرجوع إلى الخلف .. وكل ماتستطيع أن تفعله هو أن تتباطأ فى خطواتها ثم تواصل الهبوط مغمضة العينين ، وكلما حاولت إيقاف تدهورها ورجعت للخلف ركضا وجدت مايشبه القدرة السحرية تشدها إلى نقطة أبعد مما كانت عليه حين حاولت الرجوع للخلف » !

وهى كلمة معبرة بحق عن الموقف الذى تجد فيه كل زوجة نفسها إذا بدأت طريق التنازلات وخطت خطوتها الأولى على هذا المنحدر ، ولاشك فى أنك قد فعلت الكثير .

حب العمل .. وليس الحب فى العمل

يقول عز وجل : ﴿ ووجد من دونهم امرأتين تذودان .... الآية ﴾ القصص «٢٣» .

لازال التعليق موصولا فيها هى ذى المرأة تعمل .. تعمل العمل المناسب .. ثم لاتزاحم الرجال .. والفتى المؤمن الغيور يضع كل إمكاناته فى خدمتها .. دون أن يطلب على ذلك أجراً .

ذلك مايقدمه الإسلام كنموذج تحتذى تستقر به الأسرة ويضاعف النتاج .. فى هذا الجو الطهور .. بعيداً عن الاختلاط ومايؤدى إليه من مشكلات ..

فماذا عند غيرنا

وفى بلاد فقد عمل المرأة شروطه .. فضاع الأطفال .. وإن ربت الأموال !؟

ماذا عن بلاد لاتدين بالإسلام .. وكيف أدى هجران الأم بيتها .. وصار الأب مشغولاً بهموم العيش معها ؟

(فى بحث أعدته مجلة « فرنسية » حول وجود المرأة إلى جانب الرجل فى العمل .. وهل يعرقل النتاج ؟

ولقد أثبت البحث : أنه كلما كانت هناك علاقة عاطفية وحب بين الرجل والمرأة .. كلما زاد « إنتاج » الطرفين . كما وكيفا .. ثم كان من نتيجة البحث أيضاً ماقاله أحد مديرى المصانع هناك : إن معظم الرجال لايجدون الراحة فى منازلهم .. وبالتالى : يبحثون عنها أول مايبحثون فى مجال عملهم .

ثم يؤكد أن هذه العلاقات لاتؤثر على العمل إطلاقاً .. بل إنها تساعد على التقدم ووفرة النتاج) .

وواضح من البحث أنه يتحدث عن بيئة أخرى .. تحررت من كل قيد .. إلى الحد الذى صار فيه البيت سجناً وصارت ربة البيت غريماً أو رقيباً مقيماً .. وعليه أن يفر منه إلى العمل .. فالخليلة هناك .. والتى يفر إليها من الحليلة .

إنه إذن الحب فى العمل والذى يشغل البال فلا يكون معه عمل ولاأمل.

أما فى الإسلام فإنه يرحب بالحب .. ولكنه حب العمل وليس الحب فى العمل !!

إن الحب هناك كما يزعمون قد يوفر نتاجاً متميزاً . ولكنه من الناحية النفسية والاجتماعية يجعل من المرأة كلأً مباحاً .

نساء مترنحات .. من جدار إلى جدار ومن خليل إلى خليل .. ثم ضياع الذرية ضياعاً لايجعل لهذا النتاج قيمة .

وإذا راق لبعض النقاد أن يحكموا « شباك التذاكر » فى تقدير الرواية المعروضة للناظرين .. بغض النظر عن هدفها الأخلاقى .. فإن بعض المفتونين بالحياة الغربية يقعون فى نفس الخطأ .. حين زعموا ذلك تقدماً .. وما هو إلا التقدم نحو الهاوية ؟!

لقد هجرت المرأة البيت هناك .. بينما أطفال عطاش إلى حنانها أن تضمهم إلى حضنها .. ليناموا علي دقات قلبها . ولكن الأم تنازلت عن قلبها .. عن حنانها .. ثم أضافته لحساب العشيق فى الديوان .

إنه الحب الحرام .. والذى قد يتطور ليصير عشقاً مفتوناً أو مجنوناً .

ولقد قرأنا من أخبار ذلك ماحدث فى اليابان أخيراً :

فقد هبت الحكومة اليابانية مذعورة من تعدد حالات قتل الأمهات أطفالهن الرضع .. والذى أوشك أن يكون ظاهرة .. مع ماتحفل به البيوت من منتجات المدنية ؟!

وعلى رغم مايقال : من أن فى كل بيت عربى رجلاً يابانياً أى : صناعة يابانية ..

على رغم هذا فإن المرأة اليابانية .. تقتل ولدها .. وبيدها ليخلو لها وجه عشيقها !!

وإذا كان العربى فى جاهليته كان يئد ابنته خشية العار .. أو الفقر .. فما هو عذر المرأة اليابانية .. وفى عصر التنوير !! وكيف تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً ؟!

إن الإسلام كما قلنا يدعو إلى حب العمل .. ومن توجيهات القرآن الكريم والسنة المطهرة مايؤكد هذا المعنى :

يقول عز وجل :

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ سورة الكهف « ٣٠ »

ويقول ﷺ :

(إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه)

ويستجيب المسلم .. وتستجيب المسلمة لهذا التوجيه الرشيد .. وفى العقل .. وفى القلب .. صورة رفيق العمر وشريك الحياة هناك فى البيت الآمن .. العامر بالزوج .. والأولاد .

ألا وإن إحساس الرجل بهذا الخط الدفاعى القوى من خلفه وكذلك تحس المرأة .. سوف يمنحه ثقة تنعكس على العمل وفرة وجودة.

وسوف يرتد إليه ذلك كله سعادة لايحسها إلا المؤمنون وكيف لا يستشعر السعادة وهو عائد إلى بيت عامر بزوجة : تسره إذا نظر . وتطيعه إذا أمر . وتحفظه فى نفسها وماله ؟!

الأمر الذى يفرض علينا أن نزداد اعتزازاً بهذا الدين الذى أكرمنا به .. وحتى لانستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وأجمل بما قيل بحق :

كم هى لطمة للخصوصية الحضارية الإسلامية التى جاء بها الرسول ﷺ فهل نتحول إلى مجتمع هجين مذبذب السلوك مهلهل الأنتماء . غريب الشكل ضعيف القومية ولئن كان قد اجتمع على مائدتنا ضيفان ثقيلان هذا من شيعتنا وهذا من عدونا تلك التقاليد الراكدة وهذه التقاليع الوافدة فإن الخلاص منهما ليس علينا بعزيز ، ونحن أمة سادت حضارتها فى المشارق والمغارب . وأثرت منها الحضارة العالمية . ومن ثم يبقى الأمل معقوداً على كل طبيب ماهر بأمراض الواقع الإسلامى وصالح المؤمنين بعد ذلك ظهير ، لكى يقدم لنا الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى . لا بل نحن معقود علينا الأمل فى أن نقدم جرعات شافية من الرشد الأخلاقى لاتباع الحضارة الغربية لاعادة التوازن النفسى لإنسان الغرب المتعطش إلى سلوكياتنا . لذا يجب ألا ينسى المسلمون . فالمسلمون هم موئل الإنسانية ومصدر الخيرية ، ومصدروها للبرية ، فقد أيقظوا التاريخ من سبات فسطعت كل جنباته .

مروءة من صنع الإيمان

يقول الله عز وجل :

﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ القصص « ٢٤ » .

لم يكن موسى عليه السلام يتغنى بعمله هذا أن يقبض الثمن .. وإنما هى « أريحته » الفطرية .. هى التى حملته أن ينجز هذا العمل الضخم .. ثم يعود إلى حيث كان .. يستظل بالشجرة .. التى بدا فى ظلها .. وللعين المجردة .. غريباً .. مرهقاً .. ينير مشهده الإشفاق بينما فى داخله همة دونها همة الملوك .

وآية هذه الأريحية .. وذلك الإخلاص .. هو تضرعه هذا الخاشع.. حين يسأل ربه سبحانه وحده :

يسأله مايقيم به أوده .. ويمسك عليه حياته .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾

ولقد اشتق المربون من ذلك درساً فى ضرورة التوكل على الله . فى كل أمر مهما كان ضئيلاً .

لأن موسى عليه السلام ما كان يطلب عندئذ إلا اللقمة .. حتى قال قائلهم :

إنى لأطلب من الله تعالى حتى « ملح العجين » !؟

وصدق القائل :

عزة المؤمن بترك الطمع فى الخلق . ووجود الثقة بالملك الحق .

والمؤمن : يأبى له إيمانه أن يرفع حاجته لغير ربه .

أو أن يصرف لما سواه قلبه .

ولذا قال بعضهم :

حرام على من وحد الله ربه

وأفرده .. أن يجتدى [1] أحداً رفداً [2]

وياصاحبى : قف لى مع الحق وقفة

أموت بها وجدا . وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد جهدها

فذا الملك : ملك لايباع ولايهدى

ومن حرره الله من رق الطمع . وأعزه بوجود الورع : فقد أجزل منته . وكمل عليه همته .

وقد أكمل الله لموسى عليه السلام همته .. وأجزله منته .. وذلك بعد أن أدى ماعليه من العمل .. وبدافع هذا العمل وهو : الإخلاص .

لقد توجه إلى الله عز وجل .. وذلك بعد أن قضى حاجة عياله فى شخص المرأتين .

من دلائل مروءته

وفى هذا الموقف دليل على مروءته :

ذلك بأن إيواءه إلى الظل دليل على أن الوقت كان حاراً .. بمعنى أن الظرف كان صعب .. وأداء الواجب مكلفاً .

لكن ذلك لم يمنعه من أن يسقى لهما .. كما هو دليل أيضاً على قوته .. التى استطاع بما بقى أن يزاحم العصبة أولى القوة من أهل مدين .

وبهذه القوة .. وتلك الأريحية .. استطاع أن ينتزع حق المرأة فى السقى .. هذا الحق الذى كاد ليضيع فى حمى هذا التنافس المحموم .

لقد كان للمجتمع دوره فى الوقوف إلى جانب المرأة حتى لاتكبو ..

---

(١) يطلب . (٢) الرفد : العطاء .

وقد مثل موسى هذا الدور حين سقى لهما : ﴿ **فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير** ﴾

كان موسى الفتى المؤمن قوياً قوة تحرسها مروءة من صنع الإيمان .. وهى وحدها التى دفعته إلى الوقوف إلى جانب المرأتين فى موقف حرج .. وفى بيئة تتدافع بالمناكب .. ولاتلقى بالا إلى « حق » المرأة فى أخذ نصيبها . أسوة بالرجل الذى يتحرك على الأرض وحده . ولقد كان الظاهر بمنطق البشر .. ومنطق الواقع أيضاً أن تمتد منه الآمال أفقياً وراء المرأتين بحثاً عن الخير المرتقب .. بعد الجميل الذى صنع .. بيد أن آماله قد ارتفعت رأسياً .. إلى أعلى تستنزل الخير من واهبه سبحانه وتعالى .. ويا له من فتى لايجعل من إيمانه أمانى يتغنى بها . ولاشهادة يباهى بها .. وانما كان إيمانه خدمة إجتماعية عاش بها فى ضمير أمته.

يقول صاحب التحرير والتنوير :

وقد أعقب إيواءه إلى الظل بمناجاته ربه إذ قال « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » لما استراح من مشقة المتح والسقى لماشية المرأتين والاقتحام بها فى عدد الرعاء العديد ، ووجد برد الظل تذكر بهذه النعمة نعماً سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم ، وتخليصه من تبعه قتل القبطى ، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمة عظيمة بعد أن قطع فيافى ومفازات ، تذكر جميع ذلك وهو فى نعمة برد الظل والراحة من التعب فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء وهى « إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » والفقير : المحتاج فقوله ﴿ **إنى لما أنزلت إلى من خير** ﴾ شكر على نعم سلفت .

وقوله ﴿ **إنى لما أنزلت إلى من خير** ﴾ ثناء على الله بأنه معطى الخير

والخير : مافيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة الذى قد يرى فى صورة مشقة فإن العبرة بالعواقب ، قال تعالى ﴿ **ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

الفأل الحسن

يقول عز وجل :

﴿ **فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير** ﴾ القصص «٢٤» .

تمهيد :

كان موسى عليه السلام .. وفى هذا الجو الخانق .. كان على غاية مايكون حسن ظن بالله عز وجل .

وبدا ذلك فيما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ **رب إنى لما أنزلت** ﴾

ذلك بأنه عبر عن الخير المأمول بالفعل الماضى « أنزلت » دليلاً على أن مايرجوه قد نزل فعلاً

كان واقعاً .. ولم يكن متوقعاً .. إنه الفأل الحسن يسرى فى دمه .. ثم يطفو على لسانه :

وهو درس للمؤمنين على مدار الزمان :

أن يكونوا بما عند الله تعالى أوثق بما فى أيديهم .. وأن يمارسوا حياتهم بقلب وسيع .. وآمال ممتدة .. عريضة .. ذاكرين مصلحة الكل .. بدل أن يعيشوا من جلودهم فى سجن ضيق .

وهذا أبو الدرداء رضى الله عنه :

لقد شوهد يغرس غرساً .. بينما شمس عمره إلى مغيب .. وسفينة حياته على وشك الرحيل .

فلما قيل له فى ذلك قال :

ماعلى !! :

ماعلى : أن آخذ ثوابها .. ويأخذ من بعدى ثمرها !!

ولعل ذلك التفسير أجدى فى التعامل مع الموقف من قول بعضهم : إنه قال « أنزلت » وحذف المفعول اختصاراً .. لأنه كان مرهقاً .

ونقول :

إن المقام هنا مقام ثقة بالله عز وجل .. والذى رأى من آيات رحمته تعالى مايطمعه فى المزيد .

والرجل الذى بلغ به الإرهاق مبلغه .. ثم سقى للمرأتين .. لايرهقه أن ينطق بحرف هو مفعول : أنزلت !!

سؤال

وهنا سؤال يطرحه الغيارى من علمائنا وهو :

كيف ساغ لوالد المرأتين - وهو نبى الله فى أرجح الأقوال . كيف رضى لابنتيه أن يسقى لهما رجل غريب ؟

ولقد أجاب صاحب الكشاف قائلاً :

الأمر فى نفسه غير محظور :

فالدين لا يأباه .. وأما من ناحية المروءة :

فإن الناس مختلفون فى ذلك .. والعادات فيه متباينة : وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم :

ومذهب البدو فيه .. غير مذهب أهل الحضر .. خصوصاً إذا كان الحال حال ضرورة) أ . هـ .

وعلى أى حال .. فقد جاء الفرج .. وكان لابد أن يجئ بعدما انسدت الفرج !!

فقد أوفد الشيخ إحدى ابنتيه رسولاً إلى الفتى الصالح .. مفتتحة بهذه السفارة الرشيدة .. قصة زواج مبارك .. تؤكد للقانطين : من الخائفين والخائفات على مستقبل بناتهم أن الأمر بيد الله أولاً وأخيراً . . وأن الفرج آت لاريب فيه .

وجاء الفرج :

لقد كانت المرأة عند حسن الظن بها : لقد سارت فى صحراء جرداء تعوى فيها الرياح .. ومع ضعف الوالد .. وغياب الرقيب كان ضميرها صاحياً صحوة لايخبو بريقها .. تحت أى ظرف من الظروف .

ولم يكن أجمل من الفتاة فى عفتها إلا موسى فى مروءته وإخلاصه .. وبهما معاً تبرز صورة الفتى المؤمن والفتاة المؤمنة .. وعلى مثالهما تقوم الأسرة وطيدة الدعائم .. عصية على الفناء .

تلتقى الفتاة بربيبها فى العفة .. وصنوها فى المروءة .. فإذا هما محضن جيل جديد يجئ صورة مشرقة تعمر بها الحياة .

ولقد كان من تدبير الحق تعالى أن يلفت أنظارنا على هذه المثل العليا ليفتح الشباب أبصارهم عليها ثم يستحثوا الخطى إليها .

ومهما كانت قسوة الأيام .. فإن الحر يظل وفياً لمبدئه حتى يلتقى فى النهاية بجائزته .. وبعدما ظن الناس به الظنون .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

بكرت تلوم على زمان أجحفار ∴ فصدفت عنها ..

علها أن تصدفا لاتكثرى عتباً لدهرك إنه ∴ ماإن يطالب بالوفاء ولا الصفا

ماضرنى أن كنت فيه خاملاً ∴ فالبدر بدر : إن بدا أو إن خفا

الله يعلم أننى ذو همة ∴ تأبى الدنا ياعفة وتطرف .

لم لاأصون عن الورى ديباجتى ∴ وأريهمو عز الملوك ..

وأشرفا أأريهمو أنى الفقير إليهمو ∴ وجميعهم لايستطيع تصرفا ؟!

أم كيف أسأل رزقه من خلقه ∴ هذا لعمرى إن فعلت هو الجفا

شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله ∴ عجز أقام بحامليه على الشفا

فاستر رزق الله الذى إحسانه ∴ عم البرية : منة وتلطفاً

والجأ إليه تجده فيما يرتجى ∴ لاتعد عن أبوابه متحرفاً .

وجاء الفرج

يقول الله عز وجل :

﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ﴾

تمهيد :

فى غياب الحياء : تختلط الأوراق .. وتتداخل القيم فتضيع الحدود .. وتختفى المعالم .. فيصبح كل شئ جائزاً وكل حرم مستباحاً .

وإذا لم تستح فاصنع ماشئت !

أما إذا وجد الحياء .. أما إذا كان طبعاً .. لاتطبعاً .. فما أسعد الحياة والأحياء به .

وإذ ينفلت العيار مع التسيب .. حين ينطلق الناس فى غيابه الحياء عابثين .. فإن الحياء يكلف أصحابه مالايكاد يطاق .. وإذن فما كان أصعب أمر التكليف من والد لابنته أن تذهب فى مهمة استدعاء فتى لضيافته .

إنه فتى أجنبى

ثم هى مكلفة أن تكلمه .. وأن تماشيه .. ثم تظل مع هذا فى قمتها العالية حياء .. وعفة .. وتقى !

وهذا هو الذى حدث بالفعل .. يقول الزمخشرى :

روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما : حفل .. بطان .. قال لهما :

ماأعجبكما ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا .

فقال لإحداهما : اذهبى .. فادعيه لى .. فتبعها موسى .. فألزقت الريح ثوبها بجسدها .. فوصفته فقال لها :

امشى خلفى .. وانعتى لى الطريق

وجـاء الفـرج

يقول صاحب الظلال واصفاً تلك اللحظات البهيجة :

يافرج الله .. ويا قربه .. ويا لنداه !

إنها دعة الشيخ الكبير .. استجابة من السماء .. لدعوة موسى الفقير :

دعوة للإيواء . والكرامة . والجزاء على الإحسان .. دعوة تحملها « إحداهما » .. وقد جاءته تمشى على استحياء .

مشية الفتاة الطاهرة .. الفاضلة .. العفيفة .. النظيفة .. حين تلقى الرجال .. على استحياء .

فى غير ماتبذل ولاتبجح ولاتبرج . ولاإغواء جاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصر لفظ وأخصره وأدله يحكيه القرآن بقوله :

﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ﴾

فمع الحياء .. الإبانة .. والدقة .. والوضوح .. لا التلجلج والتعثر . والربكة

وذلك كذلك .. من إيحاء الفطرة النظيفة . السليمة . المستقيمة :

فالفتاة القويمة تستحى بفطرتها عند لقاء الرجا .. والحديث معهم ولكنها لثقتها بطهارتها .. واستقامتها .. لاتضطرب الاضطراب الذى يطمع . ويغرى . ويهيج .

إنما تتحدث فى وضوح بالقدر المطلوب ولاتزيد .

أجل .. إنها لاتكتفى بما لديها من حياء .. وإنما تطلب المزيد مبالغة « استحياء »

ثم إنها متمكنة من هذا الحياء راسخة فيه كما يفيد حرف الجر : « على »

إنه حياء فطرى نابع من الداخل .. عمقته فى قلبها حكمة أبيها الشيخ الذى ربى فأحسن التربية .. إلى الحد الذى وثق بها فأرسلها فى هذه المهمة الصعبة .

إنه عياء غير مستورد !

ليس من ذلك النوع العصرى .. والذى تستدعيه الفتاة الماكرة فقط عند الحاجة .. ثم يصير من بعد ذلك سراباً .

ثم إنها دعوة من أبيها .. محددة المعالم .. من أبيها .. لا منها .. فليست طرفاً فى القضية .. وإذن .. فلا مجال عندئذ لخواطر السوء .. بعدما أغلقت الفتاة المؤمنة باستحيائها الأبواب التى تهب منها رياح السموم !

ثم يقف حرف التوكيد « إن » على رأس الدعوة الصريحة المحددة .. ليذهب ببقية من الشك الذى قد يستغله الوسواس الخناس .

تقف شاهد صدق على أن الدعوة بريئة من كل ريب .. منزهة من كل هاجس دخيل .. وبيل .

وأين هذا مما قد يحدث اليوم :

إن كثيراً من الآباء .. ومن الأمهات .. يرمون الشباك .. صادرين عن رغبة فى صيد ثمين .

وقد يمهدون لذلك بالموائد الحافلة والهدايا القيمة .. إلى جانب الكلام المعسول .. والوعد المبذول .

وإن موقف الوالد .. وابنته هنا .. هو ذلك النموذج هو ذلك الاعتزاز بالنفس .. الذى يفرض على الآباء الماكرين .. أن يتطامنوا إلى مالهم من موطن العزة التى قد يكسب الإنسان بها أضعاف مايكسب بانكساره وهوانه .

أما بعد :

فقد أطلت « زبيدة » زوج « الرشيد » وابنة عمه .. أطلت يوماً من شرفة قصر الخلافة المنيف على نهر الفرات .. فوجدت حشداً هائلاً من الناس يتحلقون رجلاً .. فلما سألت عنه قيل لها :

إنه ابن المبارك .. فقالت

هذا هو العز .. لا عزنا الذى تساق إليه الناس بالسياط !!

أريحية المؤمن

يقول الله عزوجل:

﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ﴾

وإن تعجب فتعجب من موقف البنت هنا . والتى جاءته تمشى غير متبخذة .. ولامتثنية .. ولامظهرة زينة : تستر وجهها بثوبها .

إن تعجب من عزة الإيمان هذه .. فعجب موقف الأب الذى ربى فأحسن التربية .. والذى ظهر من أريحيته مايلى :

أولاً : متابعة لبناته بل ومساءلة لهما إن تأخرتا عن الموعد أو تقدمتا .

ومعنى ذلك :

أنه .. وإن ضعفت يداه عن الإمساك بحكمة البعير .. فقد بقيت لديه الحكمة .. التى يصرف بها شئون البيت !

ثانياً : سرعة استدعاء الضيف .. إحساساً منه بقسوة حاله .. وخير البر عاجله

ثالثاً : مباسطته فى الحديث .. سؤالاً عن حاله .. إيناساً للضيف .. الذى يحس أنه واحد من أفراد البيت .

رابعاً : بدأ بتأمينه من الخوف أولاً .. وذلكم هو الأمن النفسى : لقد علم المضيف الشيخ أنه :

لاعيشة لخائف .. وأن أهم ماتعطيه للإنسان هو : الأمان .

ولذلك قدمه فى الذكر : لاتخف .. يعنى : لامكان للخوف هنا فإن فرعون لاسلطان له على ماهنا .

لقد نجاك الله من ظلمه .. فطب نفساً .. وقر عيناً !

وخامساً : وضع الشيخ هنا مبدأ تكريم المواهب وتقديرها حتى إذا رد إليها اعتبارها كانت قوة تضاف إلى الأمة .

وما أكثر المواهب المطمورة تحت تراب الغفلة .. والتسيب .. هذه المواهب الغائبة عن ساحة المجتمع .. بل المغيبة .. والتى تتقاضى رموز الأمة أن يكتشفوها .. ليضيفوها إلى رصيد الأمة فى زمان يتنافس فيها المتنافسون .. حتى يحققوا بمواهبهم مايؤملون .

سادساً : ومع أنه قد وهن العظم منه .. واشتعل الرأس شيباً .. إلا أن الله عز وجل يقيمه حجة على بعض الآباء الذين أهملوا الإشراف على بناتهم .. حتى افلت منهم الزمام .. فعقوا بناتهم قبل أن يعقوهم .. وتلك آثاره تدل عليه :

فهذه هى ابنته .. بل وقبل ذلك حجته .. مالكة للحياء - كما يقول المفسرون - ماسكة بزمامه لايفلت منها .

ثم لاتساوم على شرفها .. ولو بملء الأرض ذهباً .. فلا ثرثرة .. مبتذلة .

ولاخضوع .. يغرى القلوب المريضة .. وذلك كله نضج نفس مطمئنة .. لاريب فيها .. ولاريبة !

ولايمكن لهذه العزة الأبية أن تنشأ من فراغ :

بل إن من ورائها أباً صاحياً يقوم .. ويتابع .. وكذلك الأم الرءوم .. لها دورها .. والذى ذهبوا فى تأكيد وأهمية دورها أن قالوا :

إذا قرأت الأم كتاباً .. فكأنما قرأه الزوج .. والأولاد جميعاً .. بمعنى .

أن ماتستفيده من الكتاب سيكون دليلها فى التعامل مع كل من فى البيت .. متأثرة بما قرأت : فكأن الأسرة التى نالت من بركتها .. قرأت معها هذا الكتاب !

وتبقى المسئولية الكبرى منوطة بالرجل الذى تمكنه رجولته من التقويم .

إن كل إنسان يستطيع أن يحمل سيفاً .. لكن البشر : ليسوا سواء :

فقد يحمل الجبان سيفين .. ومع ذلك يكون فى بيته ألف سيف ..

ولكن هذه السيوف كلها .. لن تجعل منه شجاعاً ! وبنفس القوة نقول :

إن أخذ الفتاة بسلائق العزة لن يتم بالادعاء .. وإنما بالقدوة والانتماء.

ولن يغرس العزة فى قلب البنت إلا الآباء والأعزاء !

وقد كان شيخ مدين ذلك الأب الذى أحسن التربية .. فحصد من جنس مازرع !

ونتساءل : هل كان ولابد من جزاء على ماقدم موسى من عطاء ؟

والجواب ماقرره المفسرون :

أولاً : (إن مكافأة النبلاء .. من شيم الكرماء ولاغضاضة فى قبولها)

وثانياً : يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى . على سبيل البر والمعروف ابتداء لا على سبيل الإجزاء .

ويؤيد هذا ماروى :

أنه لما قدم إليه الطعام . امتنع وقال : إنا أهل بيت لانبيع ديننا بملء الأرض ذهباً . ولانأخذ على المعروف أجراً .

فقال له شعيب .

هذه عادتنا .. مع كل من ينزل بنا

ومهما يكن من أمر

فإن قوته وأمانته لم تكشف عن كل أبعاد شخصيته المترامية المتراحبة .. وإنما كانت خصبة بقيم أخرى .. وكان لابد من فترة حضانة .. نكتشف بها من عناصر الخاطب مايعيننا على اتخاذ القرار لنضمن لكريمتنا داراً ذات معين وقرار.

شجاعة من صنع الإيمان

يقول الله عز وجل :

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾

مما أدرك الناس من حكم الأولين :

افعل جميلاً .. وارم به فى البحر !

وهم يريدون بذلك أمرين :

الأول : تدريب الفرد على فعل الجميل .. وتنمية الحس الاجتماعى فى كيانه .

الثانى : أن يكون ذلك بدافع من الإخلاص . الذى لايريد صاحبه من الناس جزاء ولاشكوراً .

فإذا أنجز الحر المؤمن ماتمليه عليه حريته .. ومايأمره به إيمانه .. فقد أدى واجبه .. ويبقى بعد ذلك أن يستقبل جزاءه على جميل ماصنع .. فى اللحظة الذى استعلى فيها على جواذب النفس .. إيثارا لما عند الله عز وجل . وهكذا كان موسى عليه السلام .

لقد سقى للمرأتين .. ثم استدبرهما .. وكأنه لم يفعل شيئاً .. متجهاً بكيانه كله إلى الله عز وجل .. وفى هذه اللحظة .. يجيئه الفرج

ولم يقف الأمر عند حد الاستدعاء .. وإنما ها هى ذى « إحداهما » تقترح على أبيها أن يستأجره .. فهو خير مايؤتمن على أسرار البيوت .. ومايعتمد عليه في إنجاز ماوكل إليه بما يملك من الأمانة .. ومن القوة معا : أمانة .. تعنى حكمة الإدارة ..

وعافية تعنى قوة الإرادة

ولقد كنا نتوقع بحكم وضعنا البشرى أن يقال : (قالت ذات الحياء : ياأبت .. ولكن النص الكريم يجئ هكذا : « فجاءته إحداهما »)

وإذن .. فليس هناك ترتيب .. ولاتربص .. ولااتفاق مسبق بين

ماجاءت به وبين الفتى عبر الطريق .. وإنما صدر الاقتراح من «إحداهما» سواء أكانت هى الجائية به .. أم من بقيت فى البيت .

فالموقف كله .. كله يدور على محاور الإخلاص .. والعفة .. والإباء يفرض علينا احترام هذا البيت :

فالموقف كله .. كله يدور على محاور الإخلاص .. والعفة .. والإباء يفرض علينا احترام هذا البيت :

نحب الشيخ .. وهو الشجرة .. هو الأصل .. وبالتالى نحب كل أغصانها اليانعات .

وحين تختار الفتاة من بين حروف النداء « يا » وحين تؤثر لفظ أبت على غيرها .

حين تفعل ذلك فإنها بنداء البعيد .. كأنما تقول لأبيها إن فكرة استئجاره مجرد اقتراح صادر من ابنة لك ليس لها فى هذا المعترك حضور ضاغط أو رأى متحكم إنها بعيدة عن الساحة ليس القرار قرارها وإنما الرأى ماترى أنت ياأبت .. وإلا فأنا لست غريماً ولاقسيماً .. وإنما وهو اقتراح .. والقضية كلها فى يدك .. وإذن فهى فى يد أمينة !!

مغزى الاقتراح

ويعنى اقتراح استئجاره

أن يكفينا مئونة التبذل .. ويعفينا من مرارة السقى .. ومافيه من معاناة .

وإذا كانت هناك من النساء من تطلب العمل .. لاحباً فيه .. وإنما يكون متنفساً من ضيق البيت !! فإن الفتاة هنا تستشعر خطورة مهمة المرأة تحت سقف البيت .

البيت الذى هو جنتها التى هى أوسع من الدنيا .

ولم ينشأ هذا الاقتراح من فراغ .. وإنما عللته بما شاهدته على الطبيعة هى وأختها :

لقد تأكدنا من حيائه .. وعفته فى نظره وفى مقاله وفى فعاله وسائر أحواله :

يجمع ذلك كله قولها :

(إن خير من استأجرت القوى الأمين)

قال أبو حيان : وقولها : قول حكيم جامع : لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة فى القائم بأمر .. فقد تم المقصود .

باختصار :

لقد كان له من كفايته وديانته مايرغب فى عشرته مما يجعله مؤهلاً ليكون الزوج المثالى .. بما يملك من مواهب يقود بها السفن إلى بر الأمان .

ولاحظ من حكمتها وعفتها :

لاحظ أنها حين اقترحت على أبيها استئجاره لم تفصح عن رغبتها الفطرية .. الشرعية .

ولكنها فقط تشهد بما علمت .

بل بما شاهدت من قوته وأمانته .. لم يستلفت نظرها لون شعره .. ولاجمال عينيه .. ولاأناقة هيئته .

بيد أنها نفذت ببصيرتها إلى جوهره النفيس .. والمخبوء خلف هذا الساتر الترابى .. فرأت ببصيرتها من قوته وأمانته مايفرض عليها احترامه .

ثم إنها لما ذكرت الأمانة والقوة .. نوهت بهما من حيث هما من القيم النبية . ولم تضفها إلى موسى بالذات .. تجرداً وعزة .

وهكذا وبهذا الاقتراح يدخل موسى عليه السلام من حياته الميمونة عصراً جديداً .. يؤكد فيه أن الجميل .. لايضيع .. لأن الله تعالى « لايضيع أجر من أحسن عملا :

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه ∴ فلا يضيع جميل أينما وضعا

إن الجميل .. وإن خال الزمان به ∴ فليس يحصده إلا الذى زرعا

بدوية .. لكنها حضرية !

يقول الله عز وجل :

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾

ويبدو إعجاب الفتاة بموسى .. ومن وراء السطور .. وفى لحن قولها !

ولابأس على الفتاة أن تتحرك رغبتها باحثة عن نصفها الآخر .. مادامت إرادتها تتحرك فى الاتجاه الصحيح .. ولقد مضت هنا فى الاتجاه الصحيح :

يدل على ذلك نوعية مالفت نظرها من أمر هذا الفتى وهو : قوته .. وأمانته

إنها القوة : وهى فضيلة القالب

ثم الأمانة : وهى فضيلة القلب

وحقاً .. إن اختيار المرء قطعة من عقله .. ولقد دل منطقها على ذكائها .. وأكبر من ذلك دل على : زكائها على خلقها .

ولعمرى : إن اجتماع الكفاية والأمانة مما تم به سعادة البيوت .

فإذا كان من وراء ذلك .. أريحية .. جبلية تدفع إلى العمل .. فذلك هو مستراد الأمل .

ألا إن من وراء الأكمة أسدا .. جسداً .. وقلباً .

ولاحظ من عزتها أنها لم تقل لموسى عليه السلام : ليجزيك أجر أمانتك .. وقوتك .. فالحديث خال من كل مايبتذل .. ويناقض الحياء المغرور فى قلبها .

لكنها تصرح بأمانته وكفايته .. بين يدى والدها حيث لامداهنة هناك ولاابتذال .

وتأملوا منطق الفتاة البدوية .. إنها بمنطقها الحصيف .. تقدم لسدنة المدنية اليوم .. إن البدو يعلم الحضر :

إن الأمانة هى روح المجتمع .. وإذا ضيعت الأمانة .. فانتظروا الساعة .. وضياعها .. يوم أن يوكل الأمر إلى من لايناسبه من الأقرباء والمحاسيب .

وفى أطواء كلامها تتسمع .. وكأنك تسمع فعلاً :

إن هذا الفتى .. بقيمه أمانة .. ينبغى ألا تضيع .. وهو فارس الاحلام الحقيقى .. لا ماتتصوره الفتاة الحضرية اليوم .. والذى لايملك رياشاً تخفى من تحتها أنانية تجعل البيت جحيماً لايطاق .

أما عندما تتوافر ركيزتا السعادة : الكفاية .. والأمن فكل شئ إذن .. حضر !!

وهو نداء من الفتاة البدوية إلى سدنة المدينة .. وكأنما تقول لهم .. (استأجره ياأبت فهو قوى أمين .. وإن خير من استأجر مستأجر القوى الأمين .. وبذلك استوقف غاية مقتضى الحال . فكانت بالغة حد الاعجاز)

يقول المفسرون :

(وهذا كلام حكيم . جامع . لايزاد عليه . لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة فى القائم بأمرك ..فقد فرغ بالك .

وقد استغنت بإرسال هذا الكلام . الذى ساقته سياق المثل والحكمة عن أن تقول : (فإنه قوى أمين)

قال أحمد :

وهو أيضاً أجمل فى مدح النساء للرجال من المدح الخاص . وأبقى للحشمة

وخصوصاً : إذا فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه .

وماأحسن ماأخذ الفاروق رضى الله تعالى عنه هذا المعنى فقال :

أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى .. ففى مضمون هذه الشكاية :

سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين : فكان قوياً أميناً

(وهذا الإبهام من أبنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه قد سلكته « زليخا » مع يوسف عليه السلام)

ولكن : شتان مابين الحياء المجبول .. والمستعمل : ليس التكحل فى العينين كالكحل !

حيث قالت « زليخا » لسيدها :

« ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم »

وهى تعنى بقولها هذا :

ماجزاء يوسف بما أرادنى من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليماً .

ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخضر .. فلم تنطق بالعصمة منسوباً إليها الفتاه وكأنها تريد أن تقول لزوجها :

إن هذا الحياء الذى يمنعها من النطق باللفظ الفاحش يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأولى والأحرى .

ولكن حياء ابنة شعيب لم يكن مجلوباً .. وإنما هو جزء من جبلتها .. لاتستورده من الأسواق .

وهو الفارق الهائل بين البداوة والحضارة .. البداوة التى تساوى الحياء .. والحضارة التى تنطلق متجردة منه .. راغبة عنه متجهة لقيمة الأمانة .. مضموماً إليها القوة .

القوة التى لن تنفعنا فضائل العالم إذا حرمنا منها إنتابها نتحدى.

وفى غياب التحدى .. يكون التردى

والحمد لله على نعمة الأمن .. فى ظلال الإسلام :

وإذا كانت الأسرة « المتحضرة » عندما يأتى المساء .. وفى ساعة محددة .. يتوقف دولاب العمل .. ثم يتزينون ويذهبون إلي المراقص .

فإننا - بحمد الله - نتوضأ .. ثم نذهب إلى المساجد .. ضاربين بالدنيا وجوه من اتخذوها إلها !!

وإنها لمتعة فريدة : لو علموها .. لجالدونا عليها بالسيوف !!

حضرية لكنها بدوية

يقول الله عز وجل :

﴿ قالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾

حددت ابنة شعيب عليه السلام مواصفات : فارس الأحلام .. « القوى الأمين »

وفى المجتمع الزراعى .. تكون القوة أدخل فى الأهمية .. ولذلك قدمها فى الذكر على الأمانة .. على أهميتهما معا .

ومع هذا تبقى الأمانة عصب الأمة .. وعلى كل المستويات .

يقول المفسرون :

(الأمين على العرض .. أمين على ماسواه .. ورب الأسرة إن كان أميناً مع زوجه .. فهو بذلك يقود سفينته إلى بر الأمان .

إنه إن كره زوجه .. لم يظلمها .. وإن أحبها .. أكرمها .

إنه أمين على جسد امرأته .. أن لا يضربها ضرباً مبرحاً .. أمين على دينها .. فلن يأمرها بما يغضب الله .. أمين على رحمها .. فلن يأمرها بقطع رحمها .. أمين على مالها .. فلايبدده .. بل ينميه .. أمين على سرها فإن كان فيها مايكره .. لايحدث به أحداً .. أمين على أولادها .. فلن يقصر فى رعايتهم والبر بهم .. إنها ستعيش فى واحة من السعادة الوارفة .. الظليلة .. الدانية القطوف)

فى ظل وريف .. وخلق عفيف .. ورجل شريف .

وإذ تبين الأشياء بأضرارها .. فإننا نذكر الصفحة المقابلة .. صفحة المرأة المتحضرة .. وكيف تبدو بسلوكها متأخرة .. مقارنة بأختها البدوية الساذجة ؟!

وأنا هنا لاأنقل من بطون الكتب .. وإنما هو الواقع الماثل .. ومن خلال ممارسات خاطئة .. فى بيوت .. كانت بالتمزق أو هى من بيت العنكبوت .

تنزل فى ضيافتها نستقبل بآذاننا .. بل بأذهاننا مافيها من مشكلات مشعلات نارها التى تكشف زيف العلاقة فى ظل حضارة المادة .. والتى لاتصمد أمام هذا الصفاء وهذا النقاء .. كما تبين لنا من خلال موقف ابنة شعيب عليه السلام .

يقول واحد من الفتيان :

كنت أطوف بالبيت الحرام .. فرأيتها .. ومن خلال حوار خاطف .. فى ظل البيت العتيق .. فرضت الحقيقة نفسها وهي :

أنا لاتصلح إلا لى .. كما وأنى لاأصلح إلا لها ؟ فما العمل ؟ والحال أنى متزوج .. ولى أولاد .. وهى كذلك متزوجة .. ولها أولاد ؟!!

وأبادر فأقول للطائفين المحرمين : لستما من عباد الله المخلصين .. لأن الشيطان صدق عليكما ظنه فاتبعتماه .. وفى أقدس مكان .

وإذا توعد الإسلام من يخطب على خطبة أخيه .. وقبل أن يتزوجا . فما هو الحال بمن يفسدها .. بل يدمر أسرة قائمة بأكملها ؟!

وإذ تسألان عن حل المشكلة .. فإن المشكلة هو أنتما .. والحل هو :

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .. تريح الدنيا منكما !! إلا أن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما !

إنه لمنسجم مع نفسه حقاً ذلك الذى يجلس مع أليفه على حافة النهر يتناجيان .

ولابأس عليه مع هذه الخلوة أن يقول أحدهما متبجحاً : نغضى حياء .. ونغضى عفة وتقى ؟؟

أما من يباشر شعائر الحج فعلاً .. وفى هذا الجو المفعم بالجلال .. ومع ذلك فمازالت فى نفسه بقية من التمرد على شعائر الله .. فذلك مالايحسن السكوت عليه .

وقد كان العقاب أليماً فى حس الزوج الحاج .. والذى عاد ليلاً فى بشائر عقابه !!

فهاهى ذى زوجته تقول فيما يشبه الدعابة الثقيلة : لنا زميل فى العمل دمه خفيف ؟!!

وقامت قيامة البيت .. بل قامت القيامة .. مع بوادر العقاب الإلهى .. والعدل الإلهى الذى فرض على هذا الزوج أن يدفع الثمن غالياً .. ومن جنس ماأجرم فى حق الله تعالى .

ذلك بأن متعة الزوج أن تكون زوجته له وحده ..

لأن الزواج : تزاوج : مودة تجمع كل طرف برفيق دربه ومنطق الزوجة هنا شاهد بأن رجلاً آخر .. لايشاركه هذا الود فحسب .. ولكنه يوشك أن يستأثر به .. دونه وتلك هى الفاجعة الموجعة !

ولهذا المعنى شاهد من القرآن الكريم :

وفى قوله تعالي :

﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ ص/٥٢

فقد قدم سبحانه « قاصرات الطرف » على الجمال فى قوله تعالى : ﴿ عين ﴾

وهو ماذكرته أيضاً الآية الثامنة والأربعون من سورة الصافات .

﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾

والنعمة هنا هى :

أنهن عندهم : ملك أيديهم

ثم إنهم ينظرون إليهم .. وحدهم

وفى النهاية : لانحب أن نبكى على الأطلال .. وإنما أن نستوعب الدرس وهو :

أن الشيطان المريد ماض فى تنفيذ خطة إغوائنا . وإنه ليناوشنا حتى ونحن فى الحرم .

وواجبنا أن نحذره على أنفسنا .. وأن نتخذه عدواً

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾

من قواعد الاختيار

يقول عز وجل :

﴿ قالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾

عندما تختزل المسافات لاسيما بين الرجل والمرأة .. وحين تتقارب الأنفاس بين الناس .. حضر الوسواس الخناس !

وهذا هو الواقع فى دول لاتدين بالإسلام .. والتى تبحث عن مفاتيح « بوابات » السعادة عن طريق إنشاء مدارس منظمة مهمتها البحث عن سعادة الأسرة .. وضرورة إنشاء عاطفة المودة بين الزوجين .. ولو كان ذلك عن طريق تناول أطعمة معينة .. فى مقدمتها اللحوم ؟!

وقد زعموا أن اللحوم تعمل على تقوية الإشارات العصبية المؤثرة على مخ الإنسان ؟!

ولكن الواقع الماثل يكذب كل هذه المحاولات التى خلفت من ورائها أسراً منحلة .. لأنها أسست على شفا جرف هار !

وبينما الأسرة فى الإسلام قائمة على أصولها من المودة والرحمة.. إذا بعشاق الجمال مايزالون يبحثون عن السعادة وعبثاً يحاولون :

ذلك بأن زواج الجميلة الغبية ..من الذكى القبيح .. قد ينتج ذرية غبية ذميمة !!

وهذا مادعا واحد من فلاسفتهم هناك ليقول :

لابد فى الاختيار من مراعاة « جوهر الروح » والذى سوف يروض عضلات الجسد المفتونة .. فتنصاع الضياع الخراف الضالة .. التى تأوى أخيراً إلى حظيرة العدالة والرحمة الإنسانية .

وقد سرت إلينا عدوى « عشق الجمال » المادى .. وتجاهل مافى الروح والقلب من بهاء فقال قائلنا :

إن الطبيعة هى المقياس للجمال .. وهى المثال للحسن :

وإذا كان هناك للعبث دول وإعلام .. تحاول أن تجعل من العبث شرعة ومنهاجاً .. فإن الحق لن ينقلب باطلاً مهما قل متبعوه .. وإن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر تابعوه !

والحق هنا ما أشارت إليه الفتاة من ثروة الشاب الحقيقية والمتمثلة فى القوة والأمانة .. مضافاً إليهما حياؤها المتمكن .. والذى منعها من أن تنفرد بقرار الزواج مع هذا الفتى القوى الأمين .. كما أنها تحدثت عنه من منطق الإباء كعامل يكدح فى الأرض .. لا كزوج المستقبل :

ذلك بأن الزوج رزق :

ومادام رزقاً .. فهو مثل أجلك : يطلبك .. بل يلح فى طلبك وإذن فلندخر حياءنا .. ليظل مانعاً من الإسفاف فى طلب رزق هو آت إليك لاريب .. مادام هو نصيبك المقسوم .

وإذا كان هناك من الشباب من يشكو من ضياع الأسر .. وتفكك أوصالها .. ثم وقبل ذلك .. من صعوبة الحصول على شريك الحياة الملائم .. فإن الشباب يتحمل كفلا من هذا العقاب أو هذا العذاب لأنه لم يضرب فى الأرض .. ولم يقدم الخير كما قدمه موسى عليه السلام للمرأتين .. فكان ماكان .

وإذا كان بيننا اليوم من تنادى بحقها فى الاختيار تصريحاً أو تلميحاً فعليها أن تتثبت أولا أنها أهل لذلك كأخت لها من قبل والتى كانت تحمل نفساً حرة .. وضميراً صاحياً .. فكانت صادقة النظرة .. دقيقة الموازنة .. ثم وصلت فى النهاية إلى سلامة الاختيار .

لقد كسبت الفتاة المؤمنة بفضل عزتها وحيائها .. رجلاً .. قوياً أميناً صار من بعد رسولاً نبياً .

وفى استطاعة كل فتاة اليوم أن تبدأ الرحلة بإيمانها وحيائها .. تفادى بهما الحياة وتراوحها .. والنتيجة بعد ذلك على الله .. واختياره عز وجل أكمل من اختيارنا .

بل هما صديقان للعائلة .. وليس واحداً .. وماقد يترتب على ذلك من تضارب المشارب والمآرب .. يسفر في النهاية عن مأس تصطلى بنارها « عائلة » غير « عاقلة »

وتبقى « صورة الخاطب » في يد الفتاة .. التي تبحث عن « الجمال » لا عن الكمال .

إنها تبحث عن « عاقد الحاجبين على جبهة كالجبين » ؟!

وإذن فهي الفيصل في القضية .. التي لم يتيسر لها قاض نزيه يستبطن الخاطب .. ليجئ حكمه صائباً .. قبل أن يصبح « فرعون » ماظنته موسى !!

أما هنا .. فقد تم الزواج بعد أن بحثت القضية من كل الأطراف المعنية بسعادة الأسرة المراد إنشاؤها .

فقد تحرك « الفتى موسى » ثم جلس في الموقع الذى يراه فيه الناس .. ثم تحرك فأعان المرأتين .

ثم كان بينه وبينهما ذلك الحوار الخاطف .. والذى كشف عن معدنه .. ومعدنهما الأصيل .

وبعدما صحب الفتاة إلى أبيها .. ثم مثل بين يديه .. تكونت لديه فكرة واضحة عن البيت .. وقيمه .. والفتاة .. وخلقها .

وأثناء ذلك .. كان هناك إعجاب لدى الفتاة التى رأت وسمعت وقرأت الواقع الماثل .. ولما انتهى الأمر إلى الشيخ وسمع ملخص حياة موسى عرفه فوجد فيه ضالته المنشودة وهديته إلى إحدى ابنتيه .. ولاحظ أنه لم يفرضها .. وإنما قال له :

(إني أريد) مجرد عرض .. لتكون الكلمة الأخيرة للفتى نفسه .

كما وأنه لم يفرضها .. فقد رأت .. من يريده زوجاً لها ولم يأتها من « وادى عبقر »

وتقول بعض الروايات :

إن التى اختارها هى « صفورة » وهى الصغرى كما جاء فى رواية أبى ذر رضي الله عنه عن النبى ﷺ .

وإنما اختارها دون أختها . لأنها هى التى عرفها وخبر أخلاقها عن طريقين : باستحيائها .. ثم بكلامها

فكان ذلك ترجيحاً لها عنده [1] .

وهكذا .. وبلا حساسية .. يوافق الوالد على زواج الصغرى قبل الكبرى .

إن فى ذلك لعبرة لآباء يرفضون تزويج بناتهن إلا بالترتيب !! مع أن الزواج رزق .. ورزق مقسوم ومعلوم .. ومهما تكن شطارة الشطار فلن يأخذ أحد نصيب أحد ؟!

وزمان .. يوم أن كان هناك إيمان .. كان الرجل يطلق امرأته ثم وفى اليوم التالى يتزوج أختها وبلا حساسية وقد يكون ذلك الزواج سبيلاً إلى زواج بقية الصالحات .. بعدما كان من سرور .. وحركة فى البيت تتحرك به البحيرة الراكدة .. التى تستلفت نظر الخطاب !

ولكن ناساً من الناس اليوم هم بيننا أحياء .. ولكن قلوبهم ميتة لاتحس !

بينما الآيات من بين أيديهم ومن خلفهم تذكرهم بما هم عنه غافلون وأن الله تعالى يدبر لهم لكنهم لايشعرون .. لقد بدأت القصة هنا بالمشاجرة .. ثم انتهت بالمصاهرة ! ثم كانت الرسالة .

وقل لهؤلاء الغافلين :

كم من مصائب . نظنها طاحنة .. وفى رحمها نعم كامنة !

---

(١) راجع التحرير والتنوير .

من أراد الوصول .. تمسك بالأصول

يقول الله عز وجل :

﴿ قال إنى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج .... الآية ﴾ سورة القصص « ٢٧ » .

ولازال التعليق موصولا إذ يقول صاحب الظلال :

وهكذا : في بساطة وصراحة .. عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد

ولعله كان يشعر أنها محددة . وهى التى وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى .

عرضها .. فى غير تحرج ولا التواء .. فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه .. يعرض بناء أسرة وإقامة بيت .

وليس فى هذا مايخجل .. ولا مايدعوا إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد .. والتصنع والتكلف مما يشاهد فى البيئة التى تنحرف عن سواء الفطرة .

وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة . تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقة ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته .

وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذى يتقدم . أو لا يليق أن يجئ العرض من الجانب الذى فيه المرأة . ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة . إن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ، وينكشفون بعضهم لبعض . فى غير ماخطبة ولا نية نكاح .

فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع . وتقوم الحوائل المتكلفة . وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة .

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجل على عهد رسول الله ﷺ .

كان يتم هذا فى صراحة ونظافة . وأدب جميل . لا تخدش معه كرامة . ولا حياء .

عرض عمر رضي الله عنه ابنته حفصة على أبي بكر فسكت .. وعلى عثمان فاعتذر .. فلما أخبر النبى ﷺ بهذا طيب خاطره .. عسى أن يجعل الله لها نصيباً فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها ﷺ .. وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامى يبنى بيوته ويقيم كيانه فى غير ما تلعثم . ولاتصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير صاحب موسى .

لقد اختزل الفتى موسى بخلقه وعمله مسافة البعد بينه وبين والد الفتاة .. والذى اختزل الباقى بعرضه إحدى ابنتيه وكانا معاً .. نجمين متألقين .. يرسلان أشعتهما .. لتنير للحيارى لايوم سبيل الوصول باتباع الأصول !

والتى يتحول بها الإنسان الجائع .. المجهد .. من شجرة فى صحراء جرداء .. إلى شجرة فى بستان ريان !

ولقد كان العرض سخياً من الوالد الأبى لقد انطلق من قاعدة تقول :

إن المهر ليس ثمناً للاستمتاع .. وإلا فإن الاستمتاع مشترك بين الزوجين .

وإنما هو رمز لتكريم المرأة .. وأنها جوهرة لها قيمتها .. وليست سائمة سائبة !!

ومن أجل ذلك يكفى أن تكون خدمة الفتى رمزاً لذلك التكريم وهذا الاعتزاز .

وإذا كان هناك من يغتر بمفاتن الدنيا ومظاهرها .. وإذا كان هناك من أبنائها خمص .. لايأكلون .. شعث .. لايتطيبون .. صوام .. لايفطرون .

فإن العاقل من يمد بحكمته جسراً بين هذين التصورين الجانحين فلا يفرط .. ولايفرّط .

إنه يرى المتعة قليلة .. وإن كانت طويلة :

لانقطاعها بالموت .. وانتهائها إلى حسرة الموت .. ويكفى من القوت .. من المهر .. مايبلغك الحل !

فأين من هذه الحكمة مايتدافع من أجله الناس .. حين يقترضون مالاً .. لايحققون به كمالاً .. وإنما هى « الكماليات » ليبهروا بها رعاع الناس ؟!!

إنه التقليد .. الذى به يمشون به وراء الناس أذيالاً : ومن تعود المشى وراء الناس .. فلن يمشى وراءه أحد !

أما بعد :

فقد كان الذى تم هو « القران » وليس مجرد الاقتران : قران .. مهدت له الفتاة التى كانت طرفاً فيه بإشارتها الموحية الذكية !

فهى وإن لم تملك الكلمة الأخيرة .. عنصر فعال .. تم به مراد الله عز وجل .

وتبقى الكلمة الأخيرة للولى الذى يحسم القضية .. لقد خلق الرجل من التراب .. مباشرة .. أما حواء .. فقد خلقت من الرجل .

ولذلك .. كان قرارها عاطفياً . يميل مع الريح حيث تميل .. وإذا كان لها من خيار فى قضية هى طرفها الثانى .. فإن الذى يضع النهاية إنما هو الولى .

من هو الشيخ

طال الجدال بين المفسرين حول شخصية « الشيخ الكبير » وهل هو شعيب أم لا ؟

ولكن ذلك لاينسينا حقيقة أن المقصود من قصص القرآن هو :

إبراز العبرة .. ثم ليكون من بعدها الاعتبار والازدجار .

فالآيات الكريمة تضرب على الوتر الحساس . مركزة على صفات الشيخ وتصرفه فى هذا الموقف الحرج .

والصفة أدل على الموصوف .. من الاسم الذى لايدل على صفة صاحبه .

حتى لاتقصم الظهور.. بالمهور!

يقول الله عز وجل :

﴿ قال إنى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وماأريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾

تمهيد :

سمعت أذناى . ورأت عيناى والد الفتاة يقول محتداً :

بنت عمها اليتيمة .. يمهرها فتاها ألوفاً .. وابنتى .. وأنا على قيد الحياة يمهرها فتاها مئات ؟!

وقلت له :

تأمل قصة الشيخ مع موسى :

لقد ترك للخاطب نفسه أن يحدد المهر والذى قال : (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على)

لم يكن المهر عند والدة الفتاة يمثل مشكلة .. ولذلك ترك حسن القول فيه إلى الفتى نفسه .. والذى كان مهره الحقيقى هو .. قوته .. وأمانته .

قوته التى يضرب بها الأرض .. فتنبت الخضر .. ثم أمانته التى تضبط هذه القوة لتظل دائماً لحساب الخير لنفسه وللغير .

إن المهر الحقيقى ليس هو مايدفع قبل الزواج .. مما يتنافس فيه الناس اليوم لكن المهر الحقيقى هو مايدفع بعد الزواج .. حسن معاشرة .. وطيب مؤانسة .. تماماً كالحب الحقيقى الذى ينبت .. ثم يتنامى .. ولكن بعد الزواج ؟!

وكما يقول الرافعى :

(إن المهر .. مهماً كان عالياً غالياً .. فلن يحقق السعادة والقرار .. ذلك بأن غاية الزواج هى .. السكن .. والمودة .. والرحمة .. ولاتتحقق هذه المثل العليا بملء الأرض ذهباً .. وإنما تتحقق بالمبادئ والأخلاق)

ألا وإن واقع أمتنا ليؤكد أن غلاء المهور مما يقصم الظهور .. ظهور الأمة نفسها .

ففي دولة خليجية أدى غلاء المهور إلى وجود مليونين من العوانس وإن شئت قلت مليوني قنبلة موقوتة .. يمكن أن تنفجر في أي وقت ليصير غزل الأسرة من بعد قوة أنكاثا

يقول الفقهاء هنا :

يجوز أن يكون المهر عملاً .. ويقول المفسرون :

(والتعبير بالحجج من الحج الذى هو : القصد .. تفاؤلاً .. بأنها تكون من طيبها .. بمتابعة أمر الله وسعة رزقه وإفاضة نعمه .. ودفع نقمه .. أهلا لأن تقصد) .

إن أهم عنصر فى قضية الزواج هو شخصية الخاطب نفسه ومتى استعداده لإسعاد أهله .

وقد بدا ذلك حاضراً في شخصية موسى عليه السلام .. والذى وجد فيه الشيخ ضالته المنشودة .. ثم بدأ يعد نفسه للتغيير الجديد فى حياته بقوله له مطمئنا .

(لاتخف نجوت من القوم الظالمين)

لم يقل له : ولاتحزن .. لأن الحزن مشكلة الماضي .. أما الخوف .. فهو مشكلة القلق من المستقبل .. ولما كان المستقبل هو قضية موسى فقد أراد الشيخ أن يثبت فؤاده ليستعد لاقتحام هذا المستقبل بقلب جسور .

إننا كبشر ضعاف .. لاندرك العواقب .. وإنما يدركها من لامعقب لحكمه سبحانه وتعالى .

وإذن .. فلنفعل كل مافى وسعنا .. وعلى الله قصد السبيل .. هو سبحانه يختار لنا .. واختياره عز وجل أوفق من اختيارنا .

ولا بأس على والد الفتاة أن يعلن .. وبصراحة عن رغبته فى موسى عليه السلام زوجاً لابنته :

أجل .. لابأس .. مادام الوالد مشغولاً حقاً بمستقبل ابنته .. باحثاً حقاً عن سعادتها .

ولكن .. يبدو أن بعض الآباء اليوم مشغولون .. ولكن بأنفسهم .. وبكل مايرضى غرورهم .. متجاهلين مستقبل بناتهم .. وكيف ؟

حين يطلبـون المهور التى تقصم الظهور ؟! فى محاولة لتحطيم الرقم القياسى فى زمان المساومات والمراهنات !!

يفعلون ذلك . ثم لايجدون الشجاعة الأدبية .. ليختاروا لبناتهم ماهو أغلى من المال

إن الرجـولة المزيفـة .. والتنافس الكاذب يزين لهم رد الفتى الناجح الصالح .. وسوف ينال بهذا الرفض كفلاً من مشكلات سوف ترد إليه مستقبلاً .. لأنه أرضى غروره .. ولم يعمل من أجل سعادة ابنته !

إن الطبيعة من حولنا تعلمنا فى صمتها فن الحياة :

فشجرة التفاح تختار من التربة ماينـاسبها .. وإلى جوارها النخلة الفرعاء : تختار أيضاً من التربة ماينـاسبها .. ولكننا نحن البشر ذاهلون عن آيات الله تعالى فى الكون .

ذاهلون .. فلانختار لبناتنا « التربة » التى يترعرعن فى جوها .

والحياة أيضاً من حولنا تناشدنا أن نكون لبناتنا : أن نختار لهن الفتى الصالح الناجح . والنتيجة بعد ذلك على الله تعالى .

وإنصافاً للشيخ هنا نقول :

إن قراره بعرض ابنته على موسى كان مدروساً : فبالإضافة إلى شهادة ابنتيه .. علم أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب .

لقد سمع عنه .. ثم سمع بعد ذلك منه .. فلما تبين له أنه من حزب الله اقترب منه . . وتم الزواج فى هدوء .

إن المهر الكبير .. والحفل الكبير .. ربما كان ضرباً من التدليس والنفاق .. ينكشف بعد قليل عن عروس اليوم .. التى سوف تكون مطلقة الغد !!

أما بعد

فقد سئل أعرابي عن « خاطب » فقال :

هل هو موسر من خلق ودين

فلما قالوا : نعم .. قال : فزوجوه

مسك الختام

يقول الله عز وجل :

﴿ قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وماأريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين .. قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على مانقول وكيل ﴾ القصص « ٢٧ - ٢٨ »

بعض الآباء .. لاينتظرون حتى يدق الباب ذو خلق ودين .. ولكنهم يبادرون فيعرضون بناتهم على الفتى الأمين .. الصالح .. انطلاقاً من حرصهم على مستقبل فلذات أكبادهم .

على أن هذه المبادرة لاتنشأ من فراغ .. بمعنى أنها لاتفرض الفتى فرضاً .. وإنما كان للبنت رأى .. وإن لم يكن صريحاً .. فقد كان تلميحاً !

ولأن أمر المرأة دائر على محور الستر والحياء .. فإن الوالد - ولأنه رجل - هو الذى يتحمل قسوة الموقف .. فيعرض هو .. لتنشأ من بعد أسرة قوية بهذا الود الجامع بين كفتين .. وبهذه الذرية التى تترعرع فى جو من هذه العواطف الصادقة .. لايكون للمشكلات ظل كثيب على مثل هذه البيوت .. البيوت التى بنيت على الحب .. وعلى المروءة معا .

ونشيدها اليوم .. ياأخ الروح .. رجاء لاتمت .. أو فخذ روحى معك!

ليتنى أحمل عن قلبك .. مايوجع قلبك

لو ترى : كم رفع القلب إلى الله .. صلاة القلب .. كى يشفى بروح منه قلبك !

وهذا الحب .. بل إنه الود .. الذى يجعل من البيت جنة ذات قرار ومعين .. وأين منه مايلاقيه العشاق من تمزق .. يعلن عن نفسه هكذا .. :

نفسى موزعة معذبة ∴ بحنينها .. بغموض لهفتها
شوق إلى المجهول يدفعها ∴ متفحماً جدران عزتها
شوق إلى مالست أفهمه ∴ يدعو بها فى صمت وحدتها
ماذا أحس ؟! شعور تائهة ∴ عن نفسها .. تشقى بحيرتها !

ألا بعـدا لهـذه النفـوس عن السعـادة التى ينشـدون .. لأنهم عن صراطها ناكبون .

ولاحظ من صلاح الأب هنا

أنه وظفه .. ثم زوجه

ثم كان ذلك التجاوب بين الفتى والشيخ فى قوله :

(ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قـضيت فلا عـدوان على والله على مانقول وكيل)

أنه العهد المقدس .. والذى لايخرج أحدنا من عهدته :

فـلا عـدوان على .. بزيادة فى مـدة العمل .. ولاأذى .. ولا مـراء .. يذهب ببركة البيوت .. مستعيناً بالله عز وجل :

فلا صلاح إلا بمشيئة الله تعالي .

يتم ذلك كله فى إطار من التوكل على الله تعالى .. إنه التـوكل .. وليس هو « التواكل » الذى يفضى إلى النزاع فى قابل الأيام .

وإذا كان فى قصتنا هذه سعيد .. وأسعد .. فإن الأسعد بهذا الوفاق هو الزوجة نفسها والتى كان والدها « صالحاً » ومن صلاحه أنه لم يضع للزواج شروطاً مسبقة .. تصير ألغاماً عبر الطريق .

وإنما كـان هينا .. ليناً .. سوف يرتد إلى ابنتـه وإليـه أيضـاً هدوء نفس وصلاح بال .

ولقد كان فى زهده أغنى من كل أب عنيـد .. شـديد المراس .. لأنه كان يعلم أن « المهر » وإن كان مليوناً .. فلن يكون أغلى من راحة ابنته !!

ولقـد دلت البـداية على النهـاية .. فكانت « الرسـالة » خـاتمة المطاف .. فى إشارة معبرة .. تهز وجدان المتنافسين في الدنيا .. مؤكدة لهم .

أن أقلهن مهـوراً أكـثـرهن بـركة .. وأن علينا أن نبحث لبناتنا وأن نوازن ثم نختار واختيار المرء قطعة من عقله .

وهكذا يفعل الوالد أجمل مايليق به .. ويفعل الفتى أيضاً .. أجمل مايليق به .. ثم كانا بهذا الجمال علي موعد مع الخير الوفير .. والفضل الكبير .

أما بعد :

فقد قال المفسرون :

(والعبرة من سياقة هذا الجزء من القصة المفتتح بقوله تعالى ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **والله على مانقول وكيل** ﴾

العبرة هى :

ماتضمنته من فضائل الأعمال ومناقب أهل الكمال .. وكيف هيأ الله تعالى موسى لتلقى الرسالة .. بأن قلبه فى أطوار الفضائل .

وأعظمها : معاشرة رسول من رسل الله . ومصاهرته وماتضمنه ذلك من خصال .

المروءة . والفتوة التى استكنت فى نفسه من فعل المعروف وإغاثة الملهوف .

والرأفة بالضعيف . ثم الزهد والقناعة وشكر ربه على ماأسدى إليه . ومن العفاف والرغبة فى معاشرة الصالحين والعلم لهم .. والوفاء بالعهد .

حتى كان خاتمة ذلك تشريفه بالرسالة .

لقد كانت خصال الخير فاذة فيه بين قومه . وإن هى إلا بوارق لانهطال سحاب الوحى عليه والله أعلم حيث يجعل رسالته .. وليتأس المسلمون بالأسوة الحسنة من أخلاق أهل النبوة والصلاح .

وهكذا تكون العاقبة للتقوى للمتقين .. أما عشاق الدنيا فأمرهم على ماقيل :

لم يبق شئ من الدنيا بأيدينا ∴ إلا بقية دمع فى مآقينا

الأقلون عددا والأكثرون مددا



الأقلون عددا الأكثرون مددا

يقول ﷺ :

(ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله . والكاتب : يريد الأداء والناكح : الذى يريد العفاف)[1]

تمهيد

يأمرنا ﷺ فيما رواه « أبوهريرة » رضى الله عنه :

(احرص على ما ينفعك ..)

وفى نفس الوقت .. وبنفس القوة .. يحرضنا # على التنافس فيما يعود علينا بالنفع الجزيل فى الدنيا .. وفى الآخرة ..

وإذا اتسعت دائرة الفضائل فى دنيا الناس .. فلاشك أن هناك ما هو فاضل .. وما هو أفضل :

ونتساءل هنا :

ما هو الأهم .. ما هو الأفضل من سلوكنا الذى يجب أن نحرص عليه ؟

وربما قيل فى الإجابه عن ذلك :

إن أفضل ما نختار هو : ما كانت حاجتنا إليه ملحه .

ولكن الحكماء يقولون :

(إن هذا المقياس خاطئ)

لأننا أحوج مانكون إلى شئوننا العضوية المادية .. ومابهذه الضرورات يتفاضل البشر :

وإنما التفاضل حقا : بالكمالات البشرية : فمن استمسك بها .. فأولئك تحروا رشدا .

---

(١) رواه الترمزى وقال : حديث حسن صحيح .

ومن هؤلاء الذين استمسكوا بها : المجاهد .. لا من أجل السمعه .. ولا ليرى مكانه .. وإنما هو الذى يجود بحياته حتى يظل لواء الحق مرفوعا .. والعبد الذى يسعى ليسترد حريته التى ولد بها .. حتى يكون بها إنسانا ..

ثم الراغب فى النكاح .. يطلب به العفاف

انهم الفرسان الثلاثة .. القادرون دون سواهم على تحمل تبعاتها

﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ [1]

وأولئكم الذين كان الله تعالى فى عونهم . ومهما تقاصرت إمكاناتهم فإن الله عز وجل معهم بالعون والتأييد :

وهذا العون بنص الحديث الشريف « حق على الله »

ومن معانى ذلك :

أن ذلك العون أمر مفروغ منه .. أوجبه الله تعالى على نفسه .. ومع أنه سبانه وتعالى مع كل الخلق : بالقهر والعلم .. لكنه مع هؤلاء الثلاثة : بالنصر .. والتأييد . ودون هؤلاء جميعا .. يتفرد طالب العفاف !

لقد ذكره الحديث الشريف .. دون صاحبيه بأنه : « الذى يريد العفاف » فقد عبر عنه باسم الموصول الأصلى : « الذى »

إن الذى يريد الجهاد .. أو يريد تحرير نفسه .. مسئول عن حياته التى يجود بها على أرض المعركة : مخلصا أو مرائيا .. والمكاتب : مسئول أيضا عن نفسه التى إن أخلص لها تحرر وإلا بقى عبدا ..

أما الذى يطلب العفاف .. فإنه أثقلهم حملا :

فأنه مسئول عن نفسه .. وعن طرف آخر هو الذى يطلبه .. ولا يطلبه بالمهر ثمنا للاستمتاع .. فهما فى الاستمتاع سواء :

---

(١) سورة البقرة : ٤٥

ولكنه يطلب العفاف :

١ - أن يعفه : أن يحصنه من بأس الشهوة .

٢ - وأن يمتعه

٣ - لا .. بل يقصر متعتة عليه .. وحده ..

٤ - بل إنه مطالب بأن يهيئه ليرتفع إلى مستوى هذه المتعه .. فلا يهجم على الفريسة بالقوة !!

ويعنى ذلك كله : أن الذى يطلب العفاف .. يكلف نفسه الصعود الى قمه صعبه المرتقى .

إنه يخوص إلى العفاف معارك .. يتجاوز بها : الجمال .. والمال .. والحسب والنسب .. ليصل فى النهايه إلى العفاف ..

نقول : يخوص إلى العفاف « نفس العفاف » وليس فقط إلى العفيفة .. إنه يطلبها بوصفها .. لا باسمها .. حتى إذا تبدل الحال .. حتى إذا غاض الجمال .. والصحة .. بقى العفاف يمسك بناء الأسرة الباقية .. مابقى هذا العفاف ..

ذلك .. بأن الجمال .. وأخواته : نعمة .. ولكن أهم ما فى النعمة : استمرارها .. وبقاؤها .. وإنما تستمر بالعفاف .. قاسما مشتركا بين الإثنين .. بين أزواج صالحين .. وزوجات صالحات :

انهم القلة بين « كثرة »

كثرة : لايعلمون

ولايشكرون

ولايعقلون ..

أما أهل العفاف فهم الأقلون عددا .. لكنهم الأكثرون مددا !!

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها
المثل الأعلى للزوجة المسلمة

في الوقت الحاضر الذى يتنافس فيه المتنافسون من طلاب الدنيا.. لتسجيل ذكرياتهم طلباً للشهرة والثراء على حساب آلام الناس .. الذين يبذلون أموالهم وطاقاتهم في مطالعة مايرضى حب الاستطلاع فى كيانهم .. في هذا الوقت .. نطالع من سيرة سلفنا الصالح مايزرى بكل هذا الركام .. مما يحملنا مسئولية أكثر عن البحث عنه .. وتأسيس حياتنا على القيم المشتقة منه .. ليذهب الزبد جفاء ..ثم يبقى ماينفع الناس شاهد صدق على فعالية الإسلام ودوره فى صياغة الحياة من جديد .. على أساس وطيد . وفى قصة « أسماء » رضى الله عنها شاهد على مانقول .

أخرج البخارى عن أسماء رضي الله عنها قالت :

تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ولاشئ . غير فرسه وناضحه - أى بعيره - فكنت أعلف فرسه وأسوسه . وأدق النوى لبعيره . وأستقى الماء . وأخرز غربه « أى أخيط دلوه الكبير » وأعجن .

وكنت أنقل النوى على رأسى ثلثى فرسخ - مسافة ساعة تقريباً- حتى أرسل إلى أبو بكر بخادم يكفينى سياسة الفرس . فكأنما أعتقنى .

ورآها رسول الله ﷺ ذات مرة وهى تحمل النوى . فأحب أن يركبها معه على بعيره . فرغبت فى ذلك ولكنها تذكرت غيرة زوجها الزبير . فأعرضت واعتذرت . ثم حدثت بعد ذلك زوجها . حين قدم إليها فقال لها : والله لحملك النوى على رأسك أهون على من ركوبك مع رسول الله ﷺ قال ذلك لفرط غيرته . ولم ينكر عليه رسول الله وهو المأمون الحبيب . ذو الخلق العظيم .

إن أسماء رضي الله عنها تسجل صفحة مضيئة من حياتها .. تسجلها حاكية .. لاباكية ولاشاكية .. إنها تعلم الأجيال من جلائل الأعمال مايصير بين أيديهم علامات على الطريق تهديهم .. وبخاصة هؤلاء القادمين على بناء عش الزوجية . ليتم مشروع الزواج بنجاح .

من هى العروس :

إنها أسماء بنت أبى بكر .. ثانى اثنين فى الإسلام .. وثانى اثنين إذ هما فى الغار .. وثانى اثنين فى العريش يوم بدر .

والرجل الذى أقسم « على » رضي الله عنه : أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء [1] .

أساس الاختيار:

وكان المتوقع بلغة العصر أن يأتى فارس الأحلام بخاتم سليمان !

وأن يتسابق المتملقون بالهدايا يقدمونها للعروس .. تعمر جوانب البيت .. وبالتهانى تجرى بها أنهار الصحف .. ولكن الفتى المسلم البسيط .. يتقدم إلى أبى بكر بما يملك من القيم الإنسانية .. ومايعتز به من صلاحية التفوق والامتياز .. وكأنما هو ذلك الشاعر القائل :

لاأملك النجوم ياحبيبتى .. ولاالقمر

ولابساط الريح يخطف البصر

وبيتنا الصغير لايطاول الشجر

لكنه مزين بأجمل الصور

والحب فيه يملأ الحجر

وليس لى وسامة الفتى الأغر

لكننى كسائر البشر

سأضرب الثرى .. فينبت الخضر !

وياله من مهر غال .. وياله من صيد ثمين يسوقه القدر إلى بيت على شاكلته فى العفة والعزة والود وإذن فقد أتى من يرتضى دينه وخلقه .. فزوجه أبو بكر كريمته : فلم تك تصلح إلا له .. ولم يك يصلح إلا لها !

---

(١) رواه الطبرانى .

ماذا فى بيت الزوجية؟

وتستقبل الزوجة الجديدة حياتها فى صحراء .. صافية السماء.. وفى بيت كل مافيه

فرس هو رمز الجهاد .. والاستشهاد .. والاستقلال .. والإباء .. وجمل هو عدة البيت فى تدبير شئونه وإنجاز خدماته يغنى البيت عن سؤال الناس وليس للزوج فى الأرض كلها .. من مال .. ولاشئ .. سواهما .

وهى سعيدة أن تبدأ رحلة العمر بهذا الصاحب .. تغالب به بأساء الحياة وضراءها .. وإذا كان فقيراً فالله تعالى يقول ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾

ولئن خلا البيت من هدايا الاتباع .. فقد عطرته سكينة الرضا .. ولئن شاءت الأقدار أن يخلو من أدوات الزينة .. والرفاهية فقد كان العوض إعتزاز الزوجة بصاحبها .. وتقدير الزوج لها .

وماأجملها من أبيات أنشدتها زميلتها فى الكفاح .. تدل بها على ساكنات الحضر

لنا قبلة الشمس عند الصباح ∴ وللحضرية القبلة الثانية

ونحن الأزاهير بين الرياض ∴ وهن الأزاهير فى آنية

يد يحبها الله ورسوله :

وبدأت العروس رحلة الكفاح منذ اليوم الأول بهذه المهمة المزدوجة :

أ- فهى داخل البيت : تعلف الفرس وتسوسه . وتدق النوى . وتخيط الدلاء .. وتعجن .. وتدبر شئون البيت .

ب- ثم هى تخرج من البيت .. تستقى الماء .. أى تطلبه .. ثم تحمل النوى .. تحمله على رأسها .. ولاتدفعه أمامها .. أو تجره خلفها بما استحدثت المدنية من وسائل النقل الميسور .. وتحمله على مسافة ساعة .. فى صحراء .. باهظة التكاليف .

دور أسرة الزوجة :

لم تذهب أسماء إلى أبيها شاكية أو باكية .. وإنما بقيت تغالب الظروف بيد معروقة .. يحبها الله ورسوله .

وخف والد الزوجة « أبو بكر » فأهدى إلى ابنته خادماً يعفيها من سياسة الفرس .. لأنه الأصعب فهو الأنسب بالرجال .. وبقي دورها القاصى منوطاً بها !

هكذا تتعاون الأسرتان في السراء والضراء .. فتسد بهذا التعاون .. أبواب الفتنة النائمة .. والتى ستظل بهذا التعاون نائمة !

وفاء .. لا يطلب الثمن

وعندما أشفق ﷺ يوماً .. رغبت فى الركوب معه .. تحت وطأة الحمل الثقيل .. ولأنه الصادق الأمين .

فلما ذكرت خلق زوجها وغيرته .. صرفت النظر عن الفكرة .. وهذا هو الكمال الحامل للزوجة أن يظل ولاؤها لزوجها .. حين تعرف مايحبه ومايكرهه .. ثم يراها دائماً على مستوى رغبته .

ثم كان الجمال بعد الكمال .. لما اعتذرت إليه ﷺ بلطف .. فقبل اعتذارها

فلما فرضت عليها الأمانة مسئوليتها قالت لزوجها ماحدث .. فوافقها على موقفها .. وأكد طبيعة الغيرة مهما كانت الظروف .. ولم يقم الرسول الدنيا ولم يقعدها .. ولم ينكر عليه خلقاً لابد منه لتبقى الزوجية قائمة ودائمة .

وبعـــد :

فما أجمل أن تقول أسماء : « حتى أرسل أبو بكر » أبو بكر هكذا بلا ألقاب .. إنها العلاقة التى تقرب الصاحب من صاحبه حتى يسمع وجيب قلبه .. ويحس بمشاعره .. وليعتبر عشاق الألقاب الذين يشكلون بألقابهم حواجز .. تنأى بهم بعيداً عن أصحابهم فلا يكون اقتراب .. وإنما هو الاغتراب .. المفرق بين الصحاب .

الفصل الثالث

حتى يظل البيت مستقراً مستمراً

معنى قوامة الرجال

يقولون : إن من الناس شديد الحساسية : يتأثربما حوله .. بسرعة .. وعمق وقد تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمراً مضى .. فيضحك .. أو يبكى .. كما لو كان الأمر يقع الآن فعلاً .

وأصحاب هذا المزاج يغلب عليهم ضعف الإرادة . لأنهم لايملكون الاطمئنان الداخلى أمام المؤثرات المتقلبة المتعاقبة .. وهذا المزاج الحاد والذاكرة المتوقدة لاترشح صاحبها ليكون مديراً أو مدبراً لأمر .. وإنما يصلح أن يكون ملاحظاً أو منفذاً .

وإذا كان في الرجال من يتحكم فيهم ذلك المزاج .. فإنه طبيعة المرأة الغالبة والتى تقف بها شريعة العدل والنظام عند حدود إمكاناتها تحت سقف البيت : تطيع زوجها إذا أمر .. وتحفظه إذا غاب وتنفذ مااتفق عليه تحت اشراف رائد لايكذب أهله .. وهو الزوج وذلك قوله تعالى ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾ (١)

(والمراد بالقيام هنا - كما يقول صاحب المنار - هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره .

وليس معناها أن يكون المرءوس مقهوراً . مسلوب الإرادة . لايعمل عملاً إلا مايوجهه إليه رئيسه .

فإن كون الشخص قيماً على آخر هو عبارة عن إرشاده . والمراقبة عليه فى تنفيذ مايرشده إليه . أى ملاحظته في أعماله وتربيته) (٢)

ولم تكن هذه القوامة اعتباطاً . ولكنها مردودة إلى سببين :

١- فطرى ٢- كسبى

وذلك قوله تعالى : ﴿ **بما فضل الله بعضهم على بعض** ﴾

---

(١) سورة النساء «٣٤» .

(٢) المنار - النساء .

لم تقل الآية الكريمة : بما فضل الله الذكر على الأنثى مثلاً .. وإنما هما كيان واحد .. يفضل بعضه بعضاً فضلاً ناشئاً عن طبيعة التكوين .

فكما أنه لايضير اليد إذا قيل إن الرأس أفضل منها

كذلك : لايضير المرأة إذا قيل إن الرجل أفضل منها . بما يملك من العقل والقدرة ، والحزم فى اتخاذ القرار .

وهى قوامة المصلحة المزدوجة التى تعيش فى ظل زوجها مكفولة الرزق والأمن معاً .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ **وبما أنفقوا من أموالهم ..** ﴾

فلاتكفى ملكية المال .. وأهم منه العلم بوجوه الانفاق .. وذلك إلى الرجل البصير باحتياجات المعاش .. ولو كان المراد حجم الثروة لكانت القوامة إلى المرأة الغنية .. وذلك مالايجوز .

إن الزواج ليس مجرد لقاء عابر بين اثنين على قارعة الطريق .. ولكنه دون مطالب النفس جميعاً لايتحقق إلا بتراضى اثنين ، يحتاج كل منهما إلى الشمائل التى يصبو إليها الآخر . ليقترب كل منهما إلى صاحبه .. من بين ملايين الرجال والنساء .

وليس هناك أدعى إلى التوافق من وقوف كل منهما عند حدود وظيفته :

يتعاضدان .. ولايتعاندان

يختلفان .. ثم يأتلفان

ألا وإن العشرة الزوجية ليست حرفة تنال بالتعليم .. ولكنها مسئولية تفرض على كلا الطرفين أن يصب فى نهر الأسرة .. ليمدا النهر فى عملهما .. ثم يستمدان منه بعد ذلك سلاماً ووئاماً .

ومن أدب الإسلام فى تكريم الزوجة : إنه يحسن الظن بها ، فى مثل هذه الآية الكريمة : ﴿ **فالصالحات قانتات حافظات للغيب** ﴾

ولقد كان المتوقع أن يقال بعد ذلك : والناشزات .. ملومات .. مثلاً .. لكنه لم يقل والناشزات حتى لايفهم أحد أن النشوز من طبعهن .. وإنما قال سبحانه

وتعالى ﴿ واللائى تخافون نشوزهن ﴾ وكأن النشوز مخوف.. لم يقع بعد !

ولعل المرأة بهذا الأسلوب أن تكون عند حسن الظن بها .. مطيعة .. حافظة لأسرار البيت وحقوق الزوج .

ومعنى ذلك : أن يكون الزوج يقظاً .. فلا يهمل المتابعة إلى أن يكون النشوز أمراً واقعاً .. بل عندما يحس بآمارته .. عليه أن يتحرك قبل أن يستفحل الأمر . على أن يكون العلاج مشمولاً بمعانى الرحمة والرأفة .

لأن محاولة ترفع الزوجة كما يقول علماء الاجتماع :

١ - قد يكون مجرد عناد ٢ - وقد يكون اختباراً لود الزوج

٣ - وربما كان محاولة للضغط من أجل شراء شئ معين

٤ - ولعل الأم هناك خلف الجدران توسوس لابنتها بما لايجوز من القول

ومعنى هذا : أن محاولة الشغب .. قد لاتكون لها جذور في نفس الزوجة .. وإنما هى نزوة طارئة .. أو مؤامرة من خارج البيت .. فليكن العلاج بالحكمة .. على مستويات ثلاثة .. وبالترتيب .

١ - فعظوهن . بالكلمة المؤثرة ، مثلاً :

أ - لاتشمتى بنا الأعداء .

ب - أختك .. وكل زميلاتك طائعات .. سعيدات .. فلماذا أنت بالذات متأبية ؟

جـ - لو كان الزواج لمجرد الجمال .. لكان فى التماثيل ماهو أجمل منك .. ولكننى تزوجتك لمعنى أعمق من هذا .. فكونى أرضاً أكن لك سماءً .

فإذا أصرت .. وعبست وبسرت ثم أدبرت .. فقد حان الوقت لاستعمال الوسيلة الثانية وهى :

كسر سلاح الأنوثة التى تحاول الضغط به .. كسره .. وفى الفراش وفى لحاف واحد !! حتى لايكون لهذا السلاح قيمة .. ويرفع المهزوم .. الراية البيضاء ويتألق المنهج الإسلامى هنا :

فلو أباح لك أن تخرجها إلى أمها فى فورة من فورات الرجولة .. لسول لها الوهم أنك وحدك الآن .. حزين لفراقها .. تتحرق شوقاً

إليها.. وإلى جانبها أمها تصفق للمنطق الخلاب .. ولكن الإسلام يأمرك أن تستبقيها فى البيت .. لترى بعينها .. أن سلاحها .. لاقيمة له .. وعليها أن تستسلم للفارس الجسور الصبور !!

فإذا لم تفلح هذه الوسيلة .. فلم يبق إلا آخر الدواء .

الضرب .. لا بسوط (يطعم من لحمها . ويشرب من دمها) كما قيل.. ولكنه الضرب المشروط باستبقاء الجمال .. لايكسر عضواً .. ولايجرح بشرة .. ولايشوه وجهاً .. لتظل جميلة .. صالحة للزواج .. إذا تعذر الوفاق وليكن بمنديل ملفوف أو بالسواك .

فإن رجعت إلى الحق فبها وإلا فالطلاق ﴿ **فإن أطعنكم فلاتبغوا عليهن سبيلا** ﴾ ويلاحظ أن الآية لاتذكر الطلاق .. بل إنها تذكر احتمال الطاعة ﴿ **فإن أطعنكم** ﴾ أى أن الإسلام لم يتخل عن قاعدة الوقوف إلى جانب الزوجة لتحسن إلي نفسها .. وفى نفس اللحظة تحذر الزوج من سوء استغلال سلطته حتى لايظن أنه أكبر .. وأقوى وذلك قوله تعالى ﴿ **إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ .

يقول العقاد :

وليست إباحة الضرب عامة . بل لمن يستأهل ذلك . وأرقى جيوش العالم تعترف بالضرب كوسيلة للتهذيب . ولو كان مخلا بالكرامة لما أباحته .

كما أن هجر المرأة ليس عقاباً جسدياً . وإلا كان عقاباً للرجل أيضاً. إنه عقوبة نفسية .

فابلغ العقوبات هى التى تمس كيان الإنسان . وعندما يعرض الرجل عندما فقد أهانها . وحطم كبرياء إغرائها وفتنتها التى هى كل سلاحها فى هذه الحياة .

إن جمالها عوض عن القوة والكمال .. وهى تشعر بأنها بجانبه لاحول لها . وهو بجانبها مالك أمره .. فتشعر بمنتهى ضعفها .. وبقوته .. وهذا غاية التأدب .

لأن أبلغ العقوبة التى تبطل العصيان : أن يحس العاصى غاية ضعفه ، وغاية قوة من يعصيه .

الـزوج
وأخلاق الفرسان

قال ﷺ (لايفرك مؤمن مؤمنة : إن كره منها خلقاً رضى منها آخر) [1]

ينظر الخاطب إلى مخطوبته بعين الرضا . فإذا هى بريئة فوق كل اتهام . كما تنظر هى إليه .. فإذا هو فارس الأحلام .. تأوى منه إلى ركن شديد يحميها من تقلبات الأيام .

وعندما يتم الزواج توضع هذه العواطف المشبوبة على محك الاختبار فإما إلى جنة أو إلي نار !

يبدأ ن العتاب الذى يفتح الطريق إلي مزيد من الضيق .. وتهمل الزينة .. التى تفتح العين على غيرها من الكاسيات العاريات .. ثم تشتعل الغيرة .. نذيراً بالطلاق .

ومن خلال ذلك : تتسرب العواطف من عش الزوجية .. لتستحيل أفراح الأمس أحزاناً كالسلاسل :

تخنق البهجة .. فلا تنطلق

وتقيد الآمال .. فلا تمتد

وفى الحديث الشريف : يقطع ﷺ الطريق على الزوج قبل أن يستفحل الشقاق .. فى محاولة لجمع الشمل على كلمة سواء .

فلا ينبغى للزوج أن يكره زوجته أبداً .. فما دام عقد الزواج قائماً فإحساس الكراهية غير وارد ، وبكل المقاييس :

بمقياس الإيمان :

إنك أيها الزوج مطالب باسم الإيمان أن ترحم حتى الحيوان .. فكيف لاترحم إنساناً هو : زوجك . وأم ولدك . ورفيقة عمرك ؟

كيف .. وهى تقف معك تحت راية الإيمان ؟!!

---

(١) رواه مسلم .

فإن كرهت .. فإنك إذن من الظالمين .. الناكثين العهد من بعد ميثاقه .

وبمقياس المنفعة :

إن كرهت منها خلقاً .. ففيها خلق آخر تحبه .. هو عوض عما فاتك منها .. إذا فاتها جمال الوجه .. فما فاتها جمال الروح .. وإن حرمت من الإنجاب فقد رفعت رأسك بين الصحاب .. بحسن سمعتها وحسن تبعلها .

وهى وإن لم تكن بنت وزير أو مدير فقد أسعدتك سعادة لاترف لها أجنحة فى بيت الوزير أو الأمير ؟

وربما كانت بين زميلاتها فقيرة .. فهى أيضاً بينهن أميرة : جمعت لك من أخلاقها النبيلة ثروة لاينقصها ا لإنفاق .

إن لها من علو الهمة .. مايطاول القصور العالية .. ولها من زينة العفة ما يزرى بحلية الذهب والفضة .

ثم .. قد يكون لك منها أطفال صغار .. وأنت بلا شك تحب الأطفال .

وإذن فعليك أن تحب من يحبهم .. وهى زوجتك .. زوجتك التى قد تخاشنك فى الحديث أحياناً .. لكن نصيبك المفروض من حنانها مصروف لحساب أولادك أنت .. فتنازل عنه راضياً .. ودعها ترضعهم من حنانها .. ولاتعكر دمها بمشاعر الكراهية .. فيستحيل لبنها فى كياناتهم سماً .

لقد أثبت الطب الحديث أن حاجة الطفل إلى الحنان لاتقل عن حاجته إلى الغذاء .. وحرمان الطفل منه - كما ثبت علمياً - يؤثر على نموه الجسمى .. بل وعلى نسبة الطول والقصر .

ذلك بأن الحرمان من الحنان يفقده شهيته إلى الطعام .. وراحة النوم .. فيقل معدل نموه الجسمى .

فحاول ألا تكره زوجتك المؤمنة .. قبل أن نواجه بجيل من الأقزام!!

أجل .. لاينبغى أن يكره الزوج المؤمن .. زوجته المؤمنة .. فلم يخلق الله تعالى نفساً خالية من فضيلة تثبت بها وجودها .

وعليك أيها الزوج أن تسأل نفسك : هل تكرهها لعيب خلقى .. فرض عليها .. أم لعيب كان بسوء اختيارها ؟

إن كانت الأولى .. فلا لوم عليها .. ويكفى أنه عيب فى الجسم .. فى الصورة .. بينما بقى القلب هناك ملكاً لك من دون الرجال جميعاً .. وماأكثر الذين يعودون إلى البيت ليطالعوا من الزوجة وجه غانية .. لكن كل شئ فى البيت يصرخ بالشك .. والملل أيضاً !

وأين هؤلاء من أزواج يعودون إلى البيت .. إلى الواحة الظليلة .. واليد السمراء .. كلما تأملتها الزوجة زادتها نظافة .. وبدا البيت كله جنة وارفة الظلال .

وإن كانت الثانية : فأنت بمقياس العد مطالب بالتجاوز .. لماذا ؟

هل برئت أنت من العيوب .. حتى تطلب من زوجتك أن تكون ملاكاً يمشى علي الأرض ؟ إنها بشر مثلك .. يمشى علي التراب .. ولابد من أن يناله غبار الطريق .. فكلنا إذن .. فى الهم شرق ؟

وبين أيدينا كتاب الله تعالى .. وهو الفصل فى موضوع النزاع .. وفى مثل قوله تعالى : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة** ﴾

فواجه نفسك بالحقيقة المتبدية فى الآية الكريمة . حتى لاتسترسل مع مشاعر الكراهية .

فلو يؤاخذ كل زوج زوجته بما عملت .. مابقيت فى البيوت زوجة!

وإذا كان الخالق يرحم عبيده وهو الغنى .. القوى فعلى المخلوق أن يتأسى .. فهو الضعيف .

ومن فقه عمر هنا :

إن رجلاً ذهب يشكو إليه زوجته .. فسمع امرأة عمر تتطاول عليه .. فلما حكى لعمر قصته قال له : إنى أتجاوز عنها لحقوق لها علي إنها سترت بيتى ، وهى خازنة مالى ، إذا خرجت حفظته . تغسل ثيابى . وتخبز وتطبخ لى . وهى ظئر - أى مربية - ولدى فقال الرجل . إن لزوجتى مثل هذا . ثم تجاوز عنها .

ولم يكن ذلك التجاوز من عمر حماساً .. سرعان ماتنطفئ شعلته.. لكنه جاء طبق قاعدته فى بناء البيوت على عواطف دائماً قوية ،، تتجاوز الحب الذى لايبكى عليه إلا النساء .

ولقد هم رجل بتطليق زوجته .. لأنه لا يحبها .. فقال له عمر : أو كل البيوت بنيت علي الحب .

فأين المروءة والتذمم ؟!

أين العواطف النبيلة .. البديلة ؟!

فما أحوج الأزواج إلى أخلاق الفارس العربى .. والذى كان من أخلاقه إذا وقع السيف من يد مبارزه .. كف عنه حتى يلتقطه . وينهض له .. ولايستغل لحظة ضعفه .. ليضربه !

ألا وإن فارس الأحلام بالأمس وهو الزوج .. يجب أن يظل فارساً وإلا فسوف يواجه غداً إذا طلقها بزوجة يستنوق بها الجمل جزاء من جنس العمل .

الزوج .. حصن الأمان

عندما تكون الغنم مطمئنة آمنة، تسير طلائعها متجهة بنظرها إلى الراعى الذى يرشدها إلى الطريق المستقيم .

بينما يسير باقى أفراد القطيع . ورؤسها إلى الأرض . تنظر نحو أقدامها تبحث عن طعامها اليومى .

فلا ترى حينئذ إلا أجساماً سائرة معاً . وقد اختفت رؤسها . ولكن إذا حدث مايزعج القطيع . فإنك تجد الرؤس ترتفع كلها فى الحال، وقد توقف القطيع كأنه شخص واحد .

بينما تنظر العيون شاخصة .. ليس إلى الخطر .. بل إلى الراعى .. تلتمس عنده الرأى .. والمشورة .. والعون !

وهكذا الزوج .. رب الأسرة دائماً .. يظل مستراد الأمل .. وحصن الأمان ولكن قد يضطرب المجداف فى يد الملاح .. فيختل ميزان العدل فى البيت .. ويفشل المؤتمر المحدود تحت سقف البيت فى إعادة التوازن.. وإذن فلابد من مؤتمر أكبر .. يحسم الموقف .

وذلك قوله تعالي : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً** ﴾ [1] .

إن المرأة أسرع تقليداً كما يقول أطباء النفوس .. لأنها أشد غيرة من الرجل وهى كذلك لأن المشكلة بينها وبين زميلاتها فى المناقب والمفاخر أقرب مما بين الرجال .

فإذا تصورنا الزوج واحداً من هؤلاء الذين يظنون أن الزوجة جزء من زينة البيت : يغير بين الحين والآخر .

بل قد يغير أحدهم زوجته .. ولا يغير ملاءة سريره !

إذا تصورنا ذلك وجدنا أنفسنا أحياناً أمام غريمين على مرمى حجر من نقطة اللاعودة :

---

(١) سورة النساء «٣٥» .

كان يعاند صاحبه .. ويفعل مايشق عليه فصار كل منهما فى شق وناحيـــة

وعندئذ تبدأ مسئولية المجتمع الذى يجب أن يخف للنجدة قبل أن يستفحل الأمر . فهناك إعصار يوشك أن يقتلع مقاصد الزواج : من السكن . والمودة والرحمة .

وعلى الأقوياء أن يتدخلوا .. فالقضية قضيتهم وليكن حكم من أهله .. وحكم من أهلها ، وهو من الأهل : لأنه أعرف بظروف الخلاف ، وأشد رغبة فى الوفاق .. وهو أحفظ لسر يمسه شخصياً .. وربما كان سبب الشقاق سراً دفيناً .. فلو كان الحكم غريباً .. فربما عز علي الطرفين أن يبوحا به .. فلا يكون صلح .. ثم تتعقد الأمور.

فإذا أراد الطرفان الإصلاح .. فإن التوفيق آت لاريب فيه .. تتويجاً لهذا الإخلاص

ولاتقتصر إرادة الإصلاح على الحكمين خاصة .. وإلا فقد تفشل محاولات الصلح .. فيزعم البعض أن الحكمين لم يريدا الإصلاح .. وفى ذلك من الظلم مافيه .. فلابد إذن لكل فريق من رغبة صادقة فى عودة المياه إلى مجاريها .. ليكون الجميع خط دفاع بالكلمة الطيبة من وراء الحكمين .

وقد اقتصرت الآية الكريمة على احتمال الإصلاح .. والتوفيق .. حسن ظن بالحكمين .. ومن وراء الحكمين .

فليكن الجميع على مستوى المسئولية شاعراً برقابة الحق تعالى :
﴿ **إن الله كان عليماً خبيراً** ﴾

كل واحد فى نقطة الضوء .. مراقب .. من قبل من لاتخفى عليه غائبة فى السماء والأرض .

وليحذر الصائدون فى الماء العكر أن يستثمروا الخلاف لحساب أنفسهم التى قد تزيد الخرق اتساعاً .. لتحقيق مأرب رخيص .. سوف ينكشف يوماً .. وسوف يكون الحساب يومئذ عسيراً .

الغيرة فى ضوء الإسلام

إذا كانت غيرة « يزيد بن معاوية » على سمعة أخته شديدة .. فإن غيرة الزوج على زوجته أشد .

وإذا كان يزيد قد وجد من حكمة والده مااحتوى ثورته العارمة فى صدره .. احتواء توج أخيراً ببراءة أخته مما نسبه إليها شاعر ماجن .

فإن « الفاكه بن المغيرة » لم يصبر على مجرد شبهة حاكت فى صدره حول زوجته .. فهاج وماج .. إلى حد أشاع الخبر فى الحى .. ولم يبق إلا الطلاق شفاء لما فى الصدور .. ثم قتله بعد ذلك انتقاماً .

قصة الفاكه مع زوجته هند :

كانت هند بنت عتبة - في الجاهلية - زوجاً للفاكة بن المغيرة المخزومى عم خالد بن الوليد .

- وكان مضيافاً له بيت للضيافة مفتوح دائماً

- خلا البيت من الأضياف واضطجع فيه الفاكه وهند .. فناما

- واستيقظ الفاكه وخرج لبعض حاجاته وترك هنداً نائمة .

- ولما عاد أبصر رجلاً يخرج مهرولاً من البيت .. فركلها .. وأقسمت أنها مارأته ولاشعرت به فقال لها : الحقى بأهلك .. ودارت الشائعات حولها .

- سألها أبوها عتبة أن تصدقه القول : فإن كان زوجها صادقاً .. احتال لقتله وإن كان كاذباً حاكمه إلى بعض الرهبان .

- ودعا الفاكه لكاهن باليمن وخرجت هند فى جمع من بنى عبد شمس .. والفاكه فى جماعة من بنى مخزوم .

ولما تغير لون هند قرب الكاهن أخبرت والدها خوفا من أن الكاهن قد يصدق وقد يكذب .

- وبرأها الكاهن مما قالوا .. ورفضت زوجها حين أراد أن يأخذ يدها عائداً إليها .

فانظر كيف غابت الحكمة فسارت بالشائعات الركبان .. وأصبحت قصة هند على كل لسان .. ولولا الكاهن .. لسالت الدماء أنهاراً .

وقد سمعنا عن أباء قتلوا بناتهم شكاً فى سلوكهن .. فلما هدأت العاصفة وزايلت العيون غشاوات طارئة .. تبين شرف البنت .. وسلم عرضها .. ولكن بعد فوات الأوان .. وكان يكفى الفاكه أن أقسمت له زوجه أنها مارأته .. وكان يمكن وضعها تحت الرقابة الشديدة .. قبل أن يعاقبها ويعاقب نفسه .. وكان من الممكن أيضاً عرض القضية سراً على مجلس العائلة ليقول المجلس كلمته .. حتى إذا أصر الزوج على الطلاق اتفقوا على سبب آخر له غير ما يتصل بالشرف الرفيع .

لكنه لم يفعل .. وأكدت الأيام شرف هند بنت عتبة . وكرم معدنها .. حين وقفت بعد ذلك بين يدى رسول الله ﷺ وهو يأخذ العهد على النساء ألا يزنين وقالت له : أو تزنى الحرة يارسول الله ؟

منكرة بذلك إنكاراً كان نضج الفطرة الطاهرة .. النافرة بخلقتها من هذا الفعل المشين .

ولقد دخل العربى الإسلام بهذه الغيرة العنيفة .. بيد إن الإسلام عالجها بالحكمة والموعظة الحسنة .. فوفر على الأمة دماء وحفظ عليها طاقات بددها التهور .

وإزاء ثورة الشك فى مجال العرض كان حقائقه الدامغة .. وبخاصة فى اللحظة التى يبلغ الشك مداه حين لايجد الوالد فى وليده سماته واضحة بينه .. وأنت خبير بحساسية هذه اللحظات فى حياة العربى الأبى .. ولكن الإسلام لم يتركه وحده .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل من بنى فزارة إلى رسول الله ﷺ فقال : ولدت امرأتى غلاماً أسود ، وهو حينئذ يعرض بأنه ينفيه .

فقال رسول الله ﷺ : هل لك من إبل ؟

قال : نعم ..

قال : فما ألوانها ؟

قال : حمر ..

قال : هل فيها من أورق ؟ « أسمر أو ما كان رمادياً ؟

قال : إن فيها لورقاً .

قال : فأنى أتاها ذلك ؟

قال : عسى أن يكون نزعة عرق ؟

قال : فهذا عسى أن يكون نزعة عرق . ولم يرخص له فى الانتفاء منه [1] .

وقد دل هذا الحديث على سعة علمه ﷺ مع قدرته التى لاتدانى فى الحوار والاقناع . بحيث رجع السائل إلى مايعهده من الحقيقة

---

(١) رواه الشيخان .

بنفسه وكانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه . فأزالت ماقد ران علي قلبه من ظلال الشك القائمة في زوجته التي لم يكن لها ذنب إلا انها ولدت غلاماً أسود .

وقد قال أغلب الأئمة أنه إذا لم يكن له قرينة يستدل بها على زنى الزوجة فليس له أن يتهمها إذا جاءت بولد لايشبه أحد أبويه .

حاشية :

كنت في مجلس ضم نخبة من الإعلاميين الإسلاميين .

سأل أحدهم عن حكم مصافحة المرأة .. ورد ثان بأن الشيخ « نجيب المطيعي » أفتى بالجواز مادام السلام عادياً .. لم يستشعر المسلم معه شهورة ما .

وانبرى ثالث ليقول : أليست النظرة أشد تأثيراً من المصافحة باليد ؟

قلت : بلى إن المصافحة في مجلس أو في الطريق أو في مكان العمل إنما تكون بين أناس ينظرون ويراقبون وموقف كهذا من شأن الغريزة أن تخنس فيه فلا تمارس نشاطها في استشعار المتعة الحرام لحظة السلام أما النظرة فهي خائنة ويمكنك أن ترسل طرفك خلسة ولعل هذا بعض مايشير إليه قوله تعالى ﴿ **وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين** ﴾ (١)

فقد أفرد الحق تعالى تلذذ العين دون بقية المشتهيات لما لرؤية العين من مذاق خاص .. عندما تسرح في مجالي الأكوان والإنسان .. فينتشي الجسم كله .. بواردات العين التي يأسرها الجمال .. فيلهج الكيان كله بحمد مبدعه سبحانه أو يسيل اللعاب فيكون الحساب ثم العقاب !

---

(١) الزخرف «٣٩» .

أسرة بلا مشكلات

عندما خرجت المرأة للعمل فى الديوان .. كان لهذه الطفرة مضاعفاتها ، والتى منها : نقل دورها تحت سقف البيت .. إلى ساحة المجتمع . وصيرورة علاقتها فى البيت مجرد مشاركة رتيبة خالية من عواطف المودة إلا قليلا .

فالمفروض أن تكون فى بيتها زوجة وفية .. رقيقة الطبع .. طيبة الكلمة .. إنسانية الاتجاه .. يستوعب قلبها الحانى آلام الصغار .. وتستقبل بحكمتها هموم الكبار .. لتنحسر بين يديها .. واضعة نفسها كزاوية الجدار .. بها يكون القرار .

بينما تنحصر علاقاتها الاجتماعية فى أضيق الحدود .. حفاظاً على كرامتها لكنها - تحت وطأة العمل واتصالها بالرجال - لم تدخر لبيتها إلا نخالة العواطف تبذلها ضائقاً بها صدرها .. وبينما يتضور الصغار جوعاً إلى عواطفها النبيلة .. وبينما يتحرق الزوج شوقاً إلى دفء المودة إلى جانبها .. إذا بها تبخل عن نفسها جاعلة النصيب الأوفى من حنانها وعطفها واهتمامها للزملاء فى ديوان العمل !! أو تكاد .

ومازلت أذكر هذا الصديق الذى جاء يطلب مساعدتى فى نقل زوجته العاملة معه فى الديوان .. وفى نفس الحجرة .

إن جمرة الغيرة لتتقد بين جنبيه كلما رأى عيناً تصوب إليها .. أو سمع جملة تنصب عليها .. ويحس بالهوان كلما شاهدها تستدعى بالأمر للمثول بين رجل غيره .. هو رئيسها ورئيسه ؟! إنها تسرع إليه حريصة على ولائها له حرصاً يجعل أملها فى الترقية قائماً .. ثم هو يراها .. ويسمعها فى المكتب .. فإذا هى فى أبهى حللها .. وإذا الكلمات المتبادلة بينها وبين زملائها منتقاه مختارة ! وأين هذا .. من مشهدها فى البيت .. متبذلة .. آمرة ناهية ؟!

ونتساءل هنا :

هل يعوض الراتب المضروب فى اثنين مايفقد هذا الفتى من خلاياه التى تحترق ؟

والجواب عند الإخوة القراء .. فلا حاجة بنا إلى ذكره . لكن حاجتنا الملحة هى البحث عن مصدر السعادة الأسرية فراراً من حياة تطوقها المشكلات .. لعلنا نأخذ سمتنا من جديد إلى أسرة تتحمل فيها الزوجة مسئوليتها كأنثى .. وأسوتنا الحسنة هنا رسول الله ﷺ والذى نقف الآن أمام صورة من بيته الكريم تبصرة وذكرى لمن أراد أن يتخذ إلى السعادة سبيلاً -

جاء فى حلية الأولياء :

قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يخصف نعله .. وكنت أغزل .. فنظرت إليه .. فإذا جبينه يعرق .. وعرقه يتولد منه نور . قالت فبهت . قال : « مالك بهت » فذكرت له النور الذى يتولد من عرقه . ثم قالت : لو رآك « أبو كبير الهذلى » لعلم أنك أحق بشعره .

قال : « وماذا يقول » ؟

قلت : إنه يقول :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

قالت عائشة : فوضع الرسول ماكان فى يده . وقام إلى فقبل مابين عينى ثم قال : (جزاك الله يا عائشة خيراً ، ماسررت منى كسرورى منك)

ماذا فى هذا المشهد من معان جعلت من هذه الأسرة أسعد أسرة على الإطلاق .. وإن لم تملك أجهزة حديثة .. وخلا البيت من اللحم .. والفاكهة .. واللبن .. ستين يوماً ؟!

إن أعظم رجل على الإطلاق .. يرقع نعله .. وبيده ! إنه إذاً لايملك حذاء جديداً لامعاً . ولاتجد الزوجة فى صدرها حرجاً من أن تنقل صورة زوجها بأمانة .. شاعرة أنها تقدم للأجيال نفساً كبيرة لاتهمها

الرياش بقدر مايهمها إسعاد أمتها . وهو حجة على شباب مسلم اليوم .. قد يكون السجن أحب إليه من رؤيته يخصف نعله أو يرقع ثوبه!

وإلى جانب الزوج .. زوجته العاملة : تدير بأناملها مغزلها .. تصنع ستائر النافذة .. وفرش السرير .. وبساط الأرض .. من نسيج محلى .. غير مستورد .. أغناها عن كل مجلوب من الستائر عبر الحدود .. فأغنى الأسرة فى نفس الوقت عن التبعية لغيرها .. اكتفاء بصناعتها الوطنية .

وكلا الزوجين يمارس عمله: اللائق .. المناسب

الزوج القوى ينجز عملاً يستدعى بذل مجهود أكبر .. تفصد به جبينه عرقاً .. والزوجة في مهنة الغزل الميسرة الموائمة لطبيعتها .. والجميل هنا أن العمل يتم تحت سقف البيت .. وماأسعد الزوج بامرأته فى صحبته ولاؤها له .. ونظرتها إليه . وحديثها معه وهو أشد سعادة عندما تعينه على عمله بالذهن اللماح . والكلمة الرقيقة الموجبة .. والذوق الأدبى الذى يفيض بعيون الحكمة .. التى تجعل البيت واحة ظليلة جميلة .. وماأهون مشقة العمل فى مثل هذا اللقاء الودود .. ثم ما أسعد الزوجة برجلها إلى جانبها .. يملأ عليها الدار .. ويستجيب لمشاعرها الرقيقة بقبلة هى من حيث دلالتها أغلى من كل مافى الحياة .. ولو أنه عاد إليها من الخارج بأسورة من ذهب .. أو جاء بكل هدايا السوق مابلغ معشار هذه اللحظة المباركة !

وماذا تساوى أغلى الهدايا إذا بقى البال مشغولاً .. والنفس موزعة بين الولاء للعمل والولاء للبيت .. بل ماذا تساوى الدنيا والغيرة القاتلة تهجم على النفوس فلا تتيح لها أن تتذوق للسعادة طعماً ؟

أجل .. لقد جمع الزمان فكان هذه اللحظة المباركة بين الرسول ﷺ وزوجته عائشة رضي الله عنها .. وما أكثر الساكنين القصور .. الراغبين فى لحظة بهيجة كهذه ، والتى لو جمع العمر كله مكانها لكفى ! ولو أنهم استطاعوا شراءها لفعلوا .. وباعوا فى سبيلها كل مايملكون . ومايسكنون .

إن الزواج عشرة دائمة .. ولاتدوم العشرة إلا بالثقة .. ولاتدوم الثقة إلا بإغلاق كل منافذ الفتنة .. والغيرة القاتلة .. وإنها لدائمة ماتوفر للمرأة عملها .. المناسب .. وعملها الذى تطيقه .. وذلك ماتوفر للزوجة هنا .. فكان هذا الحب .. وكانت هذه الثقة ، يقول العقاد هنا :

(وهى على الجملة حياة زوجية سعيدة . نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة فى طول أيامها ، ثم منزلة الشريكة فى عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة فى هذه المعونة قصارى ماتبلغه شريكة حياة . فحفظت من تعليم النبى مالم يحفظه أحد .. وحفظ عندها النبى أغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه) .

(وإنها ترينا النبى فى بيته ، فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية . ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته كما يكون الرجال بين النساء . على سنة الفطرة المعهودة من ادم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ماتقرأ . فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هى الأنثي الخالدة فى كل سمة من سماتها .)

إن حرية المرأة تبتلعها اليوم .. بل إنها لتقتلها .. وتقتل معها زوجها وأولادها .. وهم أحياء يرزقون ! وحتى حين يكون جمال .. ولاتكون ثقة .. فإن الجمال سوف يذهب يوماً .. ولايعود .. ذلك بأن الجمال رأس مال يوضع فى مصرف غير أمين وغير حريز ، ولابد من الإفلاس .. عند الشيخوخة . أما الإيمان بجلاله .. والعمل بجماله .. أما الثقة المتبادلة بين الزوجين .. فهى الرصيد .. وهى الذكرى ، رصيد لايفنى وذكرى لاتموت .

وبعد

فقد نشرت الأهرام هذا التعليق : « العودة إلى البيت » .

نحن اليوم فى عام ١٩٨٥م وعلى عهدتى أقول فى عام ١٩٩٥م على الأكثر وفى أغلب الأحيان ربما قبل ذلك سوف تسعى المرأة المصرية جاهدة للعودة إلى البيت ! سوف تحسب المرأة تكاليف خروجها للعمل ومايقتضيه ذلك من مصاريف ملابس ومواصلات وهموم كثيرة إذا كان لها طفل أو أكثر - ودوختها - مابين بيتها وبيت أمها أو أم زوجها أو دار الحضانة التى تضع فيها هذا الطفل . سوف تحسب المرأة كم يكلف الحنان الضائع الذى يفتقده ابنها عندما لايراها إلا خارج مواعيد العمل الرسمية ؟ وبصورة سريعة تأخذ الطابع الوظيفى الذى يمكن القول بأنها تقوم خلاله بالمرور على طفلها لإعطاء الاهتمام الذى يستحقه . تغذيه بلبن الحنان والحب الذى يكفل له مستقبلاً مستقراً عائداً يضيف فيه ويعطى لبلده .. سوف تحسب المرأة المصرية كل هذا وسوف تحسب إلى جانبه كم هو ممزق حال بيتها وعلاقتها مع زوجها الذى أصبحت تلتقى به كما يتقابل المسافرون فى أحد المطارات أو المحطات .

سوف تحسب المرأة كل ذلك وستكشف أن عودتها إلى بيتها أفضل كثيراً لها ولزوجها ولوطنها الذى ينتظر منها مهمة جليلة وليس أجل من أن تحسن تربية أولادها . سوف تسقط تحت أقدامها كل شعارات المساواة والتقدمية والنضال التى خرجت تصرخ بها ذات يوم . وقد تحقق لها كل شئ .. أصبحت مديرة وسفيرة ووزيرة وتعمل مايقول به الرجل .

ولن يكون ذلك فى حسابها إنها عودة إلى عهد الحريم والنظر إلى الشارع من وراء شيش النوافذ .

سوف يكون ذلك فى حسابها عودة إلى الوضع الصحيح الذى تختاره بكامل حريتها .. إنها حرة .. لقد كانت حرة عندما خرجت لتنافس الرجل وتعمل إلى جانبه .. وستكون حرة عندما تترك مكان العمل للرجل لتمارس الدور الأزلى الذى لن يجد غيرها .

سوف تتعلم المرأة أفضل تعليم لتحصل علي أكبر وظيفة اسمها : ربة بيت وأم !

أزواج
يسوقون الزمن بعقارب ساعاتهم

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ [1] .

تمهيد :

أحياناً تحس المرأة بالضياع ، كأنما هى فى البيت من سقط المتاع ، لقد كانت من قبل فى حس زوجها زهرة يانعة .. يلح عليها كما تلح النحلة الشرهة على زهرة الروض ، (كان زوجها شاعراً يطارحها الغزل .. وسميراً يناقلها الحديث .. وعاملا يكسبها الثروة .. فاضلاً ينيلها الشرف .. مخلصاً يذيقها السعادة)

كانت مساحة الاهتمام المشترك واسعة .. ورؤية القضايا اليومية من زاوية واحدة .. والخطوات على درب الحياة متناسقة .. متوافقة .. فى ظل ثقافة مشتركة تجعل الانسجام قاسماً مشتركاً أعظم بين الاثنين .. ومع مرور الأيام يصبح الأمر على مايقول الشاعر :

وبتنا وما بينى وبينك ثالــث كزوج حمام أو كغصنين هكذا

فمن بعد هذا الوصل والود كله أكان جميلاً منك تهجر هكذا ؟؟

(١) سورة النساء « ١٢٨ » .

المرأة المسلمة
على ظهر أول أسطول بحرى إسلامى

عن أنس بن مالك رضى الله عنه . عن خالته « أم حرام » بنت ملحان قالت : (نام رسول الله ﷺ يوماً ، قريباً منى . ثم استيقظ يبتسم فقلت : يا رسول الله .. ماأضحك ؟

قال : ناس من أمتى عرضوا على ، يركبون ظهر هذا البحر .. كالملوك على الأسرة . قالت : فادع الله أن يجعلنى منهم .

قال : فدعا لها . ثم نام الثانية . ففعل مثلها . ثم قالت مثل قولها . فأجابها مثل جوابه الأول . قالت : فادع الله أن يجعلنى منهم .

قال : أنت من الأولين

قال : فخرجت مع زوجها « عبادة بن الصامت » غازية ، أول ماركب المسلمون البحر . مع معاوية بن أبى سفيان .

فلما انصرفوا من غزاتهم قافلين . فنزلوا الشام . فقربت إليها دابة لتركب . فصرعتها . فماتت) [1]

تمهيد :

فى تاريخنا العسكرى رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه .. فكانوا عند حسن الظن بهم أشداء على الكفار . رحماء بينهم .

ولو أردت عدهم لأعجزك إحصاؤهم .. وإذا كان منطقياً أن يكون للرجال نصيب الأسد على ساحات المعركة - بحكم طبيعتهم .. وضخامة مسئولياتهم - فإن وجود العنصر النسائى على ساحات المعركة حقيقة

---

(١) رواه ابن ماجه ، باب فضل غزو البحر ، كتاب الجهاد ، ٢/٩٢٧

تفرض نفسها .. شاهدة بعظمة الإسلام القادر على صياغة هذا الجنس الضعيف . على نحو يحمل على احترامه . وإفساح الطريق أمام مواهبه - في حدود ماشرع الله - ليأخذ دوره في التمكين لدين الله .

ومن هذا الجنس .. كانت « أم حرام » رضي الله عنها .

لقد أقامها الحق تبارك وتعالى حجة قائمة على نساء اليوم .. والغد ليعدن ترتيب الأوراق من جديد .. وإحياء الدور الحقيقي للمرأة المسلمة في مواجهة الأخطار .. بل وركوب هذه الأخطار . فلعل في تلك اليقظة مايشحذ همتها لتطلب معالي الأمور .. مرتفعة بها على قضايا فرعية .. تحتل مساحة تفكيرها .. دون أن تستشعر دورها في خدمة الدين .. والحياة .

من إشارات الموقف :

ها هو ذا رسـول الله ﷺ يصحو من إغفاءته مبتسماً .. باعثاً بالابتسامة روح الأمل في قلب « بنت ملحان » محركاً في قلبها رغبة ملحة في الوقوف على سر الابتسامة الوضيئة .. وذلك قولها (يارسول الله .. ماأضحكك) .

إن كل حركة .. وكل كلمة في حياة الرسول الأسوة .. لاشك دالة على معنى له أهميته .. والأعين دائماً مفتوحة عليه .. والقلوب مشدودة إليه .. تحدوها رغبة دفينة في الاهتداء إلى حكمة ماترى وماتسمع ثم الاقتداء بعد ذلك بما رأت وما سمعت .

همة عالية :

كان المتوقع أن تدخر الدعوة لزوجها أو لولدها .. فكلاهما أجدر بركوب البحر ومواجهة أخطاره .. لكن العجيب أن تختص بها نفسها دالة بذلك على بطولة مستكنة فى قلبها .

بطولة تعبر عن صدق الإيمان لم تكتف للتعبير عنه بكلمات براقة .. أو مواقف مسرحية .. أو بشارات فى الملبس والمأكل لا تكلف شيئاً.

وإنما تختار أقدح الثمن لتدفعه ولاءً لدينها .. وسبيلاً إلى جنات عدن .

مغزى جواب الرسول :

وكان جوابه ﷺ هذه الصورة المشرقة .. والتى يعلم بها أمته كيف يكون الأمل فى الله تعالى وطيداً .. فلم يكن واقع الأمة حينئذ يبشر بهذا المستقبل العسكرى الفائق .. فلم يكن يدور فى حسبان أحد أن أمتنا ستكون يوماً سيدة البحار .. وسوف تمخر سفنها عباب هذه البحار.

لقد كان جوابه ﷺ مؤكداً :

أ- إن سيادة الأسطول البحرى الإسلامى آتية لا ريب فيها .

ب- وأن البحارة المسلمين .. سوف يقودونه فى عزة الملوك .. ومضائهم .

جـ- وأنهم على متن الأسطول الإسلامى .. كأنما هم على الأسرة .. اطمئناناً وسيطرة وقراراً .

د- وسوف يكون للمرأة دورها البارز فى هذا المعترك الصاخب .

لقد استجاب ﷺ للقلب اللهفان .. الراغب . لا فى الثوب الجديد والأثاث الفريد .

وإنما هى الرغبة الملحة فى الثوب المخضب بدم الشهيد !

تلك آثارنا:

وإذا زها الإعلام الأجنبى اليوم بنساء يصنعن القرار الصعب هناك .. فإنا لنزهو بمثل « أم حرام » لأنها لم تتخذ القرار الصعب من خلال المكتب « المكيف » ليقوم غيرها بالتنفيذ .

لقد اتخذت قرارها .. ثم تولت هى التنفيذ .. وعلى أعلى مستويات التطبيق هناك فوق أثباج البحار .. ومايكتنفه من أخطار .

الزوج والزوجة معاً فى مواجهة الخطر:

وركبت « بنت ملحان » البحر مع زوجها .. فى صحبة مشاعر الاعتزاز برفقة رجلها ويالها من لحظة ممتعة تلك التى يغادر الزوجان فيها بيتهما ثم يرتفعان فوق مستوى المشكلات العائلية .. ليواجها البحر معا .. ثم يعبان من هوائه معاً فى غمرة من البهجة تطل من وجهيهما أن أقامهما الله تعالي حراساً على الحق فى أخطر الجبهات .

وأين منهما زوجان يعملان من مكتب واحد اليوم .. يصارعان معاً مشاعر الغيرة والتمزق ؟ وإذا كان هناك من تتصور نفسها مع زوجها .. زهرتين على جدول لعوب أو طائرين على غصن رطيب .. فقد كانت بنت ملحان مع زوجها أسعد برحلة مباركة يمتد بها العمر .. ويبقى الذكر على ظهر أسطول كان به الإسلام ربيعاً مثمراً مزهراً مهيمناً .. وهما منه كشجرتين تتبادلان التهنئة بقدوم هذا الربيع .

وماتت بنت ملحان وهى عائدة .. ماتت غريبة ولكن فى مزدحم الجهاد .. ولم تمت فى « دار المسنين » طريدة .. كما لم تمت منتحرة تحطم حياتها بيدها ولإن عاد زوجها حزيناً على فراق الصحابة .. فقد عاد .. وعلى صدره وسام شاهد بشجاعتها وشجاعته .. ويالله وسام أغلى من كل وسام .

المرأة المؤمنة على مستوى المسئولية

شهدت « أم خلاد » رضى الله عنها غزوة أحد مع زوجها وولدها وأخيها .. ولما استشهد الثلاثة .. حملتهم الصحابية الجليلة على بعيرها .. ومضت بها عائدة إلى المدينة .

ولقيتها فى بعض الطريق عائشة رضى الله عنها فقالت لأم خلاد : عندك الخبر فما وراءك ؟

قال أم خلاد : أما رسول الله فصالح . وكل مصيبة بعده جلل - هينة - واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

وقالت عائشة : ومن هؤلاء ؟ (تسأل عن الشهداء) فقالت : أخى . وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح !!

قالت عائشة : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلي المدينة أقبرهم فيها -أدفنهم - ثم زجرت بعيرها ليتابع سيره . فما استطاع فلما وجهته إلى ميدان القتال أسرع !

ومكث الرسـول ﷺ حتي قبرهم . ثم قال ترافقوا فى الجنة : عمرو الجموح ، وابنك خلاد ، وأخوك عبد الله .

قال أم خلاد : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى معهم . فدعا لها .

تمهيد :

يقـولون [1] (إن مقاييس التقدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال . فإذا قسنا التقدم بالسعادة .. فقد تتاح السعادة للحقير .. ويحرم منها العظيم !

بالغنى .. ؟ قد يغنى الجاهل .. ويحرم العالم !

---

(١) العقاد .

بالعلم .. ؟ قد تعلم الأمم الشائخة .. وتجهل الأمم القوية .

ولكن المقياس الوحيد هو : مقياس المسئولية .. واحتمال التبعة .. وهو ماقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ماسعى** ﴾)

مسئولية أم خلاد :

وبهذا المقياس .. تحملت المرأة المجاهدة المحتسبة هذا الموقف العصيب بكل مضاعفاته .. فكانت رمزاً من رموز القوة .. حين ارتفعت فوق هواتف الضعف فى كيانها كامرأة .. وكانت على مستوى المسئولية .. مسئولية الإيمان الذى صاغ منها سلاحاً من أسلحة القدر .. فكانت بصبرها وبيانها صوة التحدى الإسلامى الذى صار شوكة فى حلق عدو ظن أنه بالنصر الخاطف فى أحد .. قد قضى على المسلمين .. فإذا بالصفعة تأتيه .. من أم خلاد .. ومن حيث لايحتسب .

وإذا هى ماضية عبر الصحراء .. وحيدة ولكنها تحمل فى صدرها بستانها المورق بالصبر والتحمل لقد كانت صامتة .. ولكن فى تفكير منعزلة .. ولكن فى تدبير ساكنة سكون البنيان وفى قلبها مايشبه البركان !!

التقرير الحكيم

ها هى ذى عائشة رضي الله عنها .. مشغولة بالمعركة .. التى هى قضية الأمة الأولى .. ضاربة المثل الأعلى لكل امرأة أن تكون ساعة الخطر عند حسن الظن بها .

لاتتلفع بفضل مئزرها .. رفاهية . ولاتشرب فى العلب .. بينما الرجال يسقطون .

ولاتحول البيت إلى مشتجر من الاراء الفلسفية .. الجانبية .. بينما السيوف تتكلم هناك .. وتأمل معى قوة الأعصاب .. وسلامة المنطق .. منطق أم خلاد وهى « ترفع » تقريرها عن المعركة على هذا النحو العظيم .

صلاح القيادة :

قالت أم خلاد : (أما رسول الله فصالح)

ولاتقول لعائشة : أما محمد .. أو أما زوجك .. وإنما تذكره بوصف الرسالة الجامعة .. إنه لنا جميعاً .. نخوض المعركة تحت لوائه .. وعلى سنته .

ولو أنه مات .. لكانت مصيبتنا فيه جميعاً فاجعة .. وكل مصيبة بعده تحتمل .. ولوكانت تلك المصيبة موت الولد .. والزوج .. والأخ الشقيق .. والحمد لله : رسول الله صالح .

لم تقل : « إنه حى » وإنما هو صالح .

معه قلبه المؤمن .. وإرادته الماضية .. الصالحة لاستئناف القتال من جديد .. ومن مظاهر صلاحه : أن العدو الغاشم الغادر .. وإن حقق نصراً موقوتاً .. لكن القيادت بقيت فى قمتها العليا .. والجنود مازالوا يحيطون به وحتى المرأة الضعيفة تقوى بالإيمان وتتحمل تلك الرحلة العصيبة حاملة عمرها فوق البعير .

وهل هناك « صلاح » للأمة بعد قائد .. مؤمن .. قوى .. وأمة تقف من ورائه فى ساعة العسرة على هذا النحو الفريد .

الأمة المؤمنة لاتموت :

ثم تقول أم خلاد : (واتخذ الله من المؤمنين شهداء)

وكأنها تقول للسيدة عائشة رضي الله عنها .. ولأخواتها فى النضال عبر التاريخ :

لاتسأليني عن عدد الجرحى والقتلى .. لاتسأليني عن وحشية العدو .. الذى أصاب منا .

فنحن فى الحقيقة لم نفقد أحداً .. فأمواتنا قد اتخذهم الله شهداء .. وإذن فهم أحياء فى ضيافة الرحمن .. الذى اتخذهم .. اصطفاهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .. أرواحهم فى حواصل طير خضر .. يسرحون فى

مروج الجنة فلم البكاء .. وقد أخلف الله ظن عدونا الذى أراد إبادة أمتنا .. فتحولوا بسلاحه إلى دار هى الحيوان .. لو كان الطغاة يعلمون .

النصر الهزيل :

ومع أن العدو .. قتل منا رجالاً .. وصحب معه أسارى بلا سلاح .. ليشبع نهمته إلى العدوان . إلا أنه رد خائباً .. بنفس الغيظ الذى حمله على شن المعركة بل بأشد منه لأنه لم يحقق رغبته القوية فى مسح أمتنا من الوجود .

وها هو ذا الصباح المبين وقد أسفر عن خيبة أمله .. حين عادت صفوفنا .. إلى الالتئام والانتظام .. من جديد .

وإذن .. فلم يأخذ منها مانبكى عليه !

الإيمان العميق :

وياله من إيمان فى قلب « أم خلاد » رضى الله عنها .. ذلك الإيمان الذى ربط الله تعالي به على قلبها .. وهى تودع أحبابها إلى حيث لايعود الذاهبون .. ثم بقيت بهذه الإرادة الصلبة . والعقل الواعى .. وهذا المنطق الحصيف .. وكان الظن أن تطير الفاجعة بصوابها .. فلاتنطق لكنها تكلمت فكانت كلماتها فصوص الحكم .

حتى البعير

وقد كان البعير على مستوى الموقف أيضاً .. حين أسرع لما وجهته إلى ميدان المعركة !!

لقد كان الجو كله معبأ بالثورة ضد الغاصب .. الخائن .. وذلك هو النصر الحقيقى .

الشوق إلي الجنة

وحين يبشرها الرسول ﷺ بأن شهداءها فى الجنة .. تثور أشواقها إلى صحبتهم فى الجنة .. كما صحبتهم على ساحات الجهاد .

ألا إن أمة تملك هذا الإيمان .. وهذا التصميم .. لن تموت أبداً .

المرأة فى مهب الريح

عن عائشة رضى الله عنها : أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق . فأعرض عنها رسول الله وقال (إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا . وأشار إلى وجهه وكفيه) [1] .

التزين فى حياة المرأة حق مكفول ، تفرضه طبيعتها كأنثى . لكن حساسية الموضوع واتصاله بغريزة عمياء .. كغريزة الجنس . يحتم علينا تحديد أبعاد هذا الحق ، حتى لا يصبح خطراً على المجتمع ، وعلى المرأة ذاتها . إذا ماأسئ استغلاله .

بل إنه قد استغل فعلاً .. ولكن على حساب كرامة المرأة .. وكان لهذا الاستغلال ماكرون روجوا له .. فركزوا على المظاهر المادية زاعمين أنها آية التقدم وعنوان الحضارة .. وحاول مسلمون غافلون أو مغفلون إثبات أن الإسلام أيضاً دين تقدمى .. ومن ثم تفننوا فى البناء .. واللباس .. تقليداً للأجانب .. ناسين جوهر الإسلام الذى يؤكد ان التقدم فى منهجه هو التقدم المعنوى .. المتمثل فى الأخلاق النبيلة .. والسلوك المستقيم .

وإلا .. فلو كان التقدم محصوراً فى الشارات البادية .. وماترمينا به بيوت الأزياء .. لكان عصرنا أرقى من عصر النبى ﷺ وهذا باطل .

ولقد فهم العربى بنظرته أن مقومات الشخصية هى مايملكه الإنسان من عناصر الخير .. دون غيرها مما يتنافس فيه المتنافسون .

يقول الشاعر :

نسود ذا المال القليل إذا بدت　　　مروءته فينا . وإن كان معدما

وفى الحديث الشريف معنى النصيحة المانعة من الانحراف . بتلافى الأسباب المؤدية إليه .. ومنها أن يكون لباس المرأة كثوب الرياء يشف عما تحته .

(١) رواه أبو داود فى سننه . وقال: إنه مرسل .

من أجل ذلك كان إعراض الرسول ﷺ .. كاشفاً بهذا الاعراض عن إنكاره لما يرى .. ولو كان موضوع النصيحة أسماء أخت عائشة .. وابنة الصديق .. فلا مجاملة فى الحق .

ثم يعلنه مبدأ عاماً يؤكد : أهمية ستر الجسم كله إلا الوجه والكفين .. وخاصة إذا بلغت البنت المحيض .. وهى سن خطيرة : يكتمل عندها النضج وتتفتح الغرائز الراغبة فى الإشباع .

الأمر الذى يفرض مزيداً من الاحتياط حتى لاتصير الثياب سوط عذاب يثير الغرائز .. ويسيل اللعاب .. ويجعل من المرأة شبكة تصطاد الذباب الحائم .. إرضاء لحاجات تبلغ قمتها فى هذا الأوان .

والنصيحة بهذا المعنى : نعمة من نعم الله تعالى علي المرأة .. وعلى الرجل علي سواء .

ذلك بأنها تنصف المرأة من نفسها .. أولاً .. وممن ظلموها ثانياً .

لقد ظلمت المرأة أولاً .. من قبل العربى البدوى الجاهلى .. ثم ظلمت ثانياً على يد من دللوها فأضلوها اليوم .

فأما العربى : فكان خشن الطبع .. قاسى الانفعال .. منزهاً عن الطراوة والميوعة .. غيوراً على عرضه .

ثم رأى فى المرأة مايناقض طبعه الأبى من : الليونه .. والضعف .. والكيد .. وبدل أن يرحم هذا الضعف .. أسف فى ظلمها فحط من قيمتها .. ووأد إمكاناتها فى كيانها .. قبل أن يئدها هى حية فى التراب .

أما اليوم : فقد دللها المغرضون .. فأفسدوا أنوثتها .. ثم أفسدوا بها الحياة التى لاتصلح إلا بها .

فلما جاء الإسلام .. أنقذ كرامتها وأنوثتها بمثل هذا التوجيه النبوى الكريم لتظل ملكة متوجة على عرشها .. جديرة بالحياة التى لاتصفو إلا بها .

توارت البسمة المضيئة :

واختفت الكلمة الوضيئة .. حين نضب معينها الرائق فى قلب زوج يقضى جل ليله خارج البيت .. راصداً وقته الخصيب لرفاق الليل .. مستبقياً للبيت أعصابه المشدودة .. وصمته المريب .. فى مواجهة زوجة .. كانت .. فأصبحت كانت ريحانة تشم .. فصارت مشكلة تطلب الحل ؟

كان يغار عليها من هبة النسيم .. فصار يغير عليها كأنما هى الغريم المقيم ؟ وأصبحت المرأة الجميلة .. المطيعة .. كأنما هى ظل كالح يرتجف بارتجاف الذبالة على حائط جدار !

باختصار :

صارت فى حياته « مجرد امرأة » تعد الطعام .. وترعى البيت .. لا زوجة يسكن إليها ويحس بوجوده إلى جانبها .. كما تشير الآية الكريمة التى معنا :

﴿ **وإن امـــرأة خـــافت** ﴾ ولم تقل وإن زوجـــة خـــافت .. وصـــار هو بالنسبة لها ذلك السيد الامر الناهى .. المستغنى بماله وقوته عنها .

كما يفيد التعبير بقوله تعالى ﴿ **من بعلها** ﴾ بدل « من زوجها » والبعل هو النخل الذى يمتص الماء بعروقه من الأرض مستغنياً عن البستانى !!

واقعية الحل الإسلامى :

يقوم الحل الإسلامى هنا على ركيزتين :

الأولى : جماعية القيادة فى سفينة واحدة على أثباج بحر غاضب .. فمن حق الزوجة أن تتعاون مع زوجها بحثاً عن حل ينقذ السفينة من غرق لن يستثنى منه أحداً . إن للسلطان نشوة تستخف أصلب النفوس كما تستخف الخمر أقوى الرؤوس .

وإذن فليس هناك رجل مهما بلغت حكمته . أو قوة خلقه جديرا بأن يؤمن على سلطان مطلق .

الثانية : أنه لايفرض الحب بالقانون على كلا الزوجين . فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن .. لكنه فقط يثير في أعماق النفوس بقايا من الود القديم مبعثرة هنالك في الحنايا ، يوقظها .. لتتنامى وتبعث من جديد .. فإذا لم يكن حب .. فما كل البيوت بنيت على الحب ويكفى المروءة حارساً على البيت !

وكما قيل : فإن الحب بين الزوجين ليس شيئاً مثل الجواهر نضعه فى الصندوق ثم نعود إليه لنجده كما هو دائم التألق والبريق .. ولكن الحب كالحياة ، تنضجه التجربة .. ومالم يتجدد بالمعاناة يصبح بركة آسنة !

والخصام حينئذ يعنى شعور كل طرف بالآخر .. أما الجمود .. فهو المشكلة !

متى تكون مبادرة الصلح :

﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً** ﴾ لاينبغى للزوجة أن تبنى قرارها على مجرد الوساوس .. جاعلة من الحبة قبة .. طالبة انعقاد جلسة الصلح لمجرد إحساسها بانصرافه عنها .. ولذلك تقول الآية الكريمة ﴿ **وإن امرأة خافت** ﴾ .

وهنا فعل مقدر هكذا : (وإن خافت امرأة من بعلها .. خافت)

أى إن خافت .. يعنى خافت .. بناء على أمارات قوية تؤكد انصرافه عنها وإخراجها من دائرة اهتمامه .. وإلا .. فقد يكون للإعراض أسبابه التى لاتكون الزوجة واحدة منها .

فقد يكون الزوج سياسياً .. أو مصلحاً اجتماعياً .. أو عالماً .. أو مخترعاً وعندئذ فلا جرم أن كان عمله شاغلاً له .. حتى عن الاهتمام بنفسه شخصياً .

ماذا تخاف؟

يلاحظ هنا أن المخوف من قبل المرأة هو :

النشوز .. وهو التكبر عليها .

والإعـراض .. وهو النفـور منهـا والتـبـرم بهـا ، وقـد يكون شغـلاً بمشروع زواج جديد .. أما فيما يتعلق بالزوج فإنه يخاف - كما ذكر فى سورة النساء قبلا - يخاف النشوز فقط .. أما إعراضها عنه إلى رجل آخر .. فمستحيل مادامت عقدة النكاح قائمة !

ويعنى ذلك أن مجـرد الخوف وإن أباح لها أن تصلح من أمـرها مع زوجها إلا أنه لايبيح لها بحال أن تعرض عنه ولو شعورياً إلى آخر .. فما تزال فى عصمة زوجها .

الصلح المنشود :

ولابد أن يكون الصلح المقترح صادق الدوافع ، شريف الأهداف .. أعنى صلحاً موثقاً .. مستفيداً من تجارب الماضى .. متجاوزاً عثراته وسلبياته .. فراراً من النكسة التى قد تبلغ بهما إلى طريق مسدود .

وذلك قوله تعالى : ﴿ **أن يصلحا بينهما .. صلحا** ﴾

فالتعبير بالمفعول المطلق (صلحاً) يؤكد ضرورة الجدية فى تناول الأمور على أن تكون المبادرة نابعة من إحساس مشترك بالخطر المحدق بهما .. وبأولادهما .. هذا الخطر الذى إذا نزل بساحتهم فلن يستثنى أحداً .

والصلح خير :

فى فترة الخطبة : يتكلم الشاب ، وتصغى الفتاة ، وعند الزواج .. تتكلم العروس ويصغى العريس أما بعد ذلك : فيتكلم الزوج والزوجة . ويصغى الجيران !!

وحماية للأسرة من القيل والقال .. ندرك إلى أى حد يكون الصلح خيراً - حين تهدأ به العاصفة .. وتستأنف الأسرة سيرها بنجوة من ألسنة السوء .

أبعاد الخيرية :

إلى جانب ذلك فالصلح خير : للزوجة .. وللزوج .. وللذرية .. ثم للمجتمع الواسع .

أما أنه خير للزوجة :

فإن ظل رجل .. ولاظل حائط كما يقولون .. وإذا كان شعاع الشمس يعانق البسيطة كل يوم .. ونور القمر يقبل وجنة المحيط كل ليلة .

فلا قيمة لهذا كله فى غياب الزوج الساتر .. الحامى .. المانع من تسرب الأسرار إلى الأم وإلى الشارع .. فيتسع الخرق على الراقع .

وخاصة إذا عادت هذه الأسرار إلى سمع الزوج مضروبة فى عشرة .. ولن تزيده حينئذ إلا نفوراً .

وقد كان لأبى السائب زوجة شيخة . وكان له منها ذرية ، فلما هم بطلاقها طلبت منه أن تبقى فى ظله لتربية أولادها . فوافق على ذلك .

ولقد كانت هذه الزوجة واقعية حين اختارت أن تعيش زوجة لغة .. لا اصطلاحاً .. ورضيت لزوجها أن يتزوج شابة إن زحزحتها عن مكانتها الأولى .. فقد أتاحت لها فرصة تربية أولادها فى كنف أبيهم .. بدلاً من الطلاق البغيض فى حس العربى الذى قد يؤثر الزواج من المشركة التى تعلن إسلامها .

وهو مستعد أن ينسى آثامها .. الماضية .. أما المسلمة المطلقة فقد تلاحقها الشائعات فتغشيها بما يزهد فيها الراغبين .

وصحيح أن حياتها مع ضرتها لاتخلو من المتاعب .. ولكن ألا تعلم أن المتاعب جزء من حياة الإنسان ، وإذا لم يقتسم المرء المتاعب من شريك حياته فمن الذى يقبل هذه القسمة ؟ الجيران مثلاً ؟

ذلك مالايكون .

وعلى الزوجة أن تتحمل نصيبها من الهموم .. وعسى الله أن يأتى

بالفتح أو أمر من عنده .. ومن المفيد أن نقدم لها واحدة من حكاياتنا الشعبية .. فإن لها من الإشارات مايغنى عن العبارات .

حليمة والأسد :

تقول الحكايات الشعبية السودانية : إن « حليمة » أحست بأن زوجها « مرجان » بدأ يهملها ويقسو عليها بعد أن كان يحبها ، ويهتم بها ، فذهبت إلى حكيم القرية تطلب منه المشورة لتسترد اهتمام زوجها لها ، فطلب منها الحكيم أن تحضر ثلاث شعرات من أسد حى. ليساعده ذلك على تحقيق مطلبها . وفكرت « حليمة طويلاً » .

وأخيراً خرجت إلى الغابة ومعها « خروف » صغير ، وعندما قابلت الأسد تركت أمامه الخروف فأكله ، ولم يقترب منها .

وكررت حليمة نفس العملية عدة أيام ، إلى أن اطمأن الأسد إليها ، فسمح لها أن تجلس آمنة بجواره .

وذات يوم تشجعت حليمة ومدت يدها تمسح على لبدة الأسد ، ثم انتزعت منها فى رفق الشعرات الثلاث .

ولما عادت بالشعرات إلى حكيم القرية وطلبت منه ماتعيد به اهتمام زوجها فوجئت بالحكيم يقول لها :

« إن المرأة التى استطاعت ترويض الأسد ، إلى أن انتزعت منه شعرة .. لايصعب عليها أن تروض زوجها لتستعيد حبه واهتمامه » !

أما بالنسبة للزوج :

فأنت أيها الزوج فارس الحلبة .. ومن طبيعة الفارس ألا يتحكم فيمن هو أضعف منه .

وقد ورد :

(إنى لأكره أن أرى الرجل ثائراً فرائض رقبته . قائماً على مريئته

بضربها) « يعنى المرأة » ، لأنه استضعاف لها . واستصغار . ليرى أن الباطش بمثلها فى ضعفها لئيم [1] .

إن زوجتك حرة .. فهل يصح أن تعاملها كأمة ؟

هل نسوى بين الملح .. والسكر .. لمجرد أن كلا منهما أبيض اللون ؟!

إن الحق تعالى يقول : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾

إنها - كما قيل بحق - حرة واحدة .. فى مقابل إماء بلا حصر .. فللحرية مسئوليتها وكرامتها ، ولك فى عمر رضي الله عنه أسوة حسنة.

لقد كان يلتفت إلى أصحابه فيخافونه .. لكنه فى بيته كان خلقاً آخر .. جاء رجل يشكو زوجته لعمر .. فوجد امرأة عمر مثل امرأته .. وفوجئ بالحقيقة تدمغه : يغلبن الكريم .. ولايغلبهن إلا لئيم !

فإذا اتسع صدر الزوج .. وصدر الزوجة .. وتعايشا على مثل هذا المعانى .

فإن الذرية سوف تنشأ صالحة .. وسوف يسعد المجتمع فى النهاية .. ويسمق بنيانه بهذه الأسر القوية المباركة .

وأحضرت الأنفس الشح :

كل نفس حريصة على استيفاء حقوقها كاملة .. الزوجة حريصة على حقوقها فى القسم .. والنفقة وحسن المباعلة .. والرجل كذلك حريص على حقوقه .. وهذا الحرص بنص الآية « حاضر » فى النفس لايغيب ﴿ وأحضرت ﴾ فليتذكر الطرفان ذلك .. وليسأل كل واحد نفسه:

---

(١) بصائر ذوى التمييز ج٤/٤٩٦ .

هل يتنازل عن حقوقه بسهولة ..أم أن جواذب النفس تشل حركته وتنازعه ؟ فإذا استبان ذلك الحرص .. فليعذر كل واحد رفيقه .. من حيث كانت الطبيعة واحدة !

الأفق العالى :

وإذا كان الإسلام فى علاجه مشكلات الأسرة واقعياً يقدر الفروق التى لابد منها .. فإنه يلوح لكلا الزوجين بالارتفاع إلى آفاق الإحسان .. والتقوى :

﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [1]

أما بعد :

فيا أيتها الزوجة :

كانت المحامية الكبيرة « مفيدة عبد الرحمن » تخرج من بيتها لتلتقى مع رؤساء دول فى مؤتمرات دولية تحسن استقبالها .. وكانت تقول :

كنت أمسح حذاء زوجى قبل أن أخرج برغم وجود الخدم فى البيت فأصد بذلك رياح غرور يمكن أن تهب على نفسى فى مثل هذه المناسبة .. ولأعلمه دائماً بأننى زوجة مطيعة قبل أن أكون محامية كبيرة ..

وأنت أيها الزوج :

إن نصف النهار عندك .. ونصف الليل عند غيرك .. فلا تسوقن الزمن بعقارب ساعتك !!

---

(١) سورة النساء « ١٢٨ » .

كيف ربى الرسول أصحابه

عن النعمان بن بشير : أن أباه أتى النبى ﷺ . فقال : إنى نحلت ابنى هذا غلاماً كان لى . فقال رسول الله ﷺ : أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟

فقال : لا .

فقال ﷺ فارجعه .. رواه مسلم .

تمهيد :

يحرص الإسلام على تقوية الروابط الاجتماعية وتنميتها بوسائله المختلفة والتى منها : الهبة ..

وللهبة جوانب متعددة تتحقق بها المحبة :

جانب مادى : يحقق المنفعة واليسر للمهدى إليه .. فهى صورة من التعاون على البر والتقوى .

جانب نفسى : فهى تذهب بالشحناء .. وفى نفس الوقت تستجلب المودة .. ولها بالإضافة إلى ذلك معنى التقدير للموهوب له .. حين تصبح رمزاً لصداقة يجب أن تدوم .

وكلما كانت الهبة بسيطة .. بلا تكليف .. خفيفة الحمل .. كلما كان رصيدها من المودة أوفى - لأنها حينئذ تصدر عن نفس راضية بها .

فلم تهز ميزانية البيت .. وسوف تظل مع صغرها رمزاً لصداقة لاتنفصم عراها .

ولأن الهبة عامل مؤثر فى تقوية الروابط الاجتماعية .. فإن الإسلام يحض عليها .. ولو كانت شيئاً تزدريه العين :

يقــول ﷺ : « يانساء المسلمات : لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاه» رواه البخارى .

ثم هو - وبنفس القوة - ينفر من الرجوع فيها .

لماذا ؟

إنه التقدير للعلاقات الاجتماعية أن تظل متماسكة متآلفة مع الأيام :

ذلك بأن رجوعك فى الهبة - إذا كانت للأجنبى - معناه :

١ - أنك تسحب ثقتك به . وتقديرك له .

٢ - وبعد أن يكون قد رتب حياته عليها .. ودخلت الهبة فعلاً فى نسيج حياته .. تستردها أنت فتنقض غزله من بعد قوة أنكاثاً !!

وكان من الممكن ألا تهدى ابتداء .. وإذن - فلن يكون هناك رد فعل .. أما وقد وهبت .. ثم انسحبت فإنك تعرض العلاقة لخطر يعود بها أضعف مما كانت .. قبل الهبة !

ثم إنها - من ناحية الواهب - تردد ذميم يفقد الشخصية احترامها .. من أجل هذه الأسباب جميعاً نفر الإسلام من الرجوع فى الهبة إذا كانت للأجنبى .

وقبل أن يتورط الواهب فيحاول الرجوع .. يردعه بقوة عن طريق هذه الصورة البيانية التى من شأنها الفرار بالنفس حتى لاتقع فى هذا الخطأ الجسيم .

يقــول ﷺ « العائد فى هبته كالكلب : يقئ ثم يعود فى قيئه » ولك أن تتصور بشاعة الموقف إذا ماتأملت أبعاده .

إن العائد فى هبته :

أولاً : كالكلب .. لاكالثعلب مثلاً !

ثانياً : إنه كلب يقئ .. ولايأكل !

ثالثاً : ثم يعود إلى قيئه مرة أخرى .. يلغ فيه !!

ولك أن تتصور نفرة الناس من هذا المشهد وتفرقهم عنه .. تماماً كما يفعل الرجوع فى الهبة حين يقطع الروابط .. ويفرق الجماعة .

الهبة للولد :

وإذا حرص الإسلام على تقوية العلاقات الاجتماعية فهو أحرص على تقويتها داخل الأسرة .

إن الخلاف بين البعداء وقد تحتمل مرارته من حيث لاتشتبك مصالحهم إلا نادراً .

أما تحت سقف البيت .. وفى حياة الوالدين .. فإنها المعركة المنتهية حتماً بهزيمة الفريقين !!

من أجل ذلك يحبذ الإسلام الهبة للأجنبى استجلاباً للمحبة .. ثم يستبقى هذه المحبة ذاتها حين يكره هدية الوالد لولده دون بقية إخوته .. ويحبذ الرجوع فيها .

إن التوجيهين كليهما .. يخرجان من مشكاة واحدة .. مشكاة النبوة الراشدة المبقية على الأخوة أن تذهب بها رياح الطمع .

قصة حديث النعمان :

نبتت فكرة تخصيصه بهبة فى ذهن أمه كما تقول رواية : أن أم عمرة بن رواحة (سألت أباه بعض الموهبة ..)

(فالتوى بها سنة) يعنى : مطلقها .. لأنه لم يكن مؤمناً بفكرة التفضيل .. ثم (بدا له) أن يحقق رجاءها فاشترطت عليه أن يشهد رسول الله ﷺ ضماناً وتوثيقاً ، أى أن العاطفة الغلابة فى قلب الأم لم تفرض عليها اتخاذ القرار قبل أن يوافق رسول الله ﷺ .

موقف الرسول :

كان لابد من التحقق أولاً من سلامة هذا العطاء :

صحيح أن بعض الأولاد ينالون قدراً زائداً من التقدير فى ظروف استثنائية :

المريض حتى يشفى .. والصغير حتى يكبر .. والغائب حتى يعود .. لكن لاينبغى أن يترجم هذا التقدير إلى خصوصيات مادية قد يختل بها ميزان العدل فى البيت !

وقد يستفيد الولد من الهبة .. لكنه وإن أفاد المال .. فسوف يخسر الرجال ! وسوف يخسر الوالدان أمن البيت .. ويفلت من أيديهما الزمام .. وغداً سيخرج الأولاد إلى المجتمع بروح عدوانية لم يتمكنوا داخل البيت من التعبير عنها .. فى عملية تصفية حساب قديم ينال البيت كفل منا !

من هنا سأل الرسول ﷺ الوالد : أكل ولدك نحلته ؟

فلما تبين له أنه جانب الصواب أمره بردها .. وعزز ذلك الدرس المفيد له .. ولمن سار علي دربه واحتطب فى حبله من الآباء الغافلين .

إن المعادلة هنا واضحة بسيطة :

أيسرك أن يكونوا فى البر سواء ؟ (كما فى رواية أخرى)

قال : بلى .

وإذن .. فلابد من التسوية .. لتضمن عدلها .. براً بك .

وهكذا يربى الرسول النفوس على أوفى ماتكون الدروس : عرف دوافعها ومساربها .. ونقاط الضعف والقوة فيها .. ثم لقنها دروساً فى : العدل ..

وصلة الرحم .. حباً يجمع الاخوة فى حزمة واحدة .. ثم يفرز فى النهاية براً تسعد به الأسرة سعادة تقوى بها آصرة الزوجية . فلا يكون شقاق ولا طلاق ! ولايأخذها بهذا الأدب العالى .. تلقينا .. بل تمكينا .. بالممارسة .. لابين جدران المدرسة !

ويمضى الصبى الصغير .. النعمان بن بشير .. مع والده ذاهباً آيباً .. يعيش التجربة .. ويعى الدرس .

يرى كيف يتصرف الوالدان .. وكيف يلتزمان بأمر الرسول ﷺ .

يرى الحاكم وقد فتح قلبه وعقله لمشكلات الناس ومشاغلهم .. فاستوعبها ووجهها فى الخط السليم .. فاستبان له الخطأ كما استبان له الصواب .. حتى لايتورط مستقبلاً فى مثل ماتورط فيه أبوه .

ويتم ذلك كله فى تجاوب رائع بين البيت .. والشارع .. والدولة .. تبلغ به التجربة كمالها .

الحكم إذا وهب مثلاً :

وإذا أراد الوالد فى مثل هذا الوضع أن يصحح العمل فماذا يصنع ؟

أمامه واحد من طريقين :

١- اما أن يعود فى هبته .. ليعود الصفاء إلى البيت .

٢- واما أن يهدى لكل واحد من اخوته مثله .. جبراً للخاطر .. إذا سمحت ظروفه المادية بطبيعة الحال .

وإذا قرر الوالد أن يصحح موقفه بالهبة للجميع .. فهل يسوى بين الذكر والأنثي .

أو يعطى للذكر مثل حظ الأنثيين ؟

فى رأيى : إن تفضيل الذكر فى الميراث :

أولاً : حكم من الله .. فهو على العين والرأس ..

ثانياً : هو حكم مأخوذ فيه مسئوليات الرجولة ومجالاتها المتعددة .. والداعية إلى مزيد من الانفاق .

أما هنا : فالقضية مختلفة .. إنها حكم بشر .

ثم هو أساساً جبر للخواطر وتقدير شخص بغض النظر عن الذكورة أو الأنوثة .

وتحقيق العدل إذن يحقق الحكمة من الهبة التى يستوى فيها الجميع - فيقدمون برهم - وبنفس المقدار - إلى والد ينظر إليهم جميعاً بعين الشفقة والتقدير .

الأساس القرآني :

والأساس القرآني لموقف الرسول ﷺ واضح : فعندما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام : ﴿ **إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين** ﴾ [1] .

حكى القرآن أيضاً حكمة الوالد الخبير بطبائع النفوس : ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا** ﴾ [2]

وهكذا يسحق بناء البيت .. ويعز على الشيطان أن يحدث فيه شرخاً .

وإذ يجادل إنسان في صحة القضية معتقداً أن حقد الأخ على أخيه الممتاز غير وارد .. فإن الواقع يكذبه .

صحيح أن الأخوة لذاتها - وبفطرتها غير مجبولة على ذلك .. لكن الخطر يأتيها من خارج النفس .

﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾

هذا الشيطان الذي يوسوس للزوجة لتنغص حياة زوجها حين يظلمه أبوه ؟

والوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .. حقيقة واقعة تمارس نشاطها الهدام .. فينبغي ألا نمكنه من ذلك .. بالعدل .. كما أمر رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة سوسف « ٤ » .

(٢) سورة يوسف « ٥ » .

واجبنا اليوم :

وإذا كنا نشكو اليوم جفاء أولادنا فعلينا أن نخفف من غلوئنا عائدين علي أنفسنا باللوم والتثريب ، لأننا وضعنا الأساس حين فضلنا بعض الأبناء هكذا جزافاً على غير أساس .

فوضعنا بذرة العداوة .. التى رعاها الشيطان واستثمرها وسلط جنوده فى الأرض فسعوا لها سعيها .

فكان ماكان .. مما نصطلى بناره .. ولن تنطفئ هذه النار المشتعلة إلا بالعودة إلى سنة المصطفى ﷺ فهى مرفأ النجاة .

بر الوالدين

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : رغم أنفه . ثم رغم أنفه . ثم رغم أنفه . قيل من يارسول الله ؟

قال : من أدرك والديه عند الكبر : أحدهما أو كليهما . ثم لم يدخل الجنة)[1] .

تمهيد :

ماأكثر الذين تعاملهم فتجاملهم مجاملة ترتد إليك حباً واحتراماً .

وربما تنامى رصيدك من المعجبين بك على مستوى مدينتك أو قريتك فكنت واسطة العقد .. وزينة المجالس .

لكن هذا الرصيد من الأصدقاء - وإن دل على نجاحك - بمنطق العرف الاجتماعى - يبقى عديم القيمة - بالمنطق الالهى - إذا خسرت صوتاً واحداً يزن هذه الأصوات جميعاً .. وهو صوت أبيك .. أو صوت أمك !!

وذلك ماينبه إليه الحديث الشريف حين يلفت النظر إلى أهمية بر الوالدين وخاصة إذا وهن العظم منا واشتعل الرأس شيباً .

إن الوالد حين يكون غنياً قوياً . فإنه بغناه وقوته يدير دفة الأسرة بلا مشكلات .. فإذا انحسرت قواه .. وصار الولد هو الغنى القوى .. فإن بره حينئذ يصبح فريضة لاقيمة لعمل فى غيابها .

وفى ضوء الحديث الشريف نتساءل :

مامدى أهمية بر الوالدين ؟

وكيف دعا الحديث الشريف إليه ؟

وما هى مستوياته ؟

وماصلة هذا البر بعزة الفرد والمجتمع ؟

---

(١) رواه مسلم : كتاب البر .

أهمية البر:

تتأكد أهمية البر من قوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً** ﴾ .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً** ﴾ [(1)]

ونستبين أبعاد هذه الأهمية مما يأتي :

١- يأمر الله تعالى بالتوحيد . وبعده مباشرة يجئ الأمر بالإحسان إلى الوالدين . ومن ثم يكتسب بالمجاورة أهمية قصوى .

٢- قضية البر كقضية التوحيد لم تعد تحتمل النقاش أو المساومة فقد قضاها الله تعالى ولا معقب لحكمه سبحانه ﴿ **وقضى** ﴾ .

٣- لا يكفى فى بر الوالدين مجرد الإحسان .. بل لابد من أعلى مستوياته ﴿ **إحساناً** ﴾ .

٤- يضمر السياق فعل الأمر ﴿ **أحسنوا** ﴾ من حيث كان الإحسان إليهما فطرة تدفع من الداخل ولا تحتاج إلى أمر من الخارج .

٥- المفروض أن يعيش معك الوالدان تحت سقف واحد .. ﴿ **عندك** ﴾ ولا يكفى الراتب الشهرى تقذفه لهما من وراء ظهرك .. وفى مسكنهم المنعزل عائداً إلى أهلك وولدك .

٦- أ- لا يسمعان منك حتى كلمة أف .

ب- وابسط لهما وجهك بالرضا .. وحذار من التجهم عند أداء الواجب .. فهو يحبط هذا الواجب .

---

(١) سورة الإسراء « ٢٣ - ٢٤ » .

جـ- وإذا كان ولابد من قول : فهو قول معروف .. وكريم .

٧- ولايحملنك غناك عنهما على الترفع .. بل كن ذليلاً فى حضرتهما ذلة لاتحط من قدرك .. ذلة نابعة من الرحمة بهما .. فإذا مات أحدهما أو كلاهما فلتواصل مسيرة البر دعاءً خالصاً .

﴿ **رب ارحمهما** ﴾ رحمة كفاء ماقدموا لى فى صغرى .. وماأكثر ماقدماه .

أسلوب الحديث :

يحرض الحديث على البر بهذا النذير المدمدم :

إن قضية البر صعبة المرتقى ، فهى قصة الولد الصغير .. يكبر اليوم .. فيستدبر الحياة الغاربة : أباه وأمه .

ثم يستقبل حياته الجديدة : أهله وولده .

وإذن .. فلابد أن يكون لفت النظر قوياً .

أ- إنه يدعو بالذل والهوان جزاء من جنس العمل على من فرط فى جنب أمه وأبيه فأذلهما بعد عز .. وأخرهما بعد صدارة .

ب- ثم يكرر الدعاء ثلاث مرات تعكس بوقعها عمق الذل المنتظر .. الذى لن يكون خفيفاً رفيقاً .. وإنما هو : ذل .. بمعنى الكلمة !

جـ- ثم هو ذلك يمتد العمر كله .. بما يرسمه حرف العطف « ثم » والذى كرر أيضاً ليرسم بمعنى التراخى فيه مسار الذل المصاحب للعمر كله .. وإن طال به المدى .

د- ولايقول ﷺ ابتداء : رغم أنف الذى ادرك .. ولكنه يقطع الصمت حوله بهذه الجمل .. التى تهزم فجأة .. وكأنها منذر جيش فيذعرهم .. ليسألوا واجفين .. فيجئ الجواب ذكرى لاتنسى !

مستويات البر:

إن العيش فى ظلال الوالدين نعمة فى حد ذاته لايدرك قيمتها إلا المحرومون من هذه الواحة الظليلة.

لكن أدراكهما عند الكبر هو فرصة العمر الذهبية التى ينبغى أن تحرص عليها من حيث كانت روضة من رياض الجنة.

وإذا تنفس أحد الابناء الصعداء يوم أن خلصه الموت من والديه الكبيرين .. فما أكثر الندم من بعد أن لم يمد الله فى عمره ليضيف إلى بره أضعافه !

وإذا كان المطلوب من البر أعلى مستوياته :

فلأن فترة الضعف أحوج ماتكون إليه .. وبخاصة إذا انفرد أحدهما بعد موت صاحبه الذى كان يواسيه .. ثم هو من بعده وحيد يجتر ذكريات عزازا لا سبيل إلى استردادها مع رفيق العمر .. وشقيق الروح .. ولعل هذا سر تقديم « أحدهما » .. على « كليهما » ومايفيده التقديم من خصوصية البر بمن بقي منهما فرداً .. وبخاصة إذا كانت الأم لما لها من حقوق مضاعفة كفاء ماعانت فى تربية ولدها.

وإذا اكتفى الولد الموظف بحصة من المال يدفعها إلى والديه مطلع كل شهر فقد كان الفلاح فى قريتى أذكى منه وأعمق براً فبعد أن حدد لوالده جزءاً من التمر يوم الحصاد .. يحرص على أن يصحبه معه إلى الحق .. ثم يعطيه أجرة العمال .. ليوزع عليهم كما كان.

ثم يقدم إليه المحصول ليأخذ ماشاء .. ولن يأخذ بطبيعة الحال إلا القدر المتفق عليه .. لكن هناك ماهو أجمل من القدر المأخوذ وهو إبقاء الوالد كما كان على المنصة يأمر .. وينهى .. ويرشد ويوجه .. وتلك أعلى مستويات البر !!

وهى صورة حية تذكرنا بنماذج فريدة فى البر عصية على النسيان : (قال الإمام زين العابدين رضى الله عنه فى دعائه لوالديه : اللهم اجعلنى أهابهما هيبة السلطان العسوف . وأبرهما بر الأم الرءوف . واجعل طاعتي لوالدى . وبرى بهما : أقر لعينى من رقدة الوسنان . وأثلج لصدرى من شربة الظمآن . حتى أوثر على هواى هواهما . وأقدم على رضاى رضاهما . واستكثر برهما بى وإن قل . واستقل برى بهما وإن كثر)

البر وعزة الأمة:

إذا بقيت خليقة البر ماسكة البيت أن يزول : تواصلت الأجيال .. ورآك بنوك تبر والديك فردوا إليك الجميل .. لأنك أكرمت شيخاً هو أبوك .. ولأنك وصلت رحماً .. يصل الله من وصلها بالعون والتأييد .. هذا فى الدنيا .. أما فى الآخرة .. فأنت بخدمتهما لاتنتظر أن تدخل الجنة بعد موتك .. بل إنك ترتع فى رياض الجنة فعلاً .. والعجب ممن يفتح له سوق حافل بالخير ثم يعرض عنه مؤثراً رغبة زوجة أو ولد .. هما بهذه الجفوة عدو له .

نماذج وصور:

حمل رجل أمه العجوز . ثم طاف بها حول البيت . فلما سأل ابن عمر رضي الله عنه : هل وفيتها حقها قال له : لا .. ولا بطلقة واحدة !

إن لحظة واحدة من الألم أثقل فى الميزان من رحلة ألف ميل .. تحمل فيها أمك العجوز .. إلى بيت الله الحرام .. وفى درجة حرارة عالية .. إلى جانب وعثاء الطريق .. كل أولئك لايساوى لحظة واحدة من ملايين اللحظات عانتها فى سبيلك .

ورحم الله « كهمس بن الحسن » كان عاملاً بأجر لايتجاوز الدرهم .. ولكنه ظل قانعاً بنعله القديم .. وثوبه المرقع عائداً لأمه آخر النهار بأجره اليومى قانعاً بالخبز الجاف وحصاة الملح .

ورأى فى البيت عقرباً .. فلما أراد قتلها .. هربت منه إلى جحرها . فأدخل يده فى الحجر ليخرجها .. فلدغته . فتورمت يده . ولما سئل عن ذلك قال : خفت أن تخرج العقرب من جحرها فتلدغ أمى !

وما أكثر الذين يلدغون أمهاتهم اليوم بعقارب من زوجات مستهترات لاتعن أزواجهن على بر الوالدين .

ثم لاينقضى العمر حتى يصيب الله الأسرة بالعذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر جزاء وفاقاً لتصرف زوجة جعل الله بيتها جنة فى حياة أم كبيرة السن واهنة العظم . فحولته بسوء اختيارها إلى جحيم لايطاق .. ثم تتساءل هذه الزوجة باكية عن سر هذا الشقاء الذى صنعته بيديها .. ويجيئها الجواب قبل أن تموت :

لطمة من زوجة ابن من نفس النوع تذيقها وبال أمرها وتجرعها من نفس الكأس علقماً !!

وعلى مثل هذه الزوجة إدراك حقيقة أشار إليها بعض العلماء : إن لزوجك مئات من النساء يصلحن له زوجات ولكن ليس له إلا أم واحدة .. فلا تحرميه من فرصة العمر .. ومن لاخير له فى أمه .. لاخير له فى أهله ولا فى ولده . أو مجتمعه .

زينب بنت جرير
وقصة زواج ناجح

لعل الشعبى كان يبحث عن زوجة يكمل بها دينه .. وتستقر عندها بلابل أفكاره .. ليضع حداً لحياة أسرف فيها على نفسه .. فضيع شباباً .. وتحمل عذاباً .

وانه كذلك فى دوامة الشجون .. يقدم رجلاً . ويؤخر أخرى .. إذ ساق القدر إليه صديقه القاضى « شريح » وفى لقاء ودود .. يسترجع القاضى ذكرياته . ثم يهديها إلى صديقه الشعبى نصيحة غالية .

قال « شريح » ياشعبى : عليك بنساء بنى تميم !

وقبل أن يتساءل الشعبى عن السر وراء هذا الامتياز .. يبادره شريح قائلاً : فإنى رأيت لهن عقولاً . ولكن : مامظهر هذا العقل ؟

من الجائز أن يكون القاضى البصير قد خدع بمثل من خدع بها الشاعر القائل :

هيفاء : فيها إذا استقبلتها صلف .·. عيطاء غامضة الكعبين معطار ؟

لعله وقع فى أسر واحدة من هذا النوع : تمشى فى صلف وكبر .. تزحم بعنقها الطويل هذا الفضاء .. يحملها كعبان سمينان .. ووراءهما اللحم المكتنز .. يفوح من حولها عطر فواح أذهب عنه رشده .. فوقع فى شر عمله ؟

من أجل ذلك يتساءل الشعبى : ومارأيت من عقولهن ؟

ويبدأ القاضى شريح يقص علي رفيقه قصة زواجه ، والتى خاضها بنجاح .. ونجلس مع الشعبى .. نستقبل وقائعها .. لابآذاننا .. ولكن بكل منافذ الحس فينا .

قال القاضى شريح :

أقبلت من جنازة ظهراً . فمررت بدور بنى تميم . فإذا بعجوز على باب دار : وبجانبها جارية . كأحسن مارأيت من الجوارى . وشدنى حسن الجارية إليها . فطلبت منها شربة ماء ! وما بى من عطش !!

وقالت العجوز للفتاة : ائتيه ياجارية بلبن .. فإنى أظن الرجل غريباً . وقالت للعجوز : ومن تكون هذه الجارية ؟

قالت : هى زينب بنت جرير . من بنى حنظلة .

ولما علمت أنها فارغة بلا زوج . أبديت رغبتى فى زواجها .

الطريق إلى السعادة :

ثم عدت إلى منزلى . وأردت النوم .. فامتنع النوم عن عينى .. فلما صليت الظهر أخذت بيد بعض إخوانى من أشراف العرب . لأطلب يدها من عمها وفعلاً وافق . وتمت مراسم الخطبة .

ونترك « شريحاً » يغمض عينيه سابحاً فى أحلام يقظته .. يرسم بخياله الطليق عش المستقبل .. فى معية الجارية الحسناء : زينت بنت جرير .. نتركه إلى حين حتى نسجل انطباعاتنا حيال هذا الموقف .. ومافيه من دروس لكل راغب فى الزواج من شباب اليوم .

ماذا حدث هنا ؟

شاب يمضى فى الطريق .. فيأسره جمال الفتاة الطاغى .. فيمس قلبه .. فتتفتح مغاليق هذا القلب .

فهل كان القاضى شريح يملك زمام قلبه .. فيمنعه من الإعجاب بالجارية ؟ أبداً ..

لقد نظر النظرة الأولى .. فأحب .. ففتن .. ووقع بهذا الإعجاب تحت سلطان فطرة غلابة تطلب الإشباع على سنة الله ورسوله ﷺ .

إن الرجل هنا لم يكن يملك الفكاك من الأسر .. ولكن الذى يملكه هو الطريقة التى يعبر بها عن هذه العاطفة المشبوبة ؟

فهل يعبر عنها بموعد غادر .. هناك فى الشوارع الخلفية بين أطباق الظلام ؟

أم هل يفرش الطريق بالوعود الكاذبة يصبها فى سمع فتاة بريئة .. ضعيفة المقاومة فيظلل سماءها بألوان من الوعود بارقة .. فتنهار مقاومتها لتصبح من بعد جيفة يلفظها الموج على شاطئ الغرام ؟!

لم يفعل الشاب العربى المسلم ذلك ولكنه اختار فى التعبير عن عاطفته مايليق بنخوة العروبة .. وعزة الإسلام .

وجهة الشاب المسلم :

ماذا فعل الفتى .. العربى المسلم ؟

كيف تصرف فارس الاحلام القادم من بعيد على الطائر الميمون ؟

لقد اختار الطريق اللائق بعروبته واسلامه إنه يقصد إلى العجوز.. يحدثها .. فى شأن الجارية .. ولايقصد الجارية نفسها .. فما يليق به أن يحدثها .

ثم يطرح سؤلاً محدداً : هل هذه الفتاة متزوجة ؟

إنها إذن قضية رابطة أبدية يراد لها أن تكون .. وأن تدوم .. وليست هى التلاعب بسمعة الكرام .. والمتاجرة بشرف الأبرياء الأصفياء.

وتجئ تحية الضيف لبنا .. خالصاً .. سائغاً للشاربين .. ودليلاً للطالبين أيضاً يؤكد يقظة أهل الفتاة الذين اختاروا لها العجوز .. تلك الصاحبة المأمونة .. الكريمة .. الوفية .. ولم يتركوا للبنت حبلها على غاربها ، وعلى حل شعرها .. ليتسرب الإباء والصفاء من قلبها فى خضم علاقات .. تفضى إلى الهاوية .

ويعود الفتى إلى بيته .. ليستصحب مجموعة من أشراف العرب .. ليكونوا شهوداً على العهد . فما يكون له أن يستقل فيه بقرار . ثم يقصد إلى عمها يطلب يدها .

ولاينسى الفتى المؤمن أن يصلى الظهر .. وفى هذا الجو المشحون بالانفعالات .. وهكذا يكون الفتى .. قلبه يحب .. وعفته فيه .. ودينه !

العاشقون اليوم :

وإذا كان العاشقون اليوم .. يجعلون من تركهم للصلاة شعاراً تحررياً يبعدهم عن الله تعالى .. ويقربهم من قلب المحبوب !! وإذا كانوا يضنون بركعات مباركات حتى لايتبذل الهندام المنسق . بالوضوء .. والركوع والسجود

وإذا كـانت البـدايات دليـلاً على النهـايات .. فـقـد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خـاشـعـون .. وقـد خـاب الفـارغـون الذين خطوا سبيلهم إلى الزواج على حفرة عـميـقـة .. مغطاة بالورد .. وسـوف يقع فيها الجواد المنطلق علي غير هدى !

وتلك عقبى الذين أعماهم الجمال .. عن الكمال .. فلما انكشف المخبوء ماذا حدث ؟؟ بعدما شف ثوب الرياء عما تحته ؟

تراكمت الأخطاء .. الخطأ الثانى .. فوق الأول .. والثالث فوق الثانى .

فصارت الأخطاء جداراً عاليـاً .. فصل بين الاثنين .. فأخفى كل واحد من الزوجين وراءه .. فلم يعد يراه .. كما كان يراه من قبل واختفى التفاهم فكان الشقاق .. ثم الفراق .

بين الجمال والكمال :

إن الذين يحكمون الجمال والمنصب .. لايحتـرمون أنفسهم .. كما لايعترفون بكرامة المرأة .. لأن الإعجاب المنصب على الشارة البادية .. يتجاوز فضائل الإنسان .. فلا يكون لها حساب .

ومن ثم .. لاتجد الأسرة أصولاً تستند إليها .. لتستقر وتستمر بينما الفتى شريح ينفذ من خلال جمال الوجه إلى جمال الروح .. فوقع على الكنز الغالى .

وهكذا غالى أسلافنا الصالحون بقيمة المرأة .. فهدوا إلى البيت السعيد والذكر الحميد .. وصاغوا بذلك المثل الأعلى فى تقدير المرأة على نحو حمل النساء الاجنبيات على المطالبة بمثل ماحظيت به الزوجة فى ظل الإسلام .. وقد نقلت الأنباء إلينا قصة المرأة فى فرنسا .. والتى تطالب باحتفاظها باسمها بعد الزواج أسوة بالمرأة المسلمة .. بعد ماسبقتها إلى ذلك دول أخرى تأسأ بالإسلام الذى صاغ أبناءه على مثل شخصية القاضى شريح .. والذى ظفر بذات الدين فعاش فى ظلها قرير العين .. رضى الفؤاد .

المشكلة.. والحل:

بعد أن تمت مراسم الخطبة فوجئ القاضى « شريح » بعاصفة من الندم.

وتطالع منه اليوم وجهاً صارم القسمات .. لقد توارت الابتسامة .. وبدأ الهم الطارئ يلملم أشعتها من صفحة الوجه البشوش.

ماذا حدث ؟

يقول القاضى شريح : « ياويحك ياشريح من كبرياء بنى تميم !!

ماذا دهاك فأوقعك فى هذا الفخ المنصوب ؟!

وهم الرجل بحسم القضية .. وأوشك أن يطلقها قبل الدخول .. ولكن ماذنبها ؟ ومن الذى يتحمل نتيجة هذا التصرف الأرعن ؟

ألم يتذكر كبرياء بنى تميم إلا اليوم ؟ وبعد أن شاع أمر الخطبة وذاع ؟ وماذا تقول زميلاتها المنافسات لها ؟

كان عليك أن تفكر قبل أن تتجشأ اللبن من يد الجارية .. حتى لاتفتح عليها باباً تعرج منه إلي هم مقيم.

إن للناس ألسنة .. ولديهم الاستعداد إلى تصديق كل شائعة .. عن ذات النعمة المحسودة .. وبخاصة زميلاتها.. مادام الذى يسمعنه أسوأ شئ !! وليس أسوأ من فسخ الخطبة بلا سبب معقول !

إن أجمل أيام العمر.. تلك اللحظات الأولى .. والمفروض أن الإقبال فيها من الجانبين يكون شديداً .. فإذا سمحت للأوهام أن تهدم الصرح المتعالى .. فقد فتحت علي المسكينة باباً ذا عذاب شديد .. يلفح وجهها .. ظلماً وعدواناً.

وصحيح انك ياشريح خضت من قبل تجربة زواج فاشلة .. وتخاف أن تتكرر المأساة .. من وراء هذا الكبر الموروث بين نساء بنى تميم .. ولاتريد لحياتك أن تظل شقاء موصولاً.

ولكن ماذنب هذه الفتاة المسكينة .. التى لم تشدك من بيتك لتخطبها ؟

ماذنبها إذ تحاول الآن إسكات الدفوف التى تعلن البشر الذى تتجاوب أصداؤه فى جنبات الوادى ؟

ثم تطفئ القنديل المتوهج فى عين فتاة تعيش أجمل أيام حياتها .. لتجعل حياتها عذاباً موصولاً ؟

ولعل أفكاراً من هذا النوع تتواثب فى قلب الفتى .. ولكنه فى النهاية يستجمع قواه ثم يحسم الموقف بهذا القرار المنصف الجرئ .

قال : (لا .. ولكن ادخل بها . فإن رأيت ماأحب . فبها . وإذا .. أطلقها)

وجاءت ليلة الزفاف .. وقام ليقتدى برسول الله ﷺ .. فيصلى ركعتين .. ويسأله تعالى من خير الزوجة .. ويتعوذ من شرها .

وقال : (فتوضأت .. فإذا هى تتوضأ بوضوئى .. وصليت .. فإذا هى تصلى بصلاتى)

وهكذا ظهرت تباشير الفجر الصادق .. وبان الجواب من عنوانه .. وأعلنت التجربة بواكير النجاح .. ودلائل التوفق.. عندما انضاف جمال النفس .. إلى جمال الوجه .. فتمت النعمة كمالاً .

فى اللحظة التى يجمع فيها الزمان :

يقول الشعبى .. فى لهجة لاتثير الشهوة .. بقدر ماتثير الاحترام .. قال : (فلما خلا البيت .. دنوت منها . فى محاولة لمداعبتها ..)

فماذا فعلت الزوجة الإنسان .. مع زوجها الإنسان ؟!!

قالت له : اصطبر .. ياأبا أمية .

هكذا قالت : اصطبر .. ولم تقل : اصبر ..

فالموقف الحساس هنا يحتاج إلى الاصطبار .. ومايشعر به من مقاومة .. فالمقام للفعل « اصطبر » .. لا « اصبر » .

ثم تحاول إيناسه .. بندائه بالكنية : يا أبا أمية !

ثم ارتجلت خطبة تخرس ألسنة الخطباء .

عندما تدل البداية
على النهاية

براعة الاستهلال :

فى الليلة التى يجمع الزمان .. ليكونها .. فى ليلة الزفاف .. ارتجلت العروس « زينب بنت جرير » خطبة قالت فيها :

الحمد لله .. أحمده واستعينه .. وأصلى على محمد وآله .

أما بعد :

فإنى امرأة غريبة .. لا علم لى بأخلاقك فبين لى ماتحب فآتيه وما تكره فأجتنبه .

حيث قد سبق لك زواج وسبق لى أيضاً مثل ذلك .. ولكن .. إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً .

وقد ملكت .. فاصنع ماأمرك الله تعالى به، إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان . واستغفر الله لى ولك ولجميع المسلمين .

وتأمل معنى هذا الاستفتاح بالذى هو خير .. وأى خير أعظم من عهدها الوثيق أن تكون رهن إشارته .. وخادمته فى بيته .. وأى دليل على صدقها آكد من صراحتها لما ذكرت تجربتها الفاشلة مع زوج سابق .. لم تدنس سمعته بكلمة واحدة .

ورجعت أمر طلاقها منه إلى مشيئة الحق تعالى .. والذى قضى أمراً .. فكان مفعولاً

وأى درس أبلغ من هذا الدرس ، الذى أكد لشريح .. وأمثاله ممن فشل زواجهم الأول .. إن الزوجة الأولى .. كانت تمهيداً للثانية . والزوج الأول كذلك .. والمرارة التى يلاقيها الطرفان أولاً .. هى التى تجعل للحياة مع الزواج الجديد قيمة .. ولو علم الأزواج مافى تدبير الله تعالى من حكمة .. لما كان فى الأرض متشاكسون وحين يتفرقان يغنى الله كلا من فضله جزاء صبره .

ولو علم المطلقون حكمة الله فى الفراق .. لما تناكروا .. ولا تدابروا .. ورضى كل طرف بدرس يمهد الله تعالى به للقرار.

فلقد كان الزواج الأول .. جسراً .. لابد من عبوره .. إلى جنات وعيون.

وهكذا :

أحس شريح بلطف الله تعالى .. وإذا هو أمام جليس صالح ، يسرى إليه صلاحه بالعدوى .. ثم إلى ولده من بعده.

إنه ليس جليساً فقط .. ولكنه الخليط .. والرفيق على درب الحياة .. فى رحلة العمر الطويلة.

وها هى ذى صاحبته : تصلى خمسها .. وتصوم شهرها .. وتحفظ فرجها .. وتطيع زوجها .. وبهذه الطاعة يناديها صوت من الملأ الأعلى : ادخلى من أى أبواب الجنة شئت.

وطبعاً .. لن تدخل الجنة وحدها .. ولكن معها صاحبها الجدير بالجنة مثلها بعد أن اختار الزوجة التى سوف تحيل البيت إلى جنة من جنات الدنيا .. قبل أن تدخل جنة الآخرة.

وكأنى بشريح القاضى .. وقد امتزجت فى عينيه دموع الفرح .. بدموع الأشجان .. ومن خلال الدموع يرى الفردوس الموعود .. تفتح أبوابه زوجة تقرر فى الليلة الأولى أن تختار شرف الصبر على طاعة زوجها .. تاجاً يزين جبينها.

وإنه لدرس بليغ لكل قادم على مشروع زواج .. ليتحرى رشداً .. حتى يقع على ربوة ذات قرار ومعين.

أى أن عدوى الأخلاق .. أسرع .. وأبقى أثراً .. من عدوى الأبدان .. فعل كل من يطلب الزواج أن يبتعد عن مصاحبة من لادين لها .. مهما كان مركزها الاجتماعى.

ذلك بأن الأشرار يهلكون من يصاحبهم .. بما ينضح عليهم من خطاياهم .. بقدر ماتكون صحبة الصالحين .. فرصة تنطبع فيك أخلاقهم .. وتتسع دائرة الخير من نفسك .. بمعاشرتهم.

فإذا كان الصاحب زوجاً .. كان الأمر على غاية ماتكون الدقة فى الاختيار كفاء ماتحققة الصحبة المديدة من آثار.

الاستفتاح بالذي هو خير

فى زواج « شـريح القـاضى » من « زينب بنت جـرير » كـانت كل الدلائل تشير إلى توفر عناصر التوفيق .

لم تكن زينب من هذا الصنف الذى وصفه أعرابى اكتوى بناره :

كلامها وعـيـد .. وصوتها شـديد .. تدفن الحسنات .. وتفشى السيئات .. تعين الزمان على بعلها .. ولاتعين بعلها على الزمان .. تبكى وهى ظالمة .. وتشهد مع أنها غـائبـة .. لم تكن زينب من هذا الصنف المشاكس .. ولكنها كانت ذات الدين ، تمضى مع رفيق العمر على الطريق.

وعلى الجانبين .. وعلى قارعته موانع .. وعقبات ولكنها معه وبه تقتحم العقبة .

فكانت تلك الزوجة الوفية التى تقول لزوجها : صحيح أن أمامنا عقبات .. ولكن .. تعال .. فقد حجزت لك فى قلبى إقامة دائمة .. فهل تأتى .. لأضع رأسى على صـدرك .. فى لحظة لا أخـاف فـيـهـا من المستقبل.

وتضع رأسك على صدرى في لحظة لاتندم فيها على مافات .. قف إلي جانبى .. ودلنى على ماتخاف .. ومن تخاف .. حتى نواجهه معاً !

ويعجز البيان عن تصوير هذه العواطف الأصيلة .. بين زوجين .. وينوب عنا شاعر حكيم يصوغها كلمة باقية يهديها إلى شريكة العمر .. حين قال :

إن الهوى لو كان ينفذ فيه حكمى أو قضائى

لطلبتـه وجمعته من كـل أرض وسمـاء

وقسمته بينى وبين شقيق روحى بالسواء

لنعيش ماعشنا على عهد المودة والصفاء

حتى إذا متنا جميعاً .. والأمور إلى فناء

مات الهوى من بعدنا .. أو عاش فى أهل الوفاء

لقد بدأت « زينب » حياتها بالاستغفار .. كما أمر القرآن .. ومن بعد الاستغفار يكون الغيث المدرار .. كما وعد القرآن .. وقد تمر الأسرة بأزمة .. ولا يجد البيت ثمن الدقيق يوماً فى وقت يفيض المال بين يدى أسرة غنية .. لم ترطب لسانها بالذكر .. ولكن مايغنى الدقيق .. عن صلاح الرفيق !

الميثاق الغليظ :

إن الزواج عهد .. وعهد وثيق .. يراد به بقاء النوع .. واستكمال حكمة العمران .. ولن يكون كذلك إلا إذا أسس على تقوى من الله ورضوان .

وحين تنكبت الإنسانية الطريق السوى .. ذاقت وبال أمرها .. لقد كان هناك زواج بلا مودة ولا رحمة ولا حب .. فنبت الحب هناك بلا زواج !

وفى تلك البيئات التى أدارت ظهورها لهدى الإسلام سمعنا عن آباء لم يترددوا فى قتل أولادهم .. لأنهم يشكون فى صحة نسبهم إليهم.

إن المرأة هناك لم تبدأ بطلب الحرية .. ولكن الذى بدأ هو : الرجل .. ليتخذ منها عشيقة لا زوجة .

أما فى الإسلام .. فإن الأسرة فيه قائمة على أسس سليمة قوية .. ثم تتنامى مشاعر الود فيها بما شرعه من قيم أصيلة تصونها فلا تنحرف .. ولا تزنى .. حتى إذا جاء الولد تأكد له فعلاً صحة نسبه لوالده .. فتحمس للدفاع عن أسرته .. وتحمس الوالد فرباه وعاش من أجله .

وفى الوقت التي تتخصص فيه المرأة الأجنبية في الذرة .. والهندسة .. تتخصص الأم المسلمة فى : كيف تدير شئون البيت .. تلاحظ أطفالها .. وتوجه كل طفل لما يناسبه من علم .. أو عمل .. وتظل فى البيت .. وينوب عنها أولادها فى دنيا الذرة والهندسة .

ثم يعودون إلى الواحة الظليلة يتزودون لرحلة الكفاح .. ثم يتنقلون فى حياتهم من نجاح إلى نجاح !

دور الأم فى إنشاء المودة

مضى زورق الحياة بشريح وزوجته .. وكانت الرياح على مايشتهى السفن ، ولكنه عاد ذات يوم فرأى المفاجأة .

رأى عجوزاً فى البيت .. تأمر وتنهى !! لقد كانت حماته !! والتى تزوره لأول مرة . فانظر ماذا ترى .

إن للحماة فى أذهان الناس صورة متميزة .. لها دورها المؤثر فى مستقبل الأسرة .. ولكن القاضي المحظوظ .. يجد نفسه أمام حماة من نوع جديد .. على عكس مايتصور الآخرون .

جاءت .. لتكون حجة على غيرها من الحموات .. ولتعلمه من أسرار الزوجة مايعينه علي عكس حسن التعامل معها .. ويعينها هى أيضاً على حسن تبعلها .. قالت له حماته : كيف رأيت زوجتك ؟

قال : خير زوجة ، وأوفق قرينة .. لقد أدبت فأحسنت الأدب .. وروضت فأحسنت الرياضة .. فجزاك الله خيراً !

قالت الحماة : ياأبا أمية ، إن المرأة لايرى أسوأ حالاً منها فى حالتين :-

-إذا ولدت ذكراً .. أو دللها زوجها .. فإن رأيت بوادر ذلك .. فعليك بالسوط !

-وهنا سؤال يفرض نفسه فرضاً : هل هذا البيت فى حاجة إلى سوط ؟

أبداً مابه من حاجة إلي سوط عذاب .. بعد أن استجمع عناصر السعادة فالزوجة .. وفى ليلة عرسها .. لاتتخذ من جمالها وسيلة من وسائل الضغط أو المساومة أو الطغيان .

لكنها تعتبر نفسها رهينة زوجها .. يصرفها كيف يشاء .. واذا كان هناك من جمال تعتز به . فهو جمال الطاعة والتكيف طبق هوى الزوج.

والحماة : تقف إلى جانب الزوج .. بل وتدله على نقاط الضعف .. ليلاحظ ويقوم ولو كان التقويم بالسوط .. فأغلقت أمام ابنتها خط الرجعة .. إلى بيت أمها .. حين ربطت مصيرها بمصيره .

والزوج معترف بالجميل .. شاكر له .. فمن أين تهب العواصف علي بيت له كل هذه الضمانات ؟

وما أكثر المعارك الدائرة الآن فى بعض بيوت عليها أقفالها من سوف الفهم .. وسوء التدبير .

تأتى الأم فى زيارة بالهدايا .. والدراهم تملأ الجيوب .. وفى نفس اللحظة تهمس فى الآذان بما يعكر القلوب ؟!

فأى الفريقين خير مقاماً .. وأحسن ندياً ؟!

وكأين من زوجة وفية .. لزوجها الوفى .. يعيشان معاً بقلب واحد .. ورأى واحد .

ثم ينزغهما من الوالدة .. أو الوالد نزغ .. فإذا الوئام خصام .. والاتحاد انفصام .. وقد يحدث الطلاق بين حبيبين ولا بأس إذا كان ذلك يرضى غرور أبوين بلغ حرصهما على سعادة ولدهما أو ابنتهما مبلغ الدبة التى قتلت صاحبها !!

وفى الوقت الذى يرتفع غبار هذه المعارك .. يصطلى الوالدان بمعركة أشعلاها باختيارهما .. وكلما هوت عصا الانتقام على رؤوس الزوجات بريئات نسمع صوت القاضى « شريح » يضع زوجته « زينب بنت جرير » فى عينه .. وعلى لسانه قول الشاعر :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم	فشلت يمينى يوم تضرب زينب
أأضربها من غير ذنب أتت به	فما العدل منى ضرب من ليس يذنب
فزينب شمس والنساء كواكب	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

دروس فى الوفاء من بيت النبوة

ذات يوم (١): (دخل ﷺ على خديجة وهو مغموم . فقالت له: مالك؟

فقال : الزمان زمان قحط . فإن أنا بذلت المال . ينفذ مالك فأستحيى منك ! وإن أنا لم أبذل .. أخاف الله .

فدعت قريشاً . وفيهم الصديق .

قال الصديق : فأخرجت دنانير . حتى وضعتها ، بلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامى . ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله : إن شاء فرقه ، وإن شاء أمسكه !)

ليس هناك لحظة أقسى فى حس الأحرار من لحظة لايجدون فيها ماينفقون وإذا فاضت أعين الفاقدين دموعاً .. فإن قلوب الأحرار لتكاد أن تنزف دماً حين يقف بين أيديهم الفقير .. والمريض .. والعريان .. فلايجدون لهم ثم الغذاء والدواء والكساء .

فإذا تعلق الأمر بالرسول وهو بأمته كما قال سبحانه : ﴿ عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ﴾ .

إذا تعلق الأمر به ﷺ .. فإن الإحساس بالمرارة يبلغ مداه .. حين يتوقف البحر الزخر عن الفيضان .

وها هو ذا صلى الله عليه وسلم يعيش هذه اللحظة العصيبة حين أجديت الأرض .. وخلا الجيب .. ولم يبق إلا مال الزوجة .. وتوشك اليد الندية أن تتوقف عن العطاء !

وعلى رغم أن العبد وماملكت يداه لسيده . وأن الزوجة هنا رهن الإشارة .. وكل ما فى البيت ملك يديه .. كرسول .. وزوج فى نفس الوقت .. إلا أن الزوج يضع زوجته فى المكان المرموق .

---

(١) ذكره النيسابورى .

فلها كرامتها .. وملكيتها التى لاتنازع .. وإذا كانت بالأمس تدفن حية فى حفرة عبر الصحراء .. ولاتستشار حتى فى سلب حياتها .. فإنها اليوم على أوفى معانى الكرامة بما حفظ الله لها من حقوقها .. التي لايملك الزوج أن يحوز عليها .. وإن كان رسولاً !!

فأدركت خديجة رضى الله عنها خطورة الموقف .. فدعت القوم فيما يشبه الاجتماع الطارئ .

فلم يكن قصارلها أن تجود بالمال .. وإنما كان هناك شئ أكبر من ذلك هو :

الإعلان على الملأ ، إن المال .. ماله .. بلا منازع . ينفق منه كيف يشاء .

وليشهد الجميع .. وعلى رأسهم الصديق .. أن ليس للغم هنا مايسوغه!!

وليفرح اليتامى والضعفاء .. برسول الله ﷺ .. والذى ما أهمته نفسه .. ولكن أهمه الضعفاء من أمته .

وليتنبه الأزواج اليوم .. والذين يحاولون باسم الزوجية أن يتهجموا وبغير حق علي ماتملك زوجاتهم بغير حق .. متجاوزين حدود الزوجية التى لاتمنحهم ذلك .

وليضعوا أصابعهم على بيت الداء هنا .. ليفروا بالأسرة كلها من عذاب مستمر .

فإذا منع الإباء الزوج يوماً أن يبوح بحاجته .. فإن كرم الزوجة ينبغى أن يحسم الموقف .. بالبذل .. وأعتقد أن الزوجة اليوم .. مستعدة أن تجود لا بمالها وإنما بكل مالها .. إذا دفع الزوج الثمن أولاً .. وفاء .. وإباء .. وحسن عشرة .

وهكذا كان الرسول ﷺ .. ومن ثم لم تعرف المشكلات إلى بيته سبيلاً .

وفاء من صنع الإيمان

نظرت المرأة الشابة فى المرآة وقالت : الحمد لله .

وفاجأ المنطق الخاشع زوجها الملازم الفراش منذ زمن بعيد .. فقد كان المتوقع أن يسمع منها بكاء على أطلال جمال يذبل .. فى صحبة زوج طالت علته .. بينما زميلاتها يرفلن فى حلل النعيم .. فى ظلال أزواج أصحاء عاملين .

فلما تساءل عن سر الحمد قالت : الحمد لله على أنى وإياك من أهل الجنة ، لقد ابتليت بك . فصبرت . وابتليت بى . فشكرت . والجنة موعودة للصابرين والشاكرين .

وأحس الزوج المقعد بأنه يملك الدنيا كلها .

ولئن فاتته العافية التى غابت .. وطال غيابها .. فما فاته الوفاء الناشر ظله على البيت فإذا هو جنة وارفة الظل .. يانعة الثمار .

وماقيمة الصحة .. والمال .. والجمال .. فى بيوت غاض فيها معين الوفاء؟! إن زوجة من هذا الطراز جديرة بالحب والاحترام .. حين تجاوزت بإرادتها الماضية صور النعيم الزائلة .. واختارت شرف زوجها الذى يجب أن يبقى سماء تظلل صغارها الذين يدرجون بين يديها .. ومن خلفها سعداء بأم وفية تبيع اللحظة العابرة في سبيل النعيم الباقى .. لتنتصب لهم فى المجتمع هامات .. وتنتشر رايات .. ولئن فاتتها حاجة الجسم .. فما فاتها أن تكون وفية .. فى زمان قل فيه الأوفياء .

ولم تكن هذه الزوجة النبيلة وحدها على الطريق .. فقد كانت لها مثيلات صالحات قانتات تائبات عابدات .

حدث الأصمعى قال : دخلت البادية . فإذا بامرأة من أحسن الناس وجهاً ، تحت رجل من أقبح الناس وجهاً - يعنى زوجها - فقلت لها :

أترضين لمثلك أن تكون تحت مثله ؟ فقالت : ياهذا .. اسكت ، فقد أسأت قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه .. فجعلنى الله ثوابه .. ولعلى أسأت فيما بينى وبين خالقى .. فجعله الله عقابى !!

فانظر كيف تفلسف الزوجة الجميلة القضية ؟!

إنها أولاً تلقى على الناقد الفضولى درساً فى الأدب .. حين تجاوز حده وتدخل فيما لايعنيه .. غافلاً عما تحدثه كلمته من آثار .. بل من آصار!

وثانياً : تلفته - وهو الأديب الأريب - إلى ماجهله من حكمة الخالق سبحانه والتى تمضى بها الأمور على السداد .

فالزوجة هناك لاتتخذ من جمالها سلاحاً تساوم به .. لكنها تتهم نفسها بالتقصير فى جنب الله الذى جعل له من جمالها هذا عوضاً عن تقصيرها .. فى الوقت الذى صار جمال زوجها الخلقى أربى فى الميزان من نضارتها هى .. وبدل أن تذرف الدموع على سوء حظها .. إذا بها تفيض رضا بقضاء الله . جاعلة من هذا الرضا عبادة تثاب عليها .

ألا وإنها مع زميلتها السابقة لتملكان بالرضا .. كنزاً لايفنى .. وسعادة لاتغيب .

ويرحم الله المنفلوطى حين أعلن :

(إن الحياة مسرات .. ونحن ندين بمسراتنا للمرأة .. لأنها مصدرها وينبوعها الذى تتدفق منه . . ولن يستطيع الرجل أن يكون رجلاً إلا إذا وجد بجانبه زوجة تبعث فى نفسه روح الشجاعة .. وتغرس فى نفسه الكبرياء .. ولقد قصرنا فى حق المرأة حين لم نمنحها أكثر من عواطف الود .. ونضن عليها بعاطفة الإجلال والاحترام . وهى في حاجة ماسة إلى الاحتفاء والتقدير) .

أسوة فى تربية اليتيم

قال « معروف الكوفى » الصوفى :

(رأيت البارحة كأنى دخلت الجنة، فرأيت قصراً قد فرشت مجالسه . وأرخيت ستوره ، وقام ولدانه . فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا: ليعقوب بن إبراهيم الأنصارى « أبى يوسف » فقلت : سبحان الله بما استحق هذا من الله تعالى ؟ فقالوا : بتعليمه الناس . وصبره على أذاهم).

وهذا الرؤيا الكاشفة عن مكانة أبى يوسف فى الجنة .. والعائدة إلى جهاده فى حقل التعليم .. مع ماتحلى به من صبر جميل .. تحملنا على تلمس نشأته الأولى .. لنرى من الذى جعل من هذا اليتيم رجلاً نافعاً عم نفعه المسلمين .

لقد كان من وراء هذه المنزلة : أمه الوفية .. ممثلة للأسرة .. وأستاذه العالم : أبو حنيفة .. ممثلاً للمجتمع .

وفى ذلك يقول عن نفسه :

(توفى أبى . وخلفنى صغيراً فى حجر أمى . فأسلمتنى إلى قصار - صباغ - أخدمه . فكنت أفر منه وأختلف إلى أبى حنيفة . فكانت أمى تجئ إلى الحلقة . فتأخذ بيدى . فتذهب بى إلى القصار . وكان أبو حنيفة رضى الله عنه يعنى بى لما يرى من حضورى وحرصى على التعليم) .

إذا جاء يخطب ودنا
فما هو واجبنا ؟

وإذا كانت المبادرة من قبل الفتى .. احتفاظاً للفتاة بكرامتها .. فإن على الولى أن يختار « لكريمته » أكرم العناصر .. وذلك قوله ﷺ :

(إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه .. إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض .. وفساد عريض) (١)

وفى رواية : فساد كبير

مامغزى هذا :

إنه إعلاء لقيم نبيلة .. ورفض لقيم دخيلة .. إرادة اجتماع الشمل علي كل مايقوى هذا الميثاق الغليظ .. وإذ يتنافس المتنافسون فى مظاهر الدنيا .. وراء المال أو الجمال أو الحسب .. فإن على الولى أن يقع اختياره على من ينوب عنه فى إكرام ابنته .. فى عينيه .. وإلا .. فلو رفض الولى هذا الذى جاءنا .. وآثرنا على غيرنا .. فقد يترتب على هذا الرفض من الفساد ما الله به عليم .

فساد كبير : ضخم فى حجمه وثقله لايتعلق فقط بالفرض ولكن بالغرض .

عريض : يتجاوز الأسرة إلى العائلة .. ثم إلى المجتمع كله .

﴿ **واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾

ذلك بأن حرا قصد إلى بيت « حرة » يطلب يدها .. إنه يريد أن يلقى الله عز وجل طاهراً ..على مايقول ﷺ :

---

(١) رواه الترمذى . وابن ماجه . والحاكم .

(من أراد أن يلقى الله طاهراً فليتزوج الحرائر) [1]

إنه يريد العفاف .. وليس الإسفاف .. يريده زواجاً « معروفاً » لازواجاً عرفياً .. ومع ذلك فقد رفضوه ولم يرحموه .

وعندئذ فالرافض والمرفوض على خطر عظيم :

الرافض .. الذى يأبه بالفتى المتدين .. رغبة فى متاع زهرة الحياة الدنيا .

والمرفوض .. الذى سيفرض عليه أن يتجه إلى من لايريد من أهل الدنيا .

ولسوف تتداخل القيم .. ويتخبط المجتمع فى الظلام .. إذ كيف - وقد حيل بين الحر والحرة - أن يطلع صباح أو يضئ مصباح ؟!

ألا إن الشرر .. سوف يتطاير هنا .. وهناك .. ولن يستثنى أحداً من أوضاره :

الذين قرروا رفض الفتى المثالى .. والذين صمتوا .. ولم يعترضوا .

ومن أجل ذلك لايقول الحديث الشريف مخاطباً الولى فقط : إذا أتاك .

وإنما يقول ﷺ (إذا أتاكم .. ثم يقول : فزوجوه)

إنها المسئولية المشتركة .. التى تحمل المجتمع كله مسئولية القبول متى استجمع الفتى القادم شروط هذا القبول .

ولاحظ أن الحديث الشريف لايركز على الدين وحده على أهميته القصوى .

ولكنه يلفت النظر إلى ثمرة هذا الدين .. وهو الخلق .. أعنى : التدين .

فإذا اجتمعا .. كان لابد من القبول .

---

(١) رواه ابن ماجه .

وإذا أردت أن تتخيل مايترتب على رفض الصالح من الفساد كما وكيفاً .. فتصور هذا الفتى يعود إلى بيته فاسف البال .. مفقود الرجاء:

سوف ينطلق إلي بيت عابث .. بعدما رفضه الصالحون ! ولسوف تدخر الأسرة ابنتها لشاب .. بلادين .. وبلا خلق .. والنتيجة معروفة .

مشكلات .. يرتد إلى الولى الرافض كفل منها .. بسوء اختياره !

وحين يضرب الفتى المتروك فى الأرض حيران .. شاكياً ظلم الإنسان إلى خالق الإنسان .. فإن ثمرة التوفيق عند القبول تبدو بشائرها .. حتى قبل الدخول .. مما يعيننا على التنافس فى الظفر بهذا الفتى الصالح .. والذى أتانا .. أتانا نحن .. وطرق بابنا من دون كل الأبواب .. وخطب ودنا على كثرة الذين يوادوننا .

وتسألنى عن سر هذه السعادة المتوقعة عندما يلتقى الصالح .. بالصالحة ؟

إنه هو الذى يحدد المهر .. لماذا ؟

لقد اكتفى الولى بدينه وخلقه ويكفيه ذلك مهراً مباركاً .. وعندئذ فلم تبق هناك مشكلة .. لأن الولى لايتاجر بابنته فى الأسواق وإنما قصاري أمله أن تكون سعيدة .. مع من يسعد بها .. والذى سيصبر إنسان عينها .. التى تكتمل برؤياه .. وهى تلك الزوجة التى تقول لصاحبها بالجنب :

أهابك إجلالاً .. ومابك سطوة

على .. ولكن ملء عين حبيبها

أساس التقوى .. وأساس الدنيا

يقول ﷺ :

(ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله . والمكاتب يريد الأداء . والناكح الذى يريد العفاف)[1]

فى المفاضلة بين الأشياء .. ربما قيل : إن أهمها . ماكانت حاجتنا إليه ملحة !

ولكن العقلاء يقولون : إن هذا المقياس خاطئ .. لأننا أحوج مانكون إلى شئوننا العضوية .. ومابهذه الضرورات يتفاضل البشر .

وانما التفاضل حقاً .. بالكمالات الإنسانية .. فمن استمسك بها .. فأولئك تحرروا رشدا .

والحديث الشريف دعوة إلى التحلى بهذه الكمالات بهذه القيم .. قيم الحق .. والحرية .. والعفة .

فمن جاهد فى هذه حق جهادها .. فذلكم هو المستحق لعون الله تعالى .. وإن تقاصرت إمكاناته المادية عن إبلاغه إلى هدفه .. فإن الله تعالي معه بالنصر والتأييد .. حتى يحقق مايريد .

إنه الحق .. الذى قامت عليه السموات والأرض .. والحرية .. وما يترتب عليها من مسئولية .. ثم العفة .. التى بها تزكو القيم فى جوها الطهور وبها يتخلق الجيل النظيف .. المؤهل للدفاع عن الحق .. وتحمل مسئولية الحرية .

---

(١) رواه الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح .

من فقه الحديث :

ولاحظ التقديم فى قوله ﷺ (حق على الله .)

ومن معانى ذلك :

أن ذلك العون الموعود .. أمر مفروغ منه .. لكنه فوق هذا .. وقبل هذا « حق » لهم ثابت .. لايتخلف .. أوجبه القادر على إنجازه سبحانه .. على نفسه مما يؤكد الأمل فى قلب المكلف حتى يأخذ الأمر بقوة .. كما أمره الله .. ليوافيه الإنجاز من بعد .. كما أمره الله عز وجل .

ومع أن الله عز وجل .. مع كل الخلق إذ بين لهم النجدين : طريق الخير .. وطريق الشر .

وبما منح الإنسان .. مما يعينه علي حسن الاختيار .. عينين ولساناً وشفتين

مع هذه المعية العامة الشاملة الكاملة .. إلا أنه سبحانه وتعالى يخص بتوفيقه وتأييده من البشر ثلاثة .. هم أحق الناس بهذا التأييد وذلك التوفيق وهم :

المجاهد .. الذى يجاهد لإعلاء كلمة الله .. والمكاتب فى سبيل الله .. الذى يريد فك نفسه .. والناكح .. يريد العفاف .

والتركيز هنا على الفتى الراغب فى العفاف : لقد أصاغ السمع لداعيين .

أ- دعاء من داخله .. كإنسان يبحث عن نصفه الآخر .. الذى يستطيع فى صحبته أن يمكن لخلق العفة فى المجتمع .. بقدر مايطرد التسيب والعبث .

ب- ثم هو مستجيب لدعائه ﷺ فى ندائه :

يامعشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. فليبادر بالزواج .. مسارعة إلى الإحصان .. الذى يجعل من الأسرة محضناً لأجيال .. تستمر بها الحياة .

وإذ تتحرك الرغبة فى قلب الفتى .. فإنه محكوم فى توجهه واختياره بمقياس الإسلام .. الذى يحضه علي اختيار : ذات الدين .. تلك الجوهرة التى عليه أن يسارع إليها .. قبل أن يظفر .

ويعنى ذلك : أن الفتى حين يقصد ذات الدين .. ذات العفاف فإنما يخزي الله تعالى به الشيطان المريد .

الذى يحاول إغواء الإنسان .. بالمفقود .. حتى ينسى الموجود : بالحرام .. حتى يزهد فى الحلال !

ولاحظ من فقه الحديث أيضاً أنه يعبر فى جانب الناكح باسم الموصول الأصلى « الذى » فى قوله (الذى يريد العفاف) .

وكأن الزواج من المجالات التي يكثر فيها الادعاء والتزييف .

وقد ندعى أننا نطلب العفاف .. مع أننا أسرى المال . أو أسرى الجمال .

من أجل ذلك يستصفى الحديث الشريف صاحب الرغبة الحقيقية فى إعفاف نفسه .. وإعفاف غيره .. وصولاً إلى ذرية تعمر الحياة .

ومن المفيد هنا أن نختم الحديث بموقف تستحيل به المعانى السابقة إلى حقيقة واقعة .. نستبين بها الوفاق بين الرفاق حتى نشد إلى مثله الرحال .. متجاوزين صغار الآمال :

كان العز بن عبد السلام كريماً :

ومن كرمه أن زوجته أعطته ذهبها ليشترى به بستاناً ليصيفوا به .. ولكن الرجل تبرع بثمنه فى سبيل الله .. فلما سألته قال : اشتريت به بستاناً فى الجنة !! فقالت : جزاك الله خيراً !!

لقد كان « العز » فى العزة .. بناء عتيد .. ثم هو فى السخاء بحر مديد .

وكان مع زوجته ذلك التفسير العملى لسنة رسول الله ﷺ .

لقد كان « العز » رحمه الله تعالى :

تلاء لكتاب الله .. أمارا بالمعروف .. نهاء عن المنكر .. ومن هذا المنكر ماتنوء به الأسر اليوم من إجحاف بميزانية البيت إرادة « التصييف »

ولم يكن قصاراه أن ينهى .. ولكنه قبل ذلك انتهى .. وقت أن تمت النعمة بزوجة .. أعانته على أمر الله .. ومن كان كذلك .. ألهمه الله تقواه .

أسوة فى اختيار الزوج

كان العقلاء من الشباب لايتسرعون فى اتخاذ قرار الزواج قبل أن يستشيروا العقلاء المجربين .. فهؤلاء المستشارون مؤتمنون :

وهم أكمل فى التصوير .. وأبلغ فى التأثير .. والتذكير .. لتجد نفسك بين أيديهم لامجرد سامع .. وإنما كأنك تشاهد وتعاين ..

تعاين من الباطن مايحاول الناس إنقاءه .. ومنهم ذلك الشاعر القائل :

لاتشتمن امرءاً فى أن تكون له

أم من الروم أو سوداء عجماء

فإنما أمهات الناس أوعية

مستودعات .. وللأحساب آباء

ورب واضحة ليست بمنجبة

وربما أنجبت للفحل سوداء

وقد حدث أن رجلاً شاور حكيماً فى التزوج فقال له : افعل .. وإياك والجمال الفائق !!

فإنه مرعى أنيق .. فقال الرجل :

مانهيتنى إلا عما أطلب !؟

فقال له الحكيم الحليم : أما سمعت قول القائل :

ولن تصادف مرعى ممرعاً أبداً .. إلا وجدت به آثار منتجع

وقد كان هناك عقلاء من الخطاب : لم تشغلهم المظاهر عن المخابر !

وفى هذا المعنى ندرك مغزى هذا فى الحوار الخاطف قال عمر بن الوليد .. للوليد بن يزيد : إنك لعجب بالإماء وقال : وكيف لاأعجب بهن .. وهن يأتين بمثلك !!

اختيار الرجل :

ولقد كان هناك مواصفات خاصة .. يتعشقها الرجال فى النساء .. قال أبو الدرداء رضي الله عنه :

خير نسائكم .. التى تدخل قيسا وتخرج ميسا .. (تدخل غير متعجلة بريئة من حمق الخرقاء : تمشى بطيئة .. مشياً وسطاً معتدلاً .. والميس : التبختر والتثنى)

وتملأبيتها أقطا وحيسا : (والحيس : الطعام : المتخذ من التمر والأقط والسمن)

ويقول أبو الدرداء فى نفس الموقف : وشر نسائكم : السلفعة : التى تسمع لأضراسها قعقعة . ولاتزال جارتها مفزعة . والسلفعة : البذيئة . الفحاشة . القليلة الحياء .. الجريئة على الرجال)

وقال عقيل بن أبى طالب لما سأله معاوية : أى النساء أشهى : فقال : المؤاتية لما تهوى . قال : فأى النساء أسوأ ؟ قال : المجانبة لما ترضى .. قال معاوية .

هذا والله النقد العاجل .. قال عقيل .. بالميزان العادل .

اختيار المرأة :

وقد كان للفتاة أيضاً مواصفاتها فى رجل المستقبل .. عبرت عنها هند بنت الخس لما قيل لها :

ألا تتزوجين ؟ فقالت : بلى : لاأريده أخا فلان .. ولا ابن فلان .. والظريف المستظرف .. ولاالسمين الألحم .. ولكن أريده كسوباً إذا غدا .. ضحوكاً إذ أتى .

دور الأم فى الاختيار

وكان من وراد هذه الفتاة الذكية أم رءوم تبحث بل وتنقب حتى تطمئن على مستقبل ابنتها .

خطب رجل من بنى كلاب امرأة .. فقالت له أمها :

حتى أسأل عنك .. فسألت الأم شيخاً حكيماً جليلاً عن الخاطب ..

فقال لها : أنا ربيته .. فقالت : كيف لسانه ؟ قال : مدره [1] قومه وخطيبهم

قالت : كيف شجاعته : قال : حامى قومه وكهفهم .

قالت فكيف سماحته ؟

قال : ثمال قومه - الملجأ فى الشدة - وربيعهم .

ثم أقبل الفتى فقال الشيخ : ماأحسن والله ماأقبل : ماانثنى ولانحنى .. فدنا الفتى فقال الشيخ : ما أحسن والله ماسلم : ماجار ولاخار (مع رفع صوته)

ثم جلس .. فقالت : ماحسن والله ما أجلس : مادنا ولاثنى)

ولقد كانت هذه المواصفات بعد التأكد من عقله ودينه .. فإذا لم يكن عقل ودين .. فلا لقاء .

قيل لأعرابى : فلان يخطب فلانة .. فقال :

أموسرمن عقل ودين ؟

قالوا : نعم .. فقال : فزوجوه .

وقد تزوج على بن الحسين « أم ولد » لبعض الأنصار فلامه فى ذلك « عبد الملك » فكتب إليه .

إن الله قد رفع بالاسلام الخسيسة وأتم النقيصة وأكرم به من اللؤم .. فلا عار على مسلم : تزوج أمته .. وأمرأة عبده .

فقال عبد الملك :

هذا على بن الحسين : يتشرف حيث يتصنع الناس وكان رضي الله عنه واحداً من مدرسة كان من تلاميذها :

---

(١) المدره : القائد .

القاسم بن محمد بن أبى بكر و سالم بن عبد الله بن عمر .. لقد فاقوا أهل المدينة فقها وورعا .. فرغب الناس فى السرارى .. ومن هنا لم تعرف أمتنا مشكلة العنوسة التى نعانى منها اليوم .

فأنت ترى امرأة مات زوجها .. وخلف من بعده ذرية ضعافا .. ولقد كانت تحب زوجها .. وتجعل من وفائها له أنشودة على لسانها .

وها هى ذى اليوم تترجم عن هذا الوفاء بإعداد ولده ليكون امتداد حياته . وليواجه الحياة من بعده عن طريق حرفة يعيش فى ظلالها .

وإن حرصها ليبدو من وجهة نظرها حين تتابع ولدها فى إصرار . يؤكد أن شغلها الشاغل لم يكن البحث عن زوج جديد بقدر ما كان إعداداً لهذا الصبى اليتيم .

نقطة التحول :

لكن القدر الأعلى كان يخبئ لأبى يوسف اليتيم وظيفة أخرى رشحه لها استعداده الذى اكتشفه أبو حنيفة .. فضربه إليه .

ويشتد النزاع بين الأم الراغبة فى صنعه لولدها يأمن بها من الفقر .. وبين الأستاذ الحريص على أن يستثمر ما فى كيان الفتى من طاقات فى مجال العلم .

قال أبو يوسف :

وطال على أمى هربى . فقالت لأبى حنيفة : مالهذا الصبى فساد غيرك ! هذا صبى يتيم لاشئ له . وأنا أطعمه من مغزلى وآمل أن يكسب دانقاً - سدس درهم - يعوديه على نفسه .

فقال لها أبو حنيفة : يارعناء ها هو ذا سيتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق فانصرفت عنه وقالت له : أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك . ثم لزمته . فنفعنى الله به . ورفعنى حتى تقلدت القضاء . وكنت أجالس هارون الرشيد وآكل معه على مائدته .

وكان مما أكله ما تنبأ به أبو حنيفة رضي الله عنه .

إنها امرأة عاملة .. وكان من الممكن أن تستمر فى الإنفاق على ولدها من مغزلها .. ويكفى أنه يملأ عليها حياتها إلى جوارها .. لكنها لم تشأ أن تضحكه ليضحك عليه المجتمع من بعد .. فقدمته ليخوض معركة الحياة .

فلما رشحته مواهبه لوظيفة أخرى لم تر بدا من التسليم .. لعله أن يكون من رجال التعليم .

وانها لتقدم الأسوة في تربية اليتيم .. الذى تستقبله الأيدى الحكيمة فى شفقة وفي حزم معاً .. ليملأ الفراغ الناشئ عن غياب أبيه

واذ يجد رفاقه من آبائهم عوناً .. فإن له من صنعته مايملأ حياته عملاً يحقق به أمله ويعوض مافاته .

ويبقى دور الدولة المكلفة باكتشاف المواهب وتوجيهها الوجهة الصائبة .. قبل أن تضيع سدى .

ولابأس علي الأم بعد ذلك أن تبحث عن نصفها الآخر .. بعد أن استوى ولدها على سوقه يعجب الزراع .

لابأس أن تأوى إلى ظل يحميها من الضياع .. والقيل والقال .. وقسوة الزمان .. إن ولدها الذى يستدبرها ليقبل على حياته مع أهله وولده .. ولن يملأ الفراغ الهائل بوفاة الزوج .. ومن حقها عليه أن يطيع الله فيها .. بعد أن أطاعت الله فيه .

وإذا لم تستجب أمه من قبل لنفسها النزاعة إلى الزواج وابتلعت همومها حتى يسوى رجلاً .. فإن هذه الرغبة بدأت اليوم تتحرك .. فلنفسح لها الطريق الحلال .. قبل أن تذهب النفس حسرات .. أو عثرات !!

أسوة فى صلة الرحم

إذا نهى الأبناء عن عقوق الوالدين ولو أخرجهما ذلك من مالهم وأهليهم .. وإذا أمروا بالجهاد فيهما وبذل أقصي الجهود لكسب رضاهما .. إذا كان الأمر كذلك .. فإن عقيدة الابن تبقى بمنعزل عن هذه العواطف .. فلا تمس .. ولا يساوم عليها .

فإذا اصطدم حق العقيدة .. بحق الوالدين .. كان لابد أن تظل العقيدة مصونة .. وفى نفس الوقت يبقى للوالدين - ولو كانا كافرين - حقهما فى الرعاية والتكريم .

وتلك هى قصة « سعد بن أبى وقاص » رضى الله عنه مع أمه .. التى كانت كافرة .

لقد كان إسلام « سعد » ابن السبعة عشر ربيعاً .. مفاجأة مذهلة لأمه التى خيرته بين الرجوع إلى الشرك .. أو أن تضرب عن الطعام حتى الموت .

ولقد كان الاختيار صعباً ، فهو الفتى المعروف بأنه أبر الأبناء بأمه.

ولو فرض وصممت أمه على الإضراب عن الطعام .. ثم ماتت . فسوف يعير بذلك .. ثم ينادى فى الناس هذا قاتل أمه .. إلى جانب تعرض مروءته للقيل والقال .. وماأكثر التافهين الذين لاتطاوعهم أنفسهم على اتخاذ القرار الصعب .. فيعزونها بالتعريض بأهل العزيمة والرشد .

لكن إرادة « سعد بن أبى وقاص » رضي الله عنه تدخلت فحسمت الموقف لحساب الإيمان .. فقال لأمه الغاضبة :

(لاتفعلى يا أمه .. فإنى لن أدع دينى هذا لشئ) .

إن « سعداً » أولا عربى .. تأبى عروبته أن يتراجع عن قرار اقتنع به . وتمشى فى دمه .

ثم هو مسلم .. يفرض عليه إسلامه الولاء للحق فوق كل اعتبار .. وإذا كان القرار ثقيل التكاليف على كاهل فتى فى مقتبل عمره .. فقد ساعدته الإرادة الحرة على تجاوز المحنة بسلام .

وإذا انتهزها المغرضون فرصة للتشهير برفيقهم « سعد » الذى خرج على إجماع « الشلة » فليكن ذلك ثمناً يقدمه من أجل مستقبل يناديه .. ولن يضر السحاب عواء الذئاب .

وأضربت الأم عن الطعام فعلاً .. فلما وهن منها الجسم ظنت سعداً راضخاً لا محالة لتهديدها ، ولكن القذيفة تأتيها من منطقة الأمان قاضية على كل أمل فى عودته إلي دينها .. قال لها فى نبرة حاسمة :

(تعلمين والله . لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً . ماتركت دينى هذا لشئ . فإن شئت كلى .. وإن شئت لاتأكلى)

ولك أن تتصور قسوة الموقف .. لتحكم بعجز الخيال عن الوصول إلى جذور الثبات على الحق فى قلب سعد رضي الله عنه .

فالأم قابعة هناك .. في زاوية من زوايا الدار .. ثم تعالج سكرات الموت .. وابنها يراها .. ثم لايتحرك ولايجاملها حتى بكلمة معسولة وحتى لو تكرر المشهد مائة مرة .. والولد بين يديها .. يرى الحياة تغيب .. والبيت يخلو من أمه .. لاتهتز فى رأسه شعرة . مبقياً على عهد الإيمان .. سعيداً بقرار اتخذه وكان محسوب النتائج .

إن شجرة التوحيد نبتت فى قلبه .. وترعرعت .. وهذا فرعها السامق يستحم فى دفء الشمس .. ويعب من الهواء الطلق .. فكيف يعتريها الذبول ؟

ولقد نجح التصميم الأبى فى إنهاء التمرد .. أو العصيان المدنى .. وتناولت الأم الطعام .. وينزل قوله تعالى :

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ .

إن خيط البر لاينبغى أن يقطع بأى حال .. ﴿ وصاحبهما ﴾ بالمعروف .. ولاتقطع صلتك بهما .. لكن التبعية الحقيقية لأهل الإيمان .

﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾

وليت شعرى : إذا كان للأم الكافرة حقها فى الاحترام والتقدير .. أفنضن على الأم المسلمة اليوم بحقها فى البر ؟ تلك الأم الكادحة إلى ربها كدحاً .. فى البيت مدبرة ومربية .. وعبر الحقول عاملة آملة .. فهل يصح فى الأذهان مايلجأ إليه البعض من ضرورة قطع الصلة بها حتى تستقيم الدعوة .. بعيدة عن توجيه البيت ؟!

إن الدعوة حينئذ ستصبح شعاراً .. ولكن بلا شعور !

أبو هريرة رضي الله عنه على طريق البر :

خاض أبو هريرة نفس المعركة كأخ له من قبل هو « سعد بن أبى وقاص » رضى الله عنهما .. وكان على نفس المستوى الرفيع من بر الوالدين .

لقد كان يعيش مع أمه المشركة .. فى بيت واحد .. ويأكلان فى إناء واحد وعلى أوفى مايكون البر بأمه .. فلم يقتصر على مجرد إعاشتها .. لكنه كان يدعوها إلى الإسلام .. برفق ولين .. لتكمل حياتها .. لم يطردها من البيت ولم يعزلها فى زاوية من زواياه .. إنها مشركة .. نعم .

ولكن لايمنع شركها من صلتها ورعايتها .

وإذا كان الكافر مقطوع الصلة بالكون من حوله .. وبالناس الذين يخالطهم أيضاً .. فإن للمسلم شبكة من العلاقات بالحياة والأحياء .. تجعله غنياً بالعواطف .. ندياً بقلب عامر بالإيمان .. يعمر الحياة من حوله .. فيسعد ويسعد .

وإذا كان الثعبان .. وفمه ينضح سماً .. يستمتع بالحياة .. فكيف لايتمتع المسلم بالحياة وفى صدره قلب خفاق يحب الله ؟

وذات يوم .. وهو يدعو أمه إلى الإسلام .. إذا بها تسمعه فى رسول الله ﷺ مايكره .

لقد كان يدعوها من قبل .. فتنهره .. وهذا أمر متوقع .. أما أن تشتم رسول الله ﷺ وهو أعز عليه من نفسه .. فذلك أمر لايحتمل .

وفعلاً لم يحتمل أبو هريرة قسوة الموقف .. وقبل أن يفرغ طاقة الغضب على رأس أمه أسرع إلى الرسول باكياً .. ولم تكن الدموع الغزار شكوى من أمه .. كما لم تكن إعلاناً عن رغبته فى عقابها أو طردها من البيت .. وإنما كانت عنوان رجاء تقدم به إليه ﷺ أن يدعو لأمه بالهداية .. وكأنما كان الرسول الكريم يستمع إلى وجيب قلبه المحترق .. فهدهده بهذا الدعاء : (اللهم اهد أم أبى هريرة)

لقد تراجعت مشاعر الانتقام .. لتبرز القضية الأساسية وهى اهتداء أم أبى هريرة للإيمان .

وذلك هو الدرس الذى تعلمه رضى الله عنه من إمامه محمد ﷺ إنه التسامح والعفو .. من أجل الدعوة .. إن المؤمن ليستشعر ببصيرته يد الحق تعالى من وراء الأحداث الدائرة .. ومن ثم يستسلم لها .. فى محاولة لتنسيق حياته على وفقها بلا صدام .. وكذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه .

وعاد أبو هريرة إلي البيت .. فرأى دعوة الهداية وقد سبقته إلى هناك .. إلي البيت : ماذا حدث ؟

كان كل شئ قد تغير تماماً .. الباب مغلق .. وخضخضة الماء تأتيه من داخل الدار .. وصوت أمه يناديه فى رقة مكانك لاتبرح ياأبا هريرة .. ثم تخرج الأم مسرعة وقبل أن تنسق هندامها معلنة إسلامها .

وتطير الفرحة بأبى هريرة لتحط به بين يديه ﷺ فبشره بإسلام أمه ثم قال له : يارسول الله : ادع الله أن يحببنى وأمى إلى المؤمنين والمؤمنات فقال ﷺ (اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة)

إن أبا هريرة لم يهد أمه .. ولكن الله تعالى هو الذى هداها .. لقد أدى واجبه .. ودعاها إلى الله .. بالحكمة .. ثم انتهت مهمته .. والنتيجة بعد ذلك على الله .

وعيب بعض الدعاة أنهم يحاولون فرض الفكرة على قلوب لايملكون التصرف فيها .. لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

وبعد :

فقد ثبت سعد وثبت أبو هريرة رضى الله عنهما على المبدأ .. وهذا صحيح لكنه من الخطأ مايلجأ إليه بعض المتحمسين من التنويه بثباتهم حيال آبائهم وأمهاتهم الذين يظنونهم مفرطين فى جنب الله .. إنهم ينقلون « الثبات » « نقل مسطرة » مع أن القضية مختلفة تماماً فقضية الصحابيين الجليلين كانت قضية الإيمان .. يواجه الكفر .. ومن ثم كان الثبات محموداً .. أما الصمود المفتعل اليوم أمام الأم أو الأب أو الأخ من أجل رأى يحتمل الصواب والخطأ .. فإنه العناد القاطع رحماً أمر الله تعالى بها أن توصل .

الفصل الرابع

المرأة على خط النار

أم سليم المؤمنة
التى عاشت بجدها لابجسدها

« أم سليم » هى : أم الصحابى الجليل : أنس بن مالك رضى الله عنه . مات زوجها وترك لها « أنساً » صغيراً .

وإذا كان من حق الأرملة أن تبحث عن نصفها الضائع ، بعد رحيل الصاحب العائل .. فقد تنازلت « أم سليم » عن ذلك الحق .. واتخذت قرارها برفض فكرة الزواج حتى تربى ولدها اليتيم .. وفاء لزوجها العزيز .. بحسن تربية الأمانة التى خلفها من بعده .

وقد أحسنت تربية يتيمها على أوفى مايكون الحسن .. فلما استوى علي سوقه .. كان من توفيق الله تعالى أن بعثت به إلى أطهر بيت فى الوجود .. بيت رسول الله ﷺ ليكون له شرف خدمة الرسول الأعظم .

ويبدو أن سيرة أم سليم العطرة .. وكفاحها المبرور بعد وفاة زوجها .. وما كانت تتمتع به من حكمة فى إدارة شئون بيتها .. يبدو أن ذلك لم يعد سراً مكتوماً .. فقد ظهر .. ثم انتشر .. مما دفع بالخطاب إليها يطلبون يدها .. يد الأرملة التى عاشت بجدها لابجسدها .. وأكلت خبزها بيدها .. لابثدييها !

وكان فى طليعة الخاطبين « أبو طلحة » الذى كان عندئذ مشركاً بينما هى مسلمة .

ولم يكن أبو طلحة ممن ترده النساء .. وقبل أن تحتدم فى كيانها معركة بين رغبتها فى رجل توفرت فيه كل عناصر الرجولة .. وبين وفائها لعقيدتها المانعة من الزواج من مشرك .. قبل أن تحتدم هذه المعركة حسمتها هى بحكمتها البالغة .. على طريق هذا الحوار الخاطف .. الهادف .. والذى انتهى بإسلامه .

قالت له : ياأبا طلحة .. ألست تعلم أن الهك الذي تعبد نبت من الأرض ؟

قال : بلى . قالت : أفلا تستحى أن تعبد شجرة ؟!

إن أسلمت .. فإنى لاأريد منك صداقاً . غير الإسلام !

قال لها : دعينى .. حتى أنظر فى أمرى .

فذهب .. ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله . فقالت لابنها « أنس » وهو الذى روى الحديث : زوج أبا طلحة .. فزوجه من أمه .

وتتراءى لك من خلال هذا الحوار صورة أم سليم : المربية .. الداعية .

المربية : التى خرجت من بين يديها « أنساً » رضي الله عنه شاباً مكتمل الشخصية . متمثلا روح الإسلام التى لم يجد معها غضاضة أن يقوم هو بتزويج أمه .. ويأمر منها !! فى بيئة كانت تعد ذلك ابتذالاً ومهانة .

ثم هى الداعية إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة .

ويتجلى ذلك : فى أنها لم تبدأ الحوار بقولها : أفلا تستحى .. ؟

وإلا فسوف تلمس الكلمة الخشنة فى الرجل عصب الجاهلية فيه .. وتفشل التجربة التى لم يمد لها طوق النجاة .

ولكنها .. وقبل هذا الاستفهام .. تبدأ البداية الخفيفة .. والتى تشكل نقطة اتفاق بين الداعية والمدعو .. والتى ينطلقان منها إلى الخطوة التالية .. والتى بها يتحقق مقصد الداعية .. فقالت له : ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد نبت من الأرض ؟

فكان الجواب بالإيجاب .. وجاء التلويح بالحياء فى وقته المناسب .. وتحقق المأمول .. فلما أسقطت بعد ذلك حاجز « المهر » كشفت عن حجم النبل فى قلبها .. والإخلاص لدينها .. فتم المراد من رب العباد .

أم سليم على الجبهة :

وكان يكفى أم سليم ماضيها المشرف فى خدمة الدعوة .. وفى حقل التربية لكنها أبت إلا أن تحمل السلاح .. هناك على خط النار فى مواجهة العدو واستكمالاً لدور المرأة فى خدمة الدعوة والدولة .

عن أنس رضى الله عنه قال :

(إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً . فكان معها . فرآها أبو طلحة فقال : يارسول الله : هذه أم سليم .. معها خنجر !

فقال لها رسول الله ﷺ : ماهذا الخنجر ؟

قالت : اتخذته : إن دنا منى أحد من المشركين . بقرت به بطنه !

فجعل رسول الله ﷺ يضحك .

قالت : يارسول الله أقتل من بعدنا - أى من سوانا - من الطلقاء .. انهزموا بك - تظن أنهم منافقون - .

فقال ﷺ : يا أم سليم .. إن الله قد كفى وأحسن) [1]

فانظر ماذا ترى : الزوجة مع زوجها على الجبهة العسكرية .. والزوج سعيد بها .. فخور بشجاعتها .. ولما لم تسعه الفرحة اتجه إليه ﷺ ليقاسمه بهجة الموقف العظيم .

لقد استمعت إلى فنان يذكر زوجته الفنانة .. بالتقدير لما قدمته للناس وللحياة .. وقلت فى نفسى ماأبعد الفرق بين زوجين .. وبين عملين .

---

(١) رواه مسلم . غزو النساء مع الرجال ج ١٢/١٨٧ .

فأين الفنان .. من هذه اللوحة الفريدة التى تتطلب شاعراً مسلماً ليصوغ قصيدة باقية (تجعل من الإنسان ذى اللحم والدم ، دبابة تقتحم الجبل ، وطيارة تنطح النجم ، وملكاً يسمو على الدنايا بجناحين من خير وطهر . ويثبت للقريب والبعيد وللأجيال والذرارى أن بلادنا : أجمل البلاد . وأهلها أكرم الأهل . وماضيها أجمل المواضى . وأن المستقبل لها)

وانظر إليها وهى تقترح على القائد الأعلى . فتشترك فى صنع القرار .. وفى تحقيق النصر .

تشترك فى صنعه : لامن خلف المكتب المكيف .. ولامن خلال كوكبة من الاتباع والاشياع .. وإنما من قلب المعركة .. تحمل سلاحها بيد خشنة يحبها الله ورسوله .

وإذا كانت المرأة الأجنبية اليوم تتسكع فى الشوارع وراء لقمة العيش التى قد تدفع فيها أعز ماتملك .. فإن المرأة العربية المسلمة تبقى معززة مكرمة .

استترت .. فعزت .. وحافظت على كرامتها فطلبت .. ثم جاهدت .. وصابرت .

ولعل هذا يفسر كثرة الراغبات فى الإسلام اليوم من نساء الغرب .. بعد مافقدن الزوج .. وحرمن المعيل .. ورغبن فى زوج مسلم يجعل من زوجته فى البيت ملكة متوجة .. وعلى ساحة الوغى .. تكون شريكته التى تموت معه ويختلط دمها بدمه .. وتبقى ذكراهما فى الحياة لأولادهما تاجاً دونه ملك الدنيا .

ولقد امتدت موجات من بركات أم سليم رضى الله عنها . لتغمر الزوج الجديد .. وبدا ذلك واضحاً فيما رواه أنس رضي الله عنه قال :

(كان ابن لأبى طلحة يشتكى - مريض - فخرج فى بعض حاجاته . وقبض الصبى - مات - فلما رجع أبو طلحة قال : مافعل الصبى ؟ فقالت أم سليم : هو أسكن مما كان . وقربت إليه العشاء . فأكل . ثم أصاب منها - كان بينهما مايكون من الزوجين - فلما فرغ قالت : أرأيت ياأبا طلحة آل فلان ؟ فإنهم استعاروا عارية من آل فلان . فلما طلبوا العارية أبو أن يردوها . قال أبو طلحة : ماذا لهم . قالت أم سليم : فإن ابنك كان عارية من الله تعالى متعك به إذ شاء وأخذه إذ شاء) .

فانظر كيف ساقت إليه خبر موت ابنه بالحكمة التى جعلت من الزوج حكماً فى النهاية .. يحكم على نفسه هو .. فما دام الجيران قد ظلموا .. بمنع الأمانة أن تعود لأهلها .. ومتى سلم الزوج بذلك .. كان حكماً على نفسه بالرضا .. حكماً لم يفرض عليه .. وإنما صدر من أعماقه . ومن ثم كان إذعانه متوقعاً .

وبذلك حفظت الزوجة على زوجها دينه .. وصحته .. فلم تواجهه بالخبر فجأة وبلا مقدمات فأعانته بذلك على أن يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .. فحفظت عليه دينه .

ثم حمته من المفاجأة التى قد لايتحمل وقعها .. فيرتد ذلك على جسمه دماراً .. إنها إذن ذات الدين التى يوصيك الرسول ﷺ بها .. وتلك آثارها التى تدل عليها : بركة فى البيت .. كالنهر الجارى .. يمنح الحياة من لدنه لحماً طرياً .

الطبيبة المداوية :

ولعل أم سليم هنا تضع قاعدة طبية مفادها : إن للهموم تأثيرها على صحة الإنسان .. والتى أشارت إليها عائشة رضي الله عنها في قولها بعد حديث الإفك : لقد ظننت أن الحزن فالق كبدى .

ولقد أثبت الطب كيف تتحول عصارة الهضم إلى سموم بفعل الهموم .. وهكذا .. اتقى أسلافنا الله فعلمهم الله .

أبغض الحلال إلى الله تعالى

جميلة بنت سلول
الزوجة الوفية الصابرة

يروى أن « جميلة بنت سلول » امرأة الصحابى الجليل « قيس بن ثابت » جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : يارسول الله لاأجد فى « قيس بن ثابت » عيباً فى خلق أو إيمان ولكن لاأجد فى طوقى مجاراته « أى فى زهده وانقطاعه للعبادة »

فسألها النبى ﷺ هل تعيدين إليه حائطه « أى : بستانه »

فقالت : نعم

فأمر النبى ﷺ برد الحائط وتطليقها

تمهيد :

قبل التعليق على هذا الموقف المثير .. لابد لنا من تأمل حقيقة العدل فى حياته ﷺ .. وبالذات مع نسائه .. وسوف يتبين لنا كيف كان عليه الصلاة والسلام مدركاً لدوافع الزوجة . وحاجاتها الطبيعية التى تطلب الاشباع .. والتى لاتنحصر فى الغذاء أو الكساء .. أو الدار الواسعة .. بل أن من وراء ذلك حاجة نفسية إذا لم نشبعها بالحكمة .. تمردت .. ثم كان الانفجار من داخل البيت .

كان ﷺ - فى حالة المرض - يطاف به علي بيوت زوجاته محمولاً علي الأكتاف !

وكان ذلك فى مرض موته لما اشتد عليه . . ولما كان اليوم .. يوم ميمونة بنت الحارث . ثقل عليه المرض عندها .. فاستدعى زوجاته جميعاً .. فحضرن إليه .. فلما رأينه علي غير العهد به . فزعن . فأستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة . لقربه من المسجد . فأذن له .

فانظر كيف يحرص ﷺ على حق الزوجة فى أدق صوره التى لايفطن إليها الناس.

وإلا .. فماذا تأخذ الزوجة من زوج أقعدته العلة السارية فى بدنه .. ثم هو يمر عليها فى لحظات يشغله المرض عنها ؟

قد لا نحس بقيمة هذه اللفتة الكريمة .. ولكن الرسول الإنسان يعلم مالدى المرأة من غيرة .. لايطفئها إلا الإحساس بأنها مثل الأخريات .. ولافضل لضرة على أخرى .. ويكفيها هذا !

ولقد طبقت أمتنا بمنتهى الدقة توجيهاته ﷺ فحرصت على العدل : ليس فقط فى الكسوة .. والمأكل والمشرب .. فكل ذلك لايغنى عن نصيبها من الكرامة والتقدير .. ومن روائع الفكر الإسلامى هنا ماقرره علماؤنا من ضرورة أن يتكفل ولى المجنون بأن يطوفه على زوجاته بالعدل.

وقالوا : لايجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته فى نوبة الأخري .. إلا للضرورة القصوى .. وربما أبيح له أن يسلم عليها .. ويسألها عن حالها .. ولكن من خارج الباب !

بل إنهم قالوا : لو أن الزوجة صاحبة النوبة غضبت فأغلقت الباب ولم تسمح له بالدخول .. فلا يجوز له أن يبيت عند ضرتها .. إلا إذا كان برد يخشى منه على صحته !

وفى ضوء هذا التمهيد يمكننا أن نكتشف : العامل الذى حدا « بجميلة بنت سلول » أن تطلب الطلاق .. وهو غياب العدل .. وخواء نفس جائعة تطلب الزاد .. وهو بين يديها .. لكنها فى النهاية تراه سراباً!

دروس من الموقف

ماذا فى الموقف من دروس ؟

أسرة .. من بين أسر كثيرة .. تعيش فى زحمة الحياة .. يراها الناس من الظاهر .. فإذا هى فى تقديرهم : جنة ممدودة الظلال .. بينما هى فى الواقع نفوس مشتتة البال . ممزقة الأوصال .

إن اسم الزوجة هنا « جميلة » .

ولاشك إن ظلاً من الزهو قد أنشأ الاسم الرقيق . على شخص الزوجة . وإن الإحساس بالأنوثة بات قوياً . فى نفس زوجة ترى وجهها فى المرآة مشرقاً نضاحاً بالحيوية .. متوقداً بالشباب .. ثم لاترى من زوجها المشغول بالعبادة عيناً ترنو إلى هذا الشباب ، فلا تجد عزاء إلا أن تذهب إلي الرائد الذى لايكذب أهله .. ليسع قلبه الكبير آلامها .. تحدوها رغبة ملحة فى وضع حد لحياة لاتطاق .. إنها إذن تعلن عن صفاء ضميرها .. حين اتجهت إلى الرسول الكريم . تطلب الرأى والمشورة لدى الناصح الأمين .

الزوجة تذهب إلى مصدر الحكمة

ذهبت « جميلة بنت سلول » تشكو بثها وحزنها إلى الرسول ﷺ . ولو أنها ذهبت إلى أى إنسان بدافع من أشواقها العارمة . الباحثة عن الحق الضائع لقلنا إنها امرأة تبحث عن أى حل .. تنهى به حياتها مع الرجل على أى نحو .. بغض النظر عن النتائج .. وماذا تكون أما أن تختار الحاكم العادل .. فإنها فعلاً حريصة على السلام .. فى ظل بيتها .. شريطة أن يعود المجداف إلى الملاح الغافل .. المستغرق فى سبحاته .. ليقود السفينة التى تدور بالبخار .. لا بالبخارى ؟!

فالنية هنا رغم فداحة الخطب سليمة .. والزوجة تبحث عن الوئام فعلاً . ولاتتخذ من العلاقة الزوجية ألعوبة تخضع للأمزجة المتقلبة .. ولاتتمرد على القيم الأصيلة .. بحثاً عن الجديد دائماً !

إنها تريد تقوية العلاقة الزوجية ليبقى الود موصولاً .. هذه الرابطة التى تصورها ريشة الأديب لنراها :

(علاقة لاتنحسر عنها دائرة الضوء . لها وجود .. ولكنه الوجود المتألف .. وليس فى منطقة شبه الظل .. مودة .. لايخبو بريقها .. مع حركة الزمن ولا تزوى نضارتها مع لفحات الهجير .. ولاتنقصف فروعها الباسقات .. فى مهب الأعاصير)

إن الزوج الجليل المهيب « قيس بن ثابت » لايعيش أزمة فى الدين .. ولكنها أزمة « التدين »

فالرجل من الدين فى الذروة .. لكن طريقته الاقتصار على العبادة .. دون أن يحقق ثمارها فى البيت أمناً وقراراً . وهو الذى أثار حفيظة زوجة تحب زوجها حب العقلاء الذين يسوءهم التضحية بأحبابهم .. لشهواتهم .. وليس هو حب الحمقى الذين تستبد بهم شهواتهم .

ولقد وقف ﷺ إلى جانب الزوجة المظلومة .. صادراً فى وقفته من قاعدة الإسلام الذى جعل من « الزوجية » سنة من سنن هذا الكون .. تساوق كل مافى هذا الكون من تزاوج وتناسق يحقق الله تعالى به السكينة والقرار .. على مايقول سبحانه ﴿ **ومن كل شئ خلقنا زوجين** ﴾ ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم** ﴾

كيف عرضت الزوجة قضيتها :

ومن الأهمية بمكان أن نتأمل كيف عرضت الزوجة قضيتها ؟

إنها لم تطلب الطلاق .. ولكنها تبسط مسألتها بلسان العفة ومنطق العدل الشاهد للزوج بمكانته .. إن فى أعماقها رغبة فى أن تعيش كزميلات لها .. وقد تسول لها تلك الرغبة أن تلجأ إلى الكلمة الغاضبة .. أو الفاضحة الجارحة لكنها لم تفعل ولن تفعل .

وإذا كانوا يقولون : والفضل ماشهدت به الأعداء .. فإن الفضل أيضاً ماشهدت به زوجة محرومة مكلومة تبحث عن نصفها الضائع .. وهو بين يديها ! ثم لم تجده !

وكيف يتوهج الحب بين الزوجين .. برماد لانار فيه ؟!

إنها تهفو إلى ظلال من مودة زوجها وأنسه .. فإذا هى فى أحلام اليقظة التى تتبخر علي مسرح الواقع الصارم .. مخلفة وراءها نفساً حيرى .. وقلباً هلوعاً .

لقد صبرت أولاً .. ثم صابرت أشواقها العارمة فلما عيل صبرها اشتكت وذلك قولها (وليس فى طوقى مجاراته)

إن الزوج هنا يحقق من العبادة مرادها من تعظيم الخالق سبحانه وتعالى .. لكنه لم يحقق نصفها الآخر شفقة على حقه تعالى .. وبخاصة على زوجة اقترنت به على سنة الله سبحانه وسنة نبيه ﷺ .

ومن مظاهر تلك السنة أن يعفها وتعفه وأن ينضح من هذه العفة برد القناعة والرضا .. يتنامى بهما الود بين زوجين تنداح دائرة الحب بينهما على مايقول شاعرنا العربى :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

حين عرضت « جميلة » عليه صلى الله عليه وسلم مشكلتها . لم يقف موقف المتفرج لكنه تدخل ليحكم بالعدل فكان حكمه فصل الخطاب .

فسألها عما إذا كان فى إمكانها رد بستانه إليه .. أى أنه لم يجبها إلى طلب الطلاق فور بيان أمارات صدقها .. بيد أنه يربط القضية أولاً بمشيئتها الحرة .

ثم يجعل من رد البستان عقبة قد تثير فى نفسها نزاعاً بين غريزة التملك وغريزة الجنس .. إلى حد قد يدعوها إلى إعادة النظر .. فلما سمحت نفسها برد البستان .. ظهرت دلائل رغبتها الملحة فى الفراق .. فكان الطلاق .. وكان آخر الدواء .

وهكذا انتهت العلاقة كما بدأت : على سنة الله ورسوله .. وعلى رجاء فضل الله سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ .

نعم تنتهى كما بدأت بلا تهريج يأباه الطبع الكريم .. ويعف عنه أرباب المروءة . ثم .. لايصبح الطلاق حينئذ مشكلة تروع المجتمع .. وتهدد سلامته .. بل إنه والحالة هذه يصير حلا حاسماً لمشكلة ربما لو بقيت معلقة .. وظلت الزوجة رهينة المحبس .. لتأدى بها الأمر إما إلى الكبت .. واما إلى الانفجار

إما كبت يميت فى مثل « جميلة » بعفتها وشجاعتها . بخلقها الصالح يميت رغبتها فى بناء أسرة أخرى تتوفر لها أسباب البقاء .

واما انفجار .. تسرى به الشائعات كالنار فى الهشيم .. ثم لاتجدى العبادة فى صد هذا التيار .

إن الزوج هنا يختار العبادة شرعة له ومنهاجاً .. فمكانه هناك فى مغارة بالجبل .. أو مدخل .. وفى نفس الوقت هناك رجال تواقون إلي

ممارسة الحياة المتكاملة كما أرادها الله تعالى .. وتقضى شريعة العدل أن يلتقى الزوجان .. أن يمتزج القلبان وهما من جند الله تعالى .. والتى تتعارف .. ثم تتآلف .. ومن خلال هذا التآلف تنقدح شرارة تضئ تماماً كما تلتقى السحابة الموجبة بالسحابة السالبة .. فيتكون من احتكاكها ضوء كاشف وأمطار وأزهار وثمار !

عندما يكون الطلاق آخر الدواء:

فإذا لم يتحقق ذلك : فالطلاق في مثل هذه الحالة .. يكون هو الدواء .. ولا دواء سواه .

وقد يحس المجتمع بمرارة .. وقد يلوح فى الأفق غيم تنقبض له النفوس .. ولكن الأمر على ماقيل : ومن السموم الناقعات دواء .

وصدق القائل :

وبعض السم ترياق لبعض   وقد يشفى العضال من العضال

وقد يحدث أن يتدخل اليوم ناس طيبون فى مثل هذه القضية فماذا نسمع ؟ نسمع الرجاء تلو الرجاء موجهاً إلي الزوجة الشابة أن تصبر .. متجاهلين المعركة الهائلة الدائرة فى كيانها .

هذه الحـــرب التى لاتضع أوزارها .. إلا بالإشـــبـــاع .. وبدل أن يعالجوا القضية بنصح المقصر فى أداء الحق .. يربتون على كتف المظلوم .. ليحنى ظهره .. متحملاً مزيداً من الأثقال .

والنتيجة ؟

تمضي الأيام بطيئة .. مريرة .. وتتفاقم الأزمة مع الأيام .. ثم يصبح الطلاق حتماً مقضياً .. هذا الطلاق الذى يجئ متأخراً عن موعده .. فيحدث الآتى :

يتقدم لخطبتها مانسميه بزوج الضرورة .. أصغر منها سناً . أو أقل منها منزلة .. أو طاعناً فى السن لايبحث عن زوجة وإنما يبحث عن ممرضة !

وقد تقبل المرأة المسكينة مثل هذا الزوج فراراً من شائعات تلاحقها .. أو تخلصاً من حساد يشمتون بها .. ثم يكون الأمر على مايقول الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

فليخسأ أعداء الإسلام

فى موقف « جميلة بنت سلول » وما كان من أدبها وعفتها .. فى عرض قضيتها .. ثم فى تحقيق رغبتها فى الطلاق .. فى هذا الموقف رد يبطل شبهة أعداء الإسلام الظانين به ظن السوء .. والقائلين لإخوانهم فى الغى إن الطلاق نقطة ضعف فى بناء الإسلام - زاعمين أنه فى يد الرجل سلاح بتار .. فوق رأى زوجة لاحول لها ولاقوة .

غير أن الإسلام - بهذا المشهد الفريد وأمثاله - ليقف دائماً إلى جانب الزوجة مادام الحق معها .

ونقرأ فى هذا المعنى قوله تعالى ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلاتأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا** ﴾

﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ .

ويلاحظ : أن فى الآية معنى بارزاً وهو حق الزوجة المالى . والذى يجب أن يرد إليها عند وقوع الطلاق بالغاً مابلغ .. وكان الظن أن تقول الآية الكريمة : وكيف تأخذونه .. وقد صار حقاً لهن .

ولكن الآية الكريمة تردع الطمع فى قلب الزوج بتذكيره بحساسية العلاقة الزوجية ودقتها .. الأمر الذى يفرض الوفاء القاضى برد حقها كاملاً غير منقوص .. تحريضاً له على الوفاء .

وذلك قوله تعالى : ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض** ﴾

وليس ذلك فقط بل لقد ﴿ **أخذن منكم .. ميثاقاً .. غليظاً** ﴾

لقد كنتم جسداً واحداً .. ونفساً واحدة .. هن لباس لكم .. وأنتم لباس لهن .. وكان الظن أن يستمر حبل الوداد موصولاً . وأن تسعف الحكمة هذا الزوج لتقول كلمتها الرابطة على القلوب .. المانعة من الفراق .. فتنبه أيها الزوج الغاضب .

وتذكر علاقة من هذا النوع .. إنها ليست علاقة صديق بصديق .. ولاأخ .. بأخيه .. كما وأنها ليست زمالة عمل فى الديوان .. إنها شئ أكبر من ذلك كله .

لقد أفضى بعضكم إلى بعض .. ونشأ عن ذلك من الأسرار مالم يكن للبنت حتى مع أمها .. ولاأبيها .

وإذن فكان ينبغى أن تستبعد فكرة . الطلاق وإذا وقع المحظور .. فلا أقل من أن ترد إليها حقها كاملاً .. فإن لم تفعل .. كنت من الظالمين .. الناقضين عهداً وثيقاً أعطيته لها بمحض اختيارك .

وبعد : فقد كانت جميلة تلك الزوجة ذات الدين .. التى وصى بها الرسول خيراً : لاتتخلى عن كمالها المشتق عن تدينها : حتى لحظة الطلاق .. فاظفر بذات الدين .. تربت يداك .. اظفر بها .. فهى على أى حال أنبل من غيرها .

إن الذين يبحثون عن الجاه والمال والجمال إنما يتزوجون هذه الرغائب فإذا ضاع المال .. وإذا ذهب المنصب ضاعت معهما علاقة ولدت لتموت .

لقد كان الإسلام حكيماً عندما حض على زواج ذات الدين .. إنها نعم المؤنس والرفيق .. فى الرخاء .. وفى ساعة العسرة .. وحين يغالبها هواها .. فإنه لايغلبها ، ولايخرج بها عن الخط المستقيم .

وإذا قطعت حبال الزواج .. فقد بقيت علاقة الإنسانية مانعة جامعة . وتلك عبرة الساعة فى قضية « جميلة بنت سلول » :

جميلة الاسم .. جميلة المسمى على السواء .

مع الأسرة .. فى ساعة العسرة

١ - ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ سورة البقرة « ٢٣٠ » .

تظل الحياة رخية ناعمة مابقيت علاقة المرء بزوجه وطيدة الدعائم .. ثابتة الأركان .. وكل وليد يترعرع فى هذه الدوحة يستوى مع الأيام على سوقه فى ظل من حنان أمه .. ورعاية أبيه .. ومتى أحس الطفل بالحب والأمن معاً .. حسنت صلته بالحياة .. فحسن ظنه بها .. ثم أقبل عليها جذلان راضياً .. بل إن تصوره للحياة ليأخذ معنى أرحب من بيئته .. ولسوف يطير به خياله فى كل اتجاه .. وراء مباهج أعطته الحياة عناصرها .. حين أشبعت حاجته للحب والأمن معاً .

ولأن استقرار الحياة الزوجية بهذه المثابة .. كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى .. لأنه يحول بين الأسرة وحاجتها إلي القرار .. حين يضطرب المجداف بين يدى ملاح تائه فوق محيط ثائر الموج .. فلا تستقر علي حال من القلق .

وإذا كان الإسلام يمسك علاقة الزوجية أن تذوب فى غمرة المشكلات المتجددة وإذا كان قد خط السبيل القاصد لتحقيق السعادة .. بما أوجب على كلا الزوجين .. ولهما .. فإنه حتى إذا تجاهل الزوج ذلك - لايتخلى عنهما فى ساعة العسرة أبداً .

إنه يمسك بتلابيب الزوج الغاضب .. قبل أن يحرك لسانه بكلمة تهدم الصرح القائم .

وإذا كان هو قد طلق قبل ذلك مرتين .. ثم وجد طريق العودة مع ذلك ممهداً .

فإن عليه اليوم معرفة سوء حاله لو خاض التجربة الثالثة .. ونطق بالكلمة الأخيرة .

إن الطريق إلى زوجته يصير حينئذ وعر المسالك .. وسوف يزاحمه فيه شخص غريب .. يسبقه إليها .. فيخلفه فى مملكة كان فيها السيد المطاع .

وذلك بعض مايفهم من قوله تعالى ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾

والآية الكريمة ترسم صورة حية لأيامه المقبلة .. من شأنها أن تمسك لسانه فلا ينطق بكلمة الفراق .. واذا حدث ونطق بها .. فلاينبغى لأحد من بعده أن يقف موقفه حتى لايواجه مثل مصيره .

فماذا فى الآية الكريمة من معان تضبط فى قلب الزوج الغاضب دوافع الانتقام ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لايستدعى فرداً معيناً يتجه إليه بالخطاب .. وإنما تتحدث عنه الآية الكريمة بضمير الغيبة ﴿ **فإن طلقها** ﴾ .

واستبعاده من الساحة .. وعدم تشريفه بالخطاب .. صورة من صور التجاهل لإنسان يفقد - فى مثل هذه اللحظة - وجوده الأدبى .. وإن كنا نسمع صوته .. ونرى جثته !

فهو يقطع ماأمر الله به أن يوصل .. ويستغل سلطته فى طرد مخلوق ضعيف من ظله وحمايته ليعيش فى وهج الشمس ووحشة الضياع .. فهو نشاز فى نغم متناسق .

فالدنيا ضاحكة مستبشرة .. تفتح ذراعيها لكل مقبل عليها .. راغب فيها .. ثم هى فى جوهرها .. حلاوة .. ومرارة .. نقص وكمال .. صحة ومرض .. وأنه لم يتقبلها على هذا النحو .. لأنه يريدها صفاء مطلقاً .. ولن تكون كذلك .. إنه رجل يحكم مزاجه الخاص .. وبه يريد أن يسير دفة الكون .. ولن يوجد مثل ذلك الرجل .. واذا وجد فهو شبح لاوزن له يعبر آفاق الوهم .. خاطراً فى « ضمير الغيب » !

ولكنه مع ذلك موجود فى دنيا الناس .. وظاهرة اجتماعية ينبغى أن تلاحق بالتأديب والتهذيب .. وهو ماتتكفل به الآية الكريمة فى صدرها .. بما رسمته من مستقبل يتملاه مثل ذلك الزوج .. حتى إذا رأى نفسه على « شاشة » ذلك المستقبل علي هذا النحو الذى يرفضه كرام الناس .. ربما أعاد حساب ربحه وخسارته قبل أن يتخذ قراره الأخير .

فعلى أى نحو ستكون أيامه المقبلة - لو طلق الثالثة - التى يوشك الآن أن يتخذ إليها سبيلا ؟

إن الزوجة التى يملك معاشرتها الآن .. لن تحل له بعد ذلك .. فكلمة الطلاق التى يمكن أن ينطق بها .. سوف تحفر بينهما برزخاً عميق الأغوار .

(فلا تحل له من بعد)

وعليه إذا أراد العبور إليها أن يتخطى جسراً من التعب : فربما تصور الزوج أن الزوجة المطلقة .. ستنتقل إلي بيت أمها .. ثم تمكث هناك بقية عمرها فى أحضانها .. تجتر ذكرياتها معك .

بيد أن الآية الكريمة تطالعه بما يقض مضجعه .. حين تبين له زوجته وهى فى عصمة رجل آخر غيره .. وهو الأمر الذى يتجاهله ولايكاد يذكره :

﴿ فلا تحل من بعد .. حتى تنكح زوجاً غيره ﴾

فهلا طامن غضبه إزاء هذه الصورة التى تطل عليه من شرفات مستقبل متجهم ؟

هل تحسس نبض قلبه .. وصلابة أعصابه ليعرف مدى تحمله لصدمة من هذا النوع ؟ وإذا لم يكن قد فعل .. فليعد النظر تارة أخرى .. ليرى بقية النذر التى غض عينيه فلم يفطن لها :

إن زوجته - السابقة طبعاً - لن تستمر مستسلمة فى بيتها ضحية لهواه المتلقب .. ففى كيانها رغبة فى الزواج .. ككل أنثي تحس بوحشة

الفراغ .. وكل امرأة تقلقها الوحدة متطلعة إلى حياة ذاقت طعمها من قبل : ثم إنها لن تضمر هذه الرغبة فى صدرها إلى أن يطرق بابها الخاطبون .

بل سوف تعلنها صريحة واضحة .

سوف تبحث عن ذلك الزوج المرتقب .. بلسان الحال أو المقال .. لتنكحه هى ؟! ﴿ **حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾

أى أنه سيخرج من حياتها .. وتقتلع مع أرضها جذوره .. متطلعة إلى رجل آخر يرثه مملكته ويستمتع بما كان مباحاً له من قبل .

ومن شأن الكبرياء المزيف أن يعود مثخناً بالجراح أمام هذا التصور الرهيب .. التصور الذى يوشك أن يكون حقيقة يراها بعينه .. كل يوم :

إن الرجل - فى غيبة إيمانه بربه - قد يسمح لزوجته أن تسير معه فى الطريق شبه عارية .. بل ربما كانت نظرات الشباب إليها بعض مآربه !!!

لكنه سيثور - ان بقيت فى دمائه ثورة - إذا انقلب اوضع .. فكانت هى الناظرة إليهم .. المحملقة فى وجوههم .. من حيث كان ذلك اعراضاً عنه .. وزهداً فيه .. إلى غيره .. وهو المعنى الدقيق الذى تملأ به الآية الكريمة وعى الزوج هنا حين أضافت النكاح إليها هى .. والعهد بالقرآن أن يضيفه إلى الرجل .

ولعل بصيرته تستيقظ على واقع جديد .. تتحول به زوجته من تابع أمين مسالم .. إلى إرادة تبحث لنفسها عن الخلاص .. وتعلن التمرد على قائد .. لم يحسن تدبير الأسرة .. فاستغل سلطته فى نقض غزلها من بعد قوة انكاثاً .. إن عليه أن يدفع الثمن من أعصابه غالياً .. ثم إن هذا الزوج الذى ترتقبه .. لن يكون مجرد إنسان أو زميل فى مكتب ومصنع إنه « زوج » له كل حقوق الزوجية .. زوج تدول به دولته .. وتطوى رايته .

ولاتقول الآية الكريمة ﴿ زوجاً آخر ﴾ ولكنها تقول ﴿ زوجاً ـ غيرها ﴾ وإبراز معنى الغيرية مضافاً إلى ضميره الصريح له مغزي عميق الدلالة :

فكثير من الزوجات يعشن في ظلال أزواج « آخرين » وهو أمر يتصوره الإنسان فلا يحرك في رأسه شعرة لأنه شئ عادى .. وصورة مكررة في بيئة كل إنسان .. ولكن « الزوج » المأمول هنا .. خلاف هؤلاء جميعاً فهو غيرك .. أنت بالذات !!

يخلفك من دون الناس جميعاً في دولة كنت فيها الآمر الناهى وبالحرمة الأسرار التى تطل الآن من مكامنها .. لتكون في متناول غريم يقف اليوم على أطلال حياتك .. والأزواج نيام .. فإذا طلقوا انتبهوا !!

وهكذا تتصدي الآية الكريمة في نصفها الأول كل راغب في الطلاق حتى يتريث وكأنما هى في كلماتها الموجزة الموحية .. مانعة صواعق .. تحول بين الأسرة وبين الانهيار .. ولو أحسن الناس فهمها لوفروا على أنفسهم متاعب لاقبل لهم بها .

ولو أحسن الكاتبون السطحيون فهم مراميها لوفروا أيضاً على أنفسهم مايبذلون من جهد في البحث عن قيود الطلاق .. بعد أن وضعت الآية الكريمة من الضوابط مايمسك الأسرة أن تزول .. وبعد هذا كله .. تقف أداة الشرط « إن » على رأس الآية الكريمة لتزعزع إرادة الرجل فلايقدم علي الطلاق .. من حيث كان مدخولها بعيد الوقوع .. أى أن الطلاق حينئذ تجربة غير مضمونة النجاح .. وعلى كل عاقل أن يراجع نفسه قبل الدخول فيها وإذا حدث وفعل فتحت ظروف قاهرة .. تجعل من الطلاق ذاته مخرجاً وحيداً .. وفي هذا المعنى يقول المرحوم العقاد :

(فإذا أحل - أى الطلاق - بعد استنفاد الوسائل المستطاعة .. فما من حل آخر يغنى عنه وما من تحريم له وهو أشد قسوة .. وأقل نفعاً من التحليل)

٢- ﴿ فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾

لأن الطلاق ضربة موجعة فى كيان الأسرة .. وهى من المجتمع قلبه النابض فإن الشيطان المريد يتخذ منه سلاحاً يفرق به بين المرء وزوجه .. بل إن أقرب جنوده إليه .. هو ذلك الذى ينجح فى قطع هذه العروة الوثقى .

ولن يتصدى الشيطان للإنسان وهو معتدل المزاج .. موفور السعادة .. فتلك لحظة قوة ترتفع بالإنسان فوق مكايد الشيطان .

لكنه يدور حوله فى مثل هذه اللحظة من لحظات الضعف الإنسانى .. والتى يحس فيها الزوج بأنه يملك .. وبكلمة واحدة .. أن يحطم هذا البناء العالى بكلمة واحدة .. لاسيما والبديل ميسور .. والمهر مقدور عليه .

ومن هنا يشدد القرآن التكير على الزوج الغاضب .. قبل أن يتخذ موقفاً ربما ظنه بطولة .. أو مغامرة .. كما تملى عليه وساوسه .

لكن الإنسان هو الإنسان .

فقد يتجاهل نداء السماء كأن فى أذنيه وقرا .. فلا يضبط نوازعه .. ثم يطلق امرأته للمرة الثالثة .. أجل قد يتجاهل الزوج هذه النذر المتلاحقة والتى تلسعه بها الآية الكريمة .. بما ضمت عليه من أمور ترميه بهموم ثقال .. لو اتخذ قراره .

ولعله .. وبعد فوات الأوان .. يحس بمرارة تجربة خاضها .. حين يصل منها إلى مرحلة تحرق دمه فى عروقه .. وبعد أن يرى ماأنذرت به الآية الكريمة واقعاً ملموساً .. وهاهى ذى زوجته فى عصمة رجل آخر ؟

وقبل أن تأكل الهموم مابقى من أعصابه .. فإن الآية الكريمة تقف إلى جانبه بل إلى جانب الأسرة كلها .. فى محاولة لرأب الصدع .. وعودة المياه إلى مجاريها .

إن الآية الكريمة تتحدث عن الزوج الثانى حديثاً عابراً .. فلايطول ذكرها له وسرعان ماتقف بنا موقف المتوقع لتجربة تنذر بفشلها المرتقب .. أى أنها تولد لتموت « فإن طلقها » أى الزوج الثاني .. ثم يعود السياق إلى الزوج القديم وزوجته التى طوحت بها الأقدار إلى بيت غريب .. وطبع غريب « فلاجناح عليهما أن يتراجعا » .

ومعنى ذلك أن الزواج الثانى يجئ نشازاً فى لحن متناسق .. ونسبة نجاحه لاتغرى بتحمل مسئوليته .

فالرباط المقدس الذى جعله الله مودة ورحمة مازال ضارب الجذور فى أعماق النفوس رغم كل ماحدث وكأنما كان الأمر امتحاناً صعباً لكلا الزوجين .. يمحص العلاقة .. ويمهد لظروف ماكان يهجس بها خيال .. من شأنها أن تهز النفس لتفيق من سباتها .. وهى لمحة مضيئة تلفت انتباه الناس إلى التزمل .. والفهم والموازنة ليلتقوا بالحق الواضح فى موضوع طال حوله الجدل .. ولم يصلوا فيه إلى قرار يحسن السكوت عليه .. لأن القضية إذا بحثت بعيداً عن منهج الله تظل غائمة عائمة .

وحين يتجهون إلي القرآن الكريم بتوجيهاته الرشيدة فى مثل هذه الآية .. فسوف يتريث الغاضبون .. قبل أن يصل بهم الغضب إلى موقف لايحسدون عليه .

ولو أننا ساءلنا الواقع الماثل لأجاب الإجابة الكافية الشافية لصدور قوم يبحثون عن بر الأمان فى معترك الموج .. فقد يكون للزوجة أطفال صغار .. إن تركتهم له ضاعوا .. وإن أبقت عليهم جاعوا .. ومع ذلك فلها مع زوجها ذكريات عزاز تلاحقها .. وتؤرق حياتها ..

لاسيما بعد أن تترك البيت .. وتهدأ العاصفة .. وبعد أن ترى الحياة من حولها تنقلب بالناس .. وكلهم يعيش .. ويمارس الحياة بما فيها من حلو ومر .. وضعف وقوة .. فلماذا لاتعيش هكذا .. مثلهم .

وأفكار من هذا اللون تتراكض فى ذهن الزوج أيضاً .. ويضئ الجو الملبد بالغيوم رويداً .. فتتضح الرؤية وتبدأ عين الرضا تمارس عملها صفحاً وتسامحاً .. بعد أن كانت عين السخط سيدة الموقف .

إن اليوم الأول فى حياة عامل جديد .. والليلة الأولى فى رحلة الغريب المسافر .. كل ذلك يخط فى الأعصاب مجرى عميقاً يستعصى على النسيان .

وفى دوامة الأحداث قد يكره الإنسان .. فتبدو الأمور فى ناظريه أكبر من حجمها الطبيعى .

وقد يسول له ذلك رؤية سطحية لحياة الآخرين الذين تملأ ضحكاتهم أذنيه فيحسبهم أكثر سعادة منه .. بينما هم فى الواقع يخفون بالضحكات نباح الألام فى قلوبهم .. بيد أن الزمن .. والرؤية المتأنية الواعية كفيلة بكشف الرغوة العائمة .. وتبدو حقائق أصيلة .. ترسبت هناك فى أعماق الزوج والزوجة معاً ويظل الرباط مع هذا قائماً .. وإن توقف قليلاً من خلال تجربة جديدة قصيرة العمر مع زوج جديد .. لقد خف إحساس الزوجين يوماً بهذا الرباط .. وتلك الحقائق لكنها اليوم فى مهب ريح عاصف تبدو كفص من الماس .. يخطف بريقه الأبصار .

وانها لفرصة تتجدد بها الحياة .. كأجمل ماتكون الحياة .. من أجل ذلك .. كان التركيز على العلاقة الأولى مع تبلد الجو بالغيوم أمراً تفرضه طبائع الأشياء وكان الزوج الثانى حلقة غريبة فى سلسلة

ممتدة يراد لها أن تدوم .. لقد كان فقط صدمة عصبية صكت مسامع زوج متهور .. يصحو اليوم علي دقات الحقيقة المرة .. وهو بالخيار إن شاء إلى الجنة .. وإن شاء فإلى النار !!

فإذا استقامت الحياة بالزوج الثانى فبها .. وحتى فى مثل هذا الظرف الطارئ لايتخلى الإسلام عن منهجه فى بغض الطلاق وذلك فى اختيار الآية حرف الشرط « إن » ومايشير إليه من استبعاد وقوع مدخوله .

فالزوج الثانى فرض يراد به ازعاج العازمين على الطلاق .. ولكنه مع ذلك فرض جائز الوقوع .. فإذا وقع .. فللزوج الثانى أن يعود إليها .. وهذا هو طريق العودة ممهداً .. ﴿ **فلا جناح عليهما أن يتراجعا** ﴾

إن طيف الزوج القديم مازال يرف من خلف السطور .. إنه وإن فقد وجوده الفعلى بحياة الزوجة مع آخر .. إلا أنه ذكرى عزيزة غالية فوق النسيان .. على مايقول الشاعر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ماالحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزل

ألم تر إلى ضمير التثنية فى قوله تعالى : ﴿ **فلا جناح عليهما .. أن يتراجعا** ﴾

فالسياق يجمعها فى ضمير واحد . تمهيداً لاجتماع يستأنفان به حياة جديدة . وكأنه وقد توقع فشل المحاولة الثانية .. يحتفظ بالزوج .. فنحس به متأهباً .. أو هكذا يجب أن يكون .. لاهتبال أول فرصة تلوح لتعود به إلى زوجة طالما أساء الظن بها .. وإنه ليوشك أن يتقدم الآن ليرأب الصدع .. ويجمع شملاً فرقته الأيام .. ويستقبل بالعودة المباركة

صغاراً هم أشد جوعاً إلى عواطفه ورعايته من لقمة العيش .. وجرعة الماء .. وقبل أن يقعوا فريسة عقد نفسية تنهى وجودهم الأدبى فلا يستمتعون بحياة .. ولا يسعد بهم وطن .

بيد أن هذه العودة المباركة مشروطة بموافقة الزوجة صراحة .. وليس ذلك بالشرط التعسفى الضاغط .. بقد ماهو ضمان أكيد لاستمرار الحياة من جديد فإن الفشل المكرر يقضى على كل أمل فى النجاح بعد .

فالزوجة أولاً قد أضافت إليها المشكلات خبرة تمكنها من التصور الصحيح للمستقبل .. وبالتالى من صحة الحكم له .. أو عليه .

وثانياً ..وهو الأهم - فقد أمسك الزوج بالزمام يوماً - وأتيحت له قيادة السفينة عبر المحيط الواسع .. فما كان منه إلا أن أذاق الأسرة لباس الجوع والخوف .

لقد أذاقها الأمرين .. حين طلق قبل مرتين .. وحتى لاتتكرر المأساة .. لابد أن تشاركه المرأة قرار العودة .. والإعداد للعش الجديد لحملا معاً مسئولية المستقبل .. فى ضوء التجربة التى ذاقا مرارتها .

فإذا التقت الآراء حول تقرير المصير .. فلا بأس .. بل هو مايطلبه الإسلام .. وذلك قوله تعالى ﴿ **فلا جناح عليهما أن يتراجعا .. إن ظنا أن يقيما حدود الله** ﴾

فإذا كان قد استثقل عبء الأولاد .. ومشكلات الأسرة الكبيرة .. فراح يجرى به خياله عبر الفردوس المفقود .

إذا كان قد توهم ذلك فليعلم أن هذه عبودية للمزاج الشخصى الذى حكمناه من قبل فكان ماكان . وليست الأسرة بعد اليوم لعبة فى يده .. يتخذها حقل تجارب لنزواته الطائشة .. ولاتطلب الآية الكريمة دقة صارمة تؤكد نجاح تجربة العودة .. فقد يكون ذلك فوق الطاقة .. لكنها تكتفى بمجرد غلبة الظن .

﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾

اكتفاء بما مضى من تجارب بينهما تجعل الحكم بالنجاح أقرب إلى اليقين .. فإذا ظنت هى .. وظن هو .. أن فى العودة تصحيحاً للأوضاع .. وسيراً بالسفين خفاق الشراع .. بعيداً عن مواطن الزلل فلا بأس أن تبدأ الرحلة المباركة ولا بأس إن بقيت فى النفوس بعض الرواسب المتخلفة .. ففى ضحكة الولد وإشراقة البنت .. وأنس الاجتماع .. ماينسى هذه الأوجاع .

وليت شعرى .. أى تكريم للمرأة فوق هذا ممايعرف الناس من قوانين البشر ؟

إن الإسلام لايرفض فقط أن تكون الزوجة لعبة فى يد الرجل .. بل إنه ليقف بها موقف الكرامة حين يتيح لها حينئذ أن تقرر مصيرها بيدها .. ثم أليس من تكريمها أن تعود إلى عشها الأول .. فراراً من أحاديث الناس .. وقبل أن تكون حياتها حديثاً يروى ؟

وتلك هى حدود الله تعالى معالمه .. تطل على الناس من عل .. ليرفعوا أبصارهم إليها .. وليزدادو إيماناً بها .

وإنها لواضحة بينة لمن أراد أن يذكر أو يخشى .

وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون .. فيعملون .

تجار الأسرار

أقامت الممثلة الكبيرة الدنيا وأقعدتها .. لأن واحداً من الناس تجرأ ونشر على الملأ أسرار حياتها مع مطلقها .. ليحصل من وراء ذلك على مال وفير.

وقلت في نفسي : لا بأس .. فما زال في الدنيا بقية من حياء تضن بالأسرار أن تكون تجارة . وبالبيوت أن تكون كلا مباحاً .

لكنني فوجئت بالممثلة تعلل ثورتها بأن ذلك النشر قد تم قبل أن توافق عليه ؟! أي أنه لا خلاف بين الاثنين علي إذاعة الأسرار .. ولكن الخلاف فيمن يملك ذلك ؟!

فلا يهم أن يكون العمل في ذاته خيراً أو شراً .. ولا يدخل في الحساب مايتركه من آثار سيئة على الفرد والمجتمع .. فكل هذا غير وارد .

وأهم من ذلك كله :

من الذي يتولى تقديم أسرار البيوت وجبات شهية .. إلى الغافلين من البشر الراغبين في متعة زائفة تستمد وجودها من أخطاء الآخرين.

وذكرتني الفنانة بأخت لها رفعت دعوى مستعجلة علي صحيفة يومية لأنها نشرت صورة لها مشوهة !!

وطالبت بستة آلاف دولار تسترد بها هيبتها الضائعة .. ولما رحت أبحث عن السر تبين لي أن المرأة هنا لم تغضب لكرامتها .. بل كان غضبها لأن الصورة لم تعجبها !

ولو أن الصحيفة نشرت صورتها بلا تشويه .. ولو كانت عارية أو شبه عارية لما كانت هناك ضجة . ولما كانت هناك دعوى .. فالنشر على هذا النحو .. بعض مآرب الممثلة - الأجنبية - الكبيرة !!

من سجل الخالدين :

وانتهى الخبر .. وانتقلت من حره ولسعه .. إلى واحة الإسلام الظليلة .. إلي أشعة من هداه مفروض على الحياة اليوم أن تتمثلها .. وتأوى منها إلى ركن شديد .

لقد صاغ من رجاله أزواجاً يضنون بالأسرار حتى في ساعة العسرة .. تقديراً ووفاء .

وعندما طلق الرجل الصالح امرأته .. تطلع الفضوليون وتجار الأسرار .. وذهبوا إليه يسألونه عن السبب .

قال لهم :

لايجمل بى أن أذيع سر امرأة ماتزال تقضى عدتها .. فهى زوجتى بالقوة إن لم تكن بالفعل .

ولم تهدأ غريزة حب الاستطلاع التى بقيت متفتحة تتابع الموقف باهتمام شديد !

فلما انقضت عدتها .. عاد إليها الفضوليون يسألونه الوفاء بوعده !!

قال الرجل لهؤلاء الذين يلعقون جراح الآخرين .. ويرقصون على أناتهم : الآن انتهت عدتها .

وانها لتنتظر زوجاً جديداً .. وحرام أن أبوح بسر يحرمها من تجربة ثانية مع زوج جديد !

فإذا تزوجت بحت لكم بالسر !

وفشلت المحاولة .. وبقى الوفاء ثابتاً فى قلب الرجل .. وقد رأينا بأعيننا كيف عادت زوجات - بعد الزواج الثانى - إلى الزوج الأول .. على أقوي مايكون الوفاء .. الذى كان الطلاق بوتقة له .. فخرج منها أنصع بريقاً !!

بعد الزواج الثانى

وتزوجت المرأة .. وصارت فى عصمة رجل آخر .. وكان الرجل وفيا كالعهد به .. فألقم المتطفلين حجراً حين قال لهم : إن زوجتى السابقة صارت اليوم حلالاً لغيرى .

وحرام على هذا اللسان أن يخوض فى أعراض الآخرين .. وانتهى الدرس ألذى لاينساه الفارغون .

إن العلاقة الزوجية قدسية .. ينبغى أن نرتفع بها فوق المساومة ـ ولم تكن فى يوم من الأيام مسلاة أو ملها إلا فى غيبة الإسلام .

ومازالت صحائف التاريخ الإسلامى تحفل بمثل هذه النماذج العالية .. لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

فهرس الموضوعات

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس